اريج الزّهر

كتاب اخلاقي اجتماعي ادبي

تأليف

الشيخ مصطفى الغلاييني

استاذ اللغة العربية في المكتب السلطاني والكلية العثمانية
في بيروت

وهو بعض ما كتبه من المقالات في الموضوعات المفيدة والاغراض الصحيحة والمعاني الجليلة . وقدّمه لنابتة الامة . ليكون لهم خير سمير وآنس جليس

وهو يطلب من ادارة

المكتبة الاهلية . في بيروت

طبع بالمطبعة الاهلية في بيروت سنة ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م

أريج الزهر

كتاب اخلاقي اجتماعي ادبي

تأليف

الشيخ مصطفى الغلاييني

استاذ اللغة العربية في المكتب السلطاني والكلية العثمانية

في بيروت

وهو بعض ما كتبه من المقالات في الموضوعات المفيدة والاغراض الصحيحة والمعاني الجليلة . وقدَّمه لناشئة الامة . ليكون لهم خير سمير وآنس جليس

وهو يطلب من ادارة

المكتبة الاهلية . في بيروت

طبع بالمطبعة الاهلية في بيروت سنة ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م

اهداء الكتاب

جرت عادة السلف ، كما درج عَلَى ذلك الخلف ، ان يقدم المؤلف كتابه الى رجل من رجال الامة الذين توفرت فيهم الملكات الفاضلة ، ونالوا نصيباً غير قليل من المصاعب في سبيل الخدمة العامة · وقد فكَّرت فيمن اهدي اليه كتابي هذا ، فكان اول من مرَّ بخاطري واوسطه وآخره شيخي واستاذي عالم الشرق وفيلسوفه ، وانسان ناظره ، الاستاذ الامام « الشيخ محمد عبده » مفتي الديار المصرية رضي الله عنه ، فإلى روحه الطاهرة البارّة أهدي هذا الكتاب ، اعترافاً بفضله عليَّ وعَلَى الامة جمعاء

المقرّ بالجميل

بيروت : غرة ذي الحجة ١٣٢٩ هـ

الغلاييني

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدمة الكتاب

قدمها صديق المؤلف الاستاذ الشيخ محيي الدين الخياط

الحمد لله وكفى ، والصلاة عَلَى النبي المصطفى ، وعَلَى آله وصحبه ومن اصطفى

حب الظهور والبشر

وبعد فقد فُطر البشر منذ عرف البشر عَلَى حب الظهور ، نعم لولا حب الظهور لما ظهر في هـذا العالم الانساني فضيلة ، ولا بدت مأثرة ، ولا اُثرت منقبة ، بل لولا حب الظهور لما ظهرت الأُمم ، ولا تكونت الجماعات ، ولا تألفت الممالك ، ولا انتظم شمل الاجتماع ، بل ولا ظهر اختراع ، ولا حمل يراع ولا أُلف سفر ، ولا جال أثريٌّ في قفر

حب الظهور وكل ذي روح

حب الظهور لا يقتصر عَلَى جنس البشر بل هو غريزة في كل ذي روح فالخيل في خيلائها وهبواتها ، والآساد في زهواتها ولهواتها ، بل النمور في نزواتها ، والذئاب في غزواتها ، والهجان في سبحاتها ، والغزلان في شبحاتها ، بل كل ما شرد وأنس يحاول ان يظهر بابدع مظهر

الطيور مع اسرابها ، والدواجن مع اضرابها ، الحمام مع إلفه ، واليمام مع حلفه ، والنعام مع صنوه ، والغراب مع قنوه ، بل سائر ما طـار ودرج كلها

تتسابق عَلَى الظهور حين الطير ، وحين السير

النحل في خليته ، والنمل في سريته ، بل سائر ما هبَّ ودب ، وهام وعام ، يحاول ان يطول السماك ، ويطاول الافلاك ، دون ان يبالي بالهلاك ، فالنحل يحزّب الاحزاب ، ويتخذ اليعاسيب ، وقد يهاجم بجيشه الانسان ، والمستبسل من جنده في الهجوم هو اكثرهم حباً في الظهور ومن ثم يتبوأ مقاما محموداً في امته فيقدم امام الصف ، يوم الزحف ، وحين الحتف ، وهو بين هذا وذاك يجد لذة لا تكيف بكيف ، ولا توصف بوصف ، اما النمل وهو الضعيف فقد يدفعه حب الظهور الى السمو بجناحيه الى الجو غير مبال بالوبال هازئاً بقول من قال:

اذا ما أراد الله إهلاك نملة　　　سمت بجناحيها الى الجو تصعد

وقد يحمل اضعاف اضعافه عَلَى قارعة الطريق تحت الحطم واللطم ، غير مبالٍ بتحطيم سليمان ، ولا تلطيم سامان

حب الظهور والمدنيات

هذه الموهبة الفطرية في كل ذي روح هي سائقة العلاء ، وداعية الارتقاء ، وهي اس الاساس لعمران هذا الكون لانها رائد الفضائل ودليل المجد ، ولولاها لما وصلت المدنية المادية الى حالتها الحالية ، فان الأُمم كالافراد فكما ان الفرد يحاول الظهور بين اقرانه بما يراه حسناً في نظر الجمهور فكذلك الأُمم تحاول ان تظهر عَلَى غيرها بما تراه حسناً في نظر الجماهير

فحب الظهور هو الذى مُدّنت به المدن ، ومُصّرت الامصار ، وأُنشئت المعاهد والمشاهد ، وبنيت الآثار الخوالد ، وما مدهشات الاهرام ، ومعجزات

بعلبك ، وبدائع الزهراء والحمراء ، وعجائب أُنس الوجود ، وغرائب تدمر ، وطرائف بابل ، ولطائف سامرا الا اثرٌ من آثار حب الظهور

حب الظهور والانسانية الراقية

مهما حاولت الانسانية الراقية ان تتبرأ من هذه الغريزة الطبيعية ومهما حاول زعماؤُها وقادتها باظهار انهم يخدمون في زعامتهم وقيادتهم او بعبارة اصرح « في ظهورهم وتفوّقهم عَلى غيرهم » الانسانية البحتة فلا تقدر بل ولا يقدرون ان يحاولوا في كونهم بخدمتهم التي سادوا بها وظهروا قد خدموا انفسهم قبل ان يخدموا غيرهم

نعم ان هذه الخله هي خلة شريفة حضت عليها الشرائع الآلهية والوضعية ومتي سادت وحاول كل انسان ان يخدم نفسه خدمة يسود بها ويظهر سادت المواهب العالية ، والمظاهر السامية ، واصبح كل انسان أُمة بنفسه ، ومن ثم يرتقي النوع البشري الارتقاء الذي يحلم به الفلاسفة ، ويطمح اليه الاخلاقيون وترمي اليه الشرائع

ولكن هيهات فان طبيعة النوع ايضاً تناديهم من الشق الثاني او من وراء تلك الحجب الكثيفة ، ان ذلك الارتقاء الموهوم يتطلب مستقبلاً بعيداً جداً هذا اذا ظل الارتقاء الانساني مطرداً عَلَى ما نراه ولم يجتح هذا الكوكب الارضي جائحة سماوية او يصدمه مذنب كمذنب هالي فيجعله كالهباء تذروه النكباء

حب الظهور والعرب

يتفاوت حب الظهور في الامم والافراد بتفاوت الغرائز والفطر ، فاكثر الأُمم آثاراً واعمالاً هي اكثرهم حبًّا في الظهور ، واحرصهم عَلَى السيادة ،

واكثر الافراد خدمةً واعمالاً هو اكثرهم حرصاً عَلَى اظهار نفسه وتسوّده بين بني جنسه

وعَلَى هذه النسبة كان اعرق الامم حبًّا في الظهور من لم تزل لأبنائها حتى اليوم آثار مدنية باقية ، واسبق الجميع الى هذه الآثار هي السابقة في هذه الموهبة العالية

يقول المؤرخون الاثريون في هذا العصر : ان اسبق الامم الى المدنية وتدوين الآثار من شرائع وانظمة وقوانين وبناء مدارس ومعاهد ، هم عمالقة العراق العرب او ما يسميهم المصريون « الحمورابيين » الذين حكموا عَلَى الدولة البابلية العراقية قبل ميلاد عيسى عليه السلام بزهاء الفي وخمس مئة سنة تقريباً كما ظهر مؤخراً في آثار بابل وآشور

فالعرب اذاً اسبق الامم الى الظهور ، ولكن لم ندر ما طرأ علينا نحن اخلاف اولئك الاسلاف حتى أُسدلت علينا الحجب ، وارخيت الستور ، واصبحنا مثلاً في الخمول منذ عصور ، ولعل دماءنا النقية اختلطت بدماء الاخلاط والاوشاب من شُذّاذ الأُمم وشُرّاد الآفاق فاصبحنا عَلَى ما ترى اليوم ، أَلسن عربية ، في اشلاء رومية ، وادمغة فارسية ، واطمار افرنجية ، ونحن مع ذلك نزعم العراقة في العربية ، وهي وذمة العرب لم تبرح اباطح الحجاز وابارق تهامة ، بل لم تبارح مشارف الشام ، وانحاء العراق ، واغوار اليمن

« وكل أُمة تدعي السبق الى المدنية » ان الأثريين من يصدق اكتشفوا منذ اعوام في « زيبارا » مدرسة عربية لتعليم الاطفال وهي اقدم مدرسة في تاريخ التمدن القديم يرتقي تاريخها إلى اربعة آلاف سنة وقد رأَوا

(1)

لضروب الاجتماع والجماعات عَلَى اختلاف الغايات والاجتماعات مما لم يقدر العرب المتمدنون عَلَى زيادة لفظ واحد عليها من عندهم وذلك كلفظ الشعب والجزة ، والجماعة ، والقبيلة ، والفصيلة والرهط ، والعشيرة والزرافة ، والسرب والكوكبة ، والقوم ، والنفر ، والشرذمة ، والعصابة ، والموجود فيها لاماكن الاجتماع كالنادي والمنتدى والندوة والمحفل والمجتمع والمأتم والمجلس والموسم ، والموجود فيها للتعبير عن اسماء الكتب عَلَى اختلاف انواعها كالسفر للكتاب الكبير والقمطر لكتاب الاعمال والوصير لصك السجلات والرهنامج لكتاب الطريق الذي يهتدي به ربان السفن عدا الفاظ الزبور والرقيم والضبار والدفتر والموجود فيها للتعبير عن القلم مثل اليراع والمرقم والانبوبة والاسلة والجلف ، وعن الورق مثل الطرس والقرطاس والمهرق والرق والطلس والمجلة والصحيفة والموجود فيها للتعبير عن الالفاظ الاقتصادية مثل الربا والتلاد والركاز والضمار ، والطارف والتالد من اسماء المال عدا نفس الذهب الذي له اكثر من عشرين اسماً وعدا اسماء السفن والطرق والبقاع الدالة عَلَى الاتجار والاسفار وعدا اسماء عديدة للرياح عَلَى اختلاف مهابها الدالة عَلَى معرفة الظواهر الجوية وذلك كالنكباء الريح بين ريحين والمتناوحة المختلفة المهاب والناخفة المبتدئة بشدة والزعزع والاعصار للشديدة وعدا اسماء كثيرة للموازين وادوات الصناعة واواني الاطعمة والرياش واللباس والفاظاً كثيرة للعواطف والاخلاق والشعور السامي [1] لا يقال عن اهلها جاهليون ، عَلَى ان آثارهم في حضرموت وسائر البلاد اليمانية والعراقية لم تزل ناطقة بعلمهم وعراقتهم في التمدن والعمران

(١) راجع المخصص ولطائف اللغة

هــذا المجموع

لسنا الآن في صدد بيان مدنية الامة العربية قبل الاسلام ولا مدنيتها بعده وانما موضوع هذا المجموع الذي هو استنفار وحض لناشئة هذه الأُمة الكريمة على الظهور بمظهر الامم الراقيـة حسب ما أشرنا في صدر المقال تشبهاً باسلافهم الاولين ومجاراة لمعاصريهم المتأخرين « بالمعنى اللغوي لا العصري » دعانا إلى ان نشير الى موضوع الظهور والمدنية استنفاراً وحضاً حسب موضوع هذا المجموع

هذا المجموع هو « زهر » شبيبة فاضلة فاح « اريجها » اذ لم تدنسهـا اوضار الغرب ولم ينهكها ذبول الشرق فهو « زهر » اخلاق وفضائل بل هو غيرة مجسمة ، وحماسة مقيمة تريد النهوض بناشئة الشرق ، والاشراف بهم على مدنية الغرب ، شأن اصحاب النفوس الكبيرة التي تريد الصعود من مدارج المجد ، والظهور من شرفات العلاء

صاحب هــذا المجموع

الشيخ مصطفى الغلاييني صاحب هذا المجموع توسمت فيه النبوغ منذ اول يوم درس فيه قواعد العربية فانه استظهرها حفظا وفهما في مدة شهرين مما يندر مثيله بين الدارسين وكان ينظم الشعر بسائق السليقة وهو يفع لم يبلغ اشده . وقد توسمت فيه التفوُّه في الخطابة منذ ذلك الحين ايضا نظراً لذلاقة لسانه ، وبشاقة بيانه ، ثم ظل يتدرج في مدارج النمو بنفس عصامية وهمة استقلالية الى ان ظهر كل ما توسمت ، ووقع كل ما تفرست

واول موقف وقف فيه جاهراً بالحق وقفته يوم كتبت منذ اثني عشر عاما مقالتي « الشريعة الاسلامية ، ومطابقتها للعقول البشرية » في جريدة

« ثمرات الفنون » وقيام اعداء الحق عليها فانه انشأ في ذلك الحين مقالة قابل فيها بين اقوالي واقوال القائمين واورد البراهين عَلَى صحة قولي وفساد اقوال القائمين ولكن المقالة لم تنشر وهي اول عهده بالانشاء

والموقف الثاني وقفته في مصر ومجاهرته عَلَى صفحات الاهرام بفساد طرق التعليم في الازهر مع كثرة المعارضين والمقاومين

والموقف الثالث وقفته بعد اعلان الدستور ومجاهرته بنصرته بجرأة نادرة مما هو معلوم ومشهور ، وهو لم يزل حتى اليوم يجاهر بما يعتقده حقا وصدقا

ومما يؤخذ عليه في بعض الاحيان الحدة في يراعته ، والنزق في خطابته ، واخصر وصف اصف به الشيخ مصطفى هو الجرأة في القول والاخلاص في العمل ، وهو عندي كل غاية الحياة

موضوعات هــذا المجموع

عَلَى ان هذا المجموع هو احسن مثال حسي ينطق بحالة صاحبه الروحية فانه طرق باب التربية النظرية في مقالة « ايها الانسان » كما طرق التربية العملية في مقالة « التربية اساس النجاح » فجمع بين التربيتين وفاز بالحسنيين . وقد انتقد الاخلاق والعادات في مقالة « العادات » وبين كيف تكون الحياة سعيدة في مقالة « سعادة الحياة » وفصل كيان هذه السعادة في مقالة « الثورة الادبية او ثورة المبادي والاخلاق » ولم تقتصر كتابته عَلَى الاخلاقيات بل اصابها رشاش من السياسيات في مقالة « مجلس الامة » و« قحط رجال ام قحط وجدان » وغيرهما وكأني به يحاول ان يدخل في غمار كل بحث ويطرق كل باب

ومن احاسن قوله في مقالة الاستقلال الشخصي والاعتماد عَلَى النفس هذه الجمل :

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

عَلَى اجراء العدل والحكم بالحق حتى لا يميل ولا يجنف

فالنظامات التي يحكم بها قوم أُلو نصفةٍ وعدل ، وذوو وجدان حر طاهر ، تكون وسيلةً لجعل المحكومين سعداء ، وتمكنهم من اكتساب ما يجعلهم في سعةٍ من العيش ورغد من الحياة ، وتسهل لهم اجتناء ثمرة اعمالهم وافكارهم.

والنظامات التي يحكم بها قوم اولو جنف واستبداد ، وذوو وجدان خبيث يميل مع الهوى ، تكون سبباً لشقاء الشعوب ووسيلةً ليأسهم من الحياة الطيبة والعيشة الراضية ، مهما كانت تلك النظامات عادلة وجيدة ، ذلك لانَّ الحكام من هذه الطبقة يؤوّلون النصوص عَلَى حسب رغباتهم ومشتهياتهم وعَلَى ما يوافق هواهم ومنفعتهم الشخصية ،

وقوله في مقالة اساليبَ الكلام العربي :

« طلاب الكتابة البلاغية كثيرون ، ولكن الواصلين اليها والضاربين فيها بسهم قليلون . وما ذلك الاّ من جهل الطريقة المؤدية اليها فان كثيراً من طلابها يعمدون إلى مطالعة كتب ليس فيها من بليغ الكلام الاّ النزر اليسير ، حتى إذا نالوا منها منالهم ، اخذوا يتحدونها ويحيكون عَلَى منوالها ، فتكون كتاباتهم مسلطة ومعانيهم سخيفة — وهؤلاء عَلَى ضربين : ضرب يعمد الى امثال كتب المقامات والرسائل التي أُنشئت بعد جفاف رونق البلاغة والكتابة الصحيحة ، فهم مغرمون بالمجازات الساقطة والبعيدة ، والتساجيع المتكلّفة الباردة ، وليس في كتاباتهم معنى يفيد ولا مغزى تنعش به الارواح — وضرب يعمد الى بعض المؤلفات العصرية او المترجمة بالعربية عن كتب الافرنج التي ليس عليها أثارة من الاسلوب العربي الصحيح ، فيحتذون باسلوبهم مثالها ، فتكون كتاباتهم لا عربية تُعرف ولا افرنجية تُوصف لان الالفاظ التي يركّبون منها جملهم عربية ، غير ان اسلوب التركيب افرنجي محض . وذلك مما يقضي عَلَى اللغة العربية ويرجع إلى ما وراء

اعجب من ذلك أن هذا القسم من الكُتاب يظن ان هذا الاسلوب هو الذي يجب ان يكون عليه الانشاء العربي لسهولة فهمه عَلَى القارئين : ولكنهم مخطئون في هذا كل الخطأ لانهم ان كانوا يفهمون بالاسلوب العربي البليغ ان يكون الكلام محشواً بغريب الكلمات والتراكيب السمجة المسلطة ، فهو وهم باطل ، ولا يقول به الا من لم يفهم البلاغة العربية حق فهمها ، كما شرحناها في هذا المقال

واستقلوا في الجو حيث يذيقون — الاعادي من فوق كأس البلاء
فالمناطيد سفنهم في الهواء خارقات بهم خلايا الفضاء
فهي تجري بهم الى حيث شاؤا في امان ومنعةٍ واعتلاء
درّعوها خوف العُداة فسارت لا تُبالي قنابل الاعداء
فهي تعدو يوم النضال عيونًا تكشف الستر عن حمى البؤساء
لست ادعوا تلك المناطيد الأ رائدات المنون والارزاء

. . . .

يا بني الغرب حسبكم ما صنعتم قبلها من وسائل الإفناء
من مبيد الاقوام من كل ما يُلبس — هذا العمران ثوب العَفاء
أتضيق الغبراء دون مُناكم فعمدتم ياقوم للخضراء
ام تضيق البحور وهي بحور فسلكتم اسطولكم في الهواء
اين تلك العلوم قد شأمتكم ان تذيقوا الاغيار كأس الشقاء
ان تذلّوا الضعيف ان تستهينوا بأُناسٍ من كل عيبٍ براء
أن تعدّوا رجالهم كعبيدٍ والنساءَ استهانةً كالاماء
بئس تلك العلوم ان ارشدتكم لفعال الوحوش في البيداء
ما اراكم الا ذئابًا ظننتم أنّ تلك الضعاف ثلّةُ شاء
فأبحتم ذاك الحريم وأُبتم ونبذتم عظامها بالعراء
خفّفوا ويلة الشرور وعافوا ان تروهم بمقلةٍ شوساء
وارفعوا الظلم عن حماهم وفكّوا — القيد عنهم ينجوا من الغماء

وقوله في القصيدة التي قالها يوم موافاة الاسطول العثماني الى ثغر بيروت

سارت فما غير عين الله ترعاها وما سوى قلبنا الخفاق اجراها
نار القلوب التي بين الجوانح قد اجرت سفائنها والوجد اذكاها
ترسو وتجري بعرض اليم سابحة باسم المهيمن مجراها ومُرساها
تجري وان هي ترسو ترسُ رابضة كالاسد ترقب في الغابات اعداها
حتى اذا بهُرت بالخطب يخفرها سرٌّ من الله ضمّنه حشاياها

ومنها :

نحن الأُلى مدّنوا الاقوام فأنقشعت　　عن افقهم ظُلَمٌ كانت تغَشاّها
فاصبحوا ودليل النجح قائدهم　　حتى امتطوا من ذرى الجوزاء اعلاها
كانوا بقوا في ظلام الجهل يسترهم　　لولا فضائلنا الغراء لولاها
بالاتحاد وبالسعي الحثيث الى　　كسب المعالي دنت منهم مطاياها
هم بالعلوم وجهد النفس قد بلغوا　　من المكارم ادناها واقصاها
ونحن يا قوم من كنا اساتذة　　لهم غدونا وكأس الذل نُسقاها
عار علينا اذا لم نُحيِ انفسنا　　يا قوم من بعد ما لاقت مناياها
بالعلم والسيف احيوا مجدكم فهما　　للجد والبأس والعليا سناماها
فالغرب يرقب منا غِرّةً فمتى　　لاحت له فرصة لم يرجُ الاّها
جاست بنوه خلال الدار واقتحمت　　بلادنا فهي مبغاها ومرماها
لكن ابى الله والآساد تحرسها　　ان يبلغ الغرب سناً من ثناياها
هل يبلغ الغرب منها مأملاً ولنا　　قلبٌ اذا نازلته الصمُّ ارداها
فنحن نحن الأُلى ان جاش غاربنا　　فكالأُسود رأت في مهمةٍ شاها

. . . .

يا معشر العُرب يا اهل الحمية يا　　من لم نجد لهمُ في الناس اشباها
هذي بنو الترك وافتكم تصافحكم　　بداركم بيدٍ فاحت خزاماها
فان يمدُّوا لكم يا قوم ايديهم　　ودًّا فمدوا قلوبًا طاب رياّها
فالترك والعُرب اخوان وجامعة — الدين الحنيفي ضمتهم حناياها
فمن يمدّ يديه كي يفرقهم　　شُلّت يداه فعن سبل الهدى تاها
فالاتحادَ — بني الاوطان — فهو لنا　　عزٌّ به تردُ الاوطان سُقياها
ان اتحادكمُ تبغون ترقية — الاوطان يُرضي رسول الله والله

وقوله من قصيدة يذكر فيها فظائع الايطاليين في طرابلس الغرب

اين الشهامة اين العدل والشممُ　　يا امة غضبت من جورها الامم
يالمروءة من قوم زعانفة　　لؤم الطباع لهم بين الورى علم
طاشت حلومهمُ — والبغي مرتعه　　وخم — فعمت سماء المغرب الظلم

فالسلم مضطرب والامن مستلب ... والبر محتدم والبحر مضطرم
أأن فررتم ونار الغيظ تحرقكم ... والذل يتبعكم والخذل والندم
تقتّلون شيوخاً ما لها وَزَرٌ ... وصبية ونساءً ما لها عصم
يا للفظاعة من (روما) وما صنعت ... ضلت بنوها وعن سبل الرشاد عموا
لو كان فيكم بني الطليان من شرف ... لم تثأروا من ضعاف شبهها النعم
هلاّ صبرتم على خطب المّ بكم ... والسيف يعمل والارماح تزدحم
والجند تقتلكم والعرب تذبحكم ... والموت يخطب والهامات تحطم
ليس الشجاعة قتل الشيب عن أمم ... عارٌ بان تقتل الاطفال والحرم

ومنها:

جئتم بجيشكم الجرّار يحرسه ... الاسطول تقذف منه النار والحمم
فكان ما كان مما فلّ عزمكم ... فالجمع مفترق والجيش منهزم
وعدتمُ وغمام الخذل عمّكم ... وأبتمُ ورمال المقفرات دم
فكلكم وهو بالخذلان ملتحف ... « قد استوت عنده الانوار والظلم »
تركتم الجيش للغربان تطعمه ... فعاف ما أكله الغربان والرخم
ماذي الجبانة ياطليان لا رفعت ... من بعدها لكم نحو العلى قمم
ولا لقيتم سوى ذل وأبلة ... ولا مشت بكم نحو المنى قدم
فنحن قوم اذا ما استغضبوا غضبوا ... لكنهم يكرهون الظلم ان ظلموا
فالعدل شيمتنا والبأس عادتنا ... والدين مرشدنا والحلم والشمم
فقد حلمنا على اوباش « رومية » ... فغرّهم اننا سلم وانهم
وقد صبرنا كراماً عن طيشهم ... يخف فازداد عند الصبر طيشهم
جاؤا باغنامهم ترعى بساحتنا ... واننا أسد ذاك البر لو علموا
« ومن رعى غنماً في ارض مأسدة » ... مات الرعاء وبادت تلكم الغنم

وبالجملة فان هذا المجموع جدير بان يقتنيه النشء ويطالعوه ويعملوا بما فيه من الفوائد الثمينة فانها فيه كنز لا يفنى

نهج البلاغة

او اساليب الكـلام العربي

نقرأ كلامين مختلفين في الاسلوب، متفقين في المعنى، فنجد لاحدهما لذة لانجدها في الآخر ، ونشعر بروحٍ تتجلى فيه لا نحسُّ بها في الثاني · مع أن موضوعهما واحد ، والغاية التي يرميان اليها واحدة · واذا أردنا أَن نبحث عن سرِّ الامر، فلا نجد له من سبب الا شيئاً واحداً وهو اختلافهما في الاسلوب· فعلى الاسلوب مدار البلاغة · فمتى كان الاسلوب سامياً ، والمعنى حسناً صحيحاً ، فهناك الكلام البليغ

والاساليب ثلاثة : عال ، ووسط ، وسافل · فعلى الاول والثاني مدار البلاغة ، وفيهما تتفاضل البلغاء · ومرجع ذلك كله انما هو إلى تخريج الكلام عَلَى ما تقتضيه الحال ، و يستدعيه المقام ·

كثيرٌ من الناس يرغب أَن يكون بليغاً ، و يسعى جهده ليجعل كلامه من الاسلوب العالي · ولكنهم يجهلون السبيل الموصلة إلى ما يقصدون اليه : فمنهم مَن يظن أَن بلاغة الكلام انما هي بالاكثار من غريب الكلام وحُوشيِّه والاتيان باوفير من المجازات والكنايات ، خصوصاً ما كان منها بعيداً غريباً· ولو كان ما يظنون صحيحاً ، لم يبقَ من مغزى ولا فائدة من الموضوع المهم الذي عليه مدار علم المعاني وهو (مقتضى الحال) ذلك الأمر الذي لا يمكن لاحد أن يكون بليغاً الا بمراعاته

٢

البلاغة أن ينظر المرء إلى الموضوع الذي يريد أن يكتب او يخطب فيه ، والى القوم الذين يكتب اليهم او يخطب فيهم ، ثم يعمد إلى ما تقتضيه حال السامعين والقارئين ، وحالة الموضوع الذي يكتب فيه ، ويصوغ له من الكلام ما يطابق المعنى الذي يريده ، ويناسب حال من يقرأ كتابه ، اويسمع خطابه · فان راعى ذلك مع فصاحة الكلام المعروفة عند ارباب المعاني فهو الكاتب البليغ ، والخطيب البليغ · لان الكلام انما هو قوالب للمعاني · والغاية منه افهام السامع او القاريء ما يريده المتكلم او الكاتب من الاغراض التي تجول في نفسه وتمرُّ بخاطره · فمتى عرف أَن القصد من الكلام هو هـذا وجب علَى الكاتب او الخطيب ان يكون كلامه حسب الحاجة مع مراعاة حال السامعين والقارئين · فيأتي بالكلام علَى المناحي والاغراض التي حملته علَى الكلام او الكتابة · والاَّ كان كلامه من الفضول الذي لا يأتيهِ كاتب او خطيب بليغان

طُلاَّب الكتابة البلاغية كثيرون ، ولكن الواصلين اليها والضاربين فيها بسهم قليلون · وما ذلك الاَّ من جهل الطريقة المؤدية اليها · فان كثيراً من طلابها يعمدون إلى مطالعة كتب ليس فيها من بليغ الكلام الاَّ النزر اليسير ، حتى إذا نالوا منها منالهم ، اخذوا يحدّونها ويحيكون علَى منوالها ، فتكون كتابتهم مسلطة ومعانيهم سخيفة — وهؤلاء علَى ضربين : ضرب يعمد الى امثال كتب المقامات والرسائل التي أُنشئت بعد جفاف رونق البلاغة والكتابة الصحيحة ، فهم مغرمون بالمجازات الساقطة والبعيدة ، والتساجيع المتكلّفة الباردة ، وليس في كتابتهم معنى يفيد ولا مغزى تنعش

بة الارواح — وضرب يعمد الى بعض المؤلفات العصرية او المترجمة بالعربية عن كتب الافرنج ، التي ليس عليها أثارة من الاسلوب العربي الصحيح ، فيحتذون باسلوبهم مثالها ، فتكون كتابتهم لا عربية تعرف ولا افرنجية توصف . لان الالفاظ التي يركّبون منها جملهم عربية ، غير ان اسلوب التركيب افرنجي محض . وذلك مما يقضي عَلَى اللغة العربية ويرجع بها إلى ماوراء

واعجب من هذا أن هذا القسم من الكتاب يظن ان هذا الاسلوب هو الذي يجب ان يكون عليه الانشاء العربي لسهولة فهمه عَلَى القارئين . ولكنهم مخطئون في هذا كل الخطأ لانهم ان كانوا يفهمون بالاسلوب العربي البليغ ان يكون الكلام محشواً بغريب الكلام والتراكيب السمجة المسلطة ، فهو وهم باطل ، ولا يقول به الا من لم يفهم البلاغة العربية حق فهمها ، كما شرحناها في هذا المقال

نحن نعني بالاسلوب العربي ان يكون الكلام بعيداً عن مناحي العجمة مجرداً عما يُخلّ بالنحو واللغة واصول البلاغة . والكلام اذا كانَ عَلَى هذه الصورة فهو مفهوم عند العامة والخاصة ، بل ربما كان ادعى الى الفهم من كلام كثير من الكتّاب الذين ينحون في اساليبهم مناحي الافرنج

رأَيت كثيراً من اهل هذا الاسلوب يتشوقون الى معرفة ما يهديهم لتكون كتابتهم موافقة للاسلوب العربي ، حتي يخلصوا كلامهم من شوائب العجمة — فالى هؤلاء اقول :

من اراد ان يكون كاتباً عربياً فعليه بالاكثار من مطالعة الشعر الراقي كديوان الحماسة والمتنبي والبحتري وابي تمام وغيرها من دواوين واشعار

لخول الشعراء ، ومطالعة كتاب الاغاني والعقـد الفريد وكتب عبد القاهر والغزالي والشيخ محمد عبـده وكتابات السيد محمد رشيد رضا والزهراوي واليازجي والمنفلوطي ومحمد كرد علي والخياط والحوراني ، وغير هؤلاء الكتاب المجيدين من قديم وحديث

ومن احسن ما ينبغي مطالعته لمن يتطلب الاسلوب العالي كتاب (نهج البلاغة) للامام علي رضى الله عنه · وهو الكتاب الذي انشأت هذا المقال لاجله · فان فيه من بليغ الكلام ، والاساليب المدهشة ، والمعاني الرائعة ، ومناحي الموضوعات الجليلة ، ما يجعل مطالعه — إذا زاوله مزاولة صحيحة — بليغاً في كتابته وخطابته ومعانيه

كان هذا الكتاب درة في صدف بعض المكتبات حتى أُتيح لشيخنا المرحوم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية رضى الله عنه ، ان يطلع عليه ، و يبرزه إلى عالم المطبوعات ، ليكون استاذاً للمنشئين ورائداً للبلغاء · وقد علق عليه شرحاً جزيل الفائدة كبير المغزى · وقد طبع الكتاب بضع مرات مشروحاً بقلم الاستاذ عليه الرحمة · فاستفاد منه اقوام كثيرون منهم كاتب هذه السطور

فإلى اقتناء هذا الاثر العظيم يا طلاّب الاسلوب العالي ، ورُوّاد الكلام البليغ ، فان فيه ما ترغبون

ايهـــا الانسان

لستَ ذلك الكائن الحيّ النامي، ولا هذه الهيأةَ وتلك التقاطيع . بل أَنت ذلك الجوهر السامي المجرّد عن المادة ، الهابط عَلَى هذا الهيكل من المحل الارفع ، والمكان الامنع . ولولاه لما كان لهذه الهيأة ما لها من التمييز عن الموجودات كافة . فانت في الحقيقة ابن السماء لا ابن الارض ، واصلك من العلاء لا من الحضيض . وما وجودك عَلَى سطح هذه الكرة الاّ وجود ضيف عن قريب يرحل ، ويرجع إلى الارض التي فيها نشأ ، ومن تربها نبت . فما بالك قد ادّعيت التمـلك ، وزعمت أَنك كلّ شيءٍ وأَنت لا شيء ، لانك تحرجك البعوضة ، ويقلقك الوهم ، ويحرمك المنامَ البرغوث !!

أهكذا يكون شأنُ مَن يخال انه عَلَى كل شيءٍ قدير ؟؟ ان هذا لامرٌ نكيرا!

الستَ أَنت الذي تأكل وتشرب ، وتمرح وتلعب ، وان هاجتك الغُلمةُ هدرت دم شرفك دون تسكينها ؟؟

الستَ الذي ان اصابك زكام ، قلت غداً أَشرب كأْس الحِمام ؟؟

الستَ الذي ان اصابتك مصيبة ، ناديت بالويل والثبور ، وعظائم الامور

الست الذي ان لم يجد ما يأكل او يشرب ، خارت قُواه وانحلّت عزائمه ، وعلم أَنه ضعيف حقير ؟؟

الست الذي ان اصبح فقيراً معدماً ، ذهب ما كان له من المقام الرفيع ، وبليَ ثوب كبرياءه وعظمته ، فالتجأ إلى مَن كانوا اليه يلتجئون ، وطلب منهم

[illegible]

وفيهنَّ نفسٌ لو تُقاس بقدرها ... نفوسُ الورى كانت اجلَّ واكبرا

وماضرنصلَ السيف إخلاقُ غمده ... اذا كان عضباً حيث وجَّهته برى

المرءُ يا هذا «مخبوءٌ تحت طيّ لسانه لا تحت طيلسانه» وهو قيدُ اعماله، لا قيد امواله . فمن كَرُمت نفسه كرم عمله ، ومن سفلت نفسه سفل عمله ، وكل امريءٍ بما كسب رهين

ما ذا يفيدك أَن لو حييت حياة الملوك، وأَنت غير مالكٍ نفسك؟ بل ما ذا تنتفع أُمتك من وجودك، اذا كنت لا تُحسن اليها ؟ اتظن أن اموالك تَزينك، وأَن ملبسك يُعليك، وحسنَ هيأتك تسميك ؟، إنك اذاً لمن المخطئين اتزعم ان الفقير ذا الخلق العظيم، اقلُّ منك مقاماً وادنى منزلة؟ انك اذن لمن الظالمين

قيمة المرء ما يحسن ، فاياكَ ان ترجو المنزلة السامية في الدنيا؟ والمقام المحمود في الآخرة ، اذا لم تخدم قومك، وتسعَ في انجاح وطنك ، فانك ان سعيت وخدمت، تَنبْهْ بعد الخمول، وتُحمد بعد الذم . والله يجزي المحسنين ،

وقد قال احد الفزاريين :

إلاَّ يكن عظمي طويلاً فانني ... له بالخصال الصالحات وَصولُ

ولا خيرَ في حسن الجسوم ونُبْلها ... إذا لم تَزِنْ حسنَ الجسوم عقول

اذا كنتُ في القوم الطوال علَوتهم ... بعارفةٍ حتى يُقال طويل

ولم أرَ كالمعروف اما مذاقه ... فحلوٌ واما وجهه فجميل

ايها الانسان !

انك خُلقتَ لامرٍ لو علمت خفيَّه ..... خُلقتَ لما هو اسمى مما

يخطر ببالك ، وأعلى مما تتصور . فانزع عنك ثوب الرياء ، واخلع رداء العجب واحتقار من هو دونك في امر المعاش ، ولا تكن من الذين يستبدلون الذي هو ادنى بالذي هو خير ، فتهبط مصراً غير مصرك ، فان فيها ما سألت من النعيم الظاهر واللذة الحاضرة ، غير انك تندم بعد ذلك حيث لا ينفعك الندم ، ولا تغنيك ليت ولعل

خُلقت لعمارة الارض وحسن السير في مناكبها . خُلقت لتكون خليفة الله فيها ؟ اهكذا تكون عمارتها ؟ وهل بهذه الاعمال الشائنة تتولى خلافتها؟ ما بهذا أُمرنا ، ولا لمثل ذلك خلقنا !

خليفة الأمة ، يحسن سياستها ، ويدبّر اعمالها ، ويدير دولاب حياتها الاجتماعية والعمرانية . وعامر الارض يسعى لرفاهية سكانها وخادميها ، ويهيّئ لهم الاسباب التي تدعوهم لعمارتها ، ويقدّم لهم كل ما يحتاجون اليه لصلاح تلك الارض .... فهل أنت ايها الانسان يا من خلقت لعمارة الارض ! يا من وُجدت لتكون خليفة الله فيها ! تعمل بمقتضى سنة الله في الاكوان ، لتصح خلافتك عليها ، وتكون عامراً لها ؟؟؟

اهلها جوّع وقاطنوها جهلاء ، فهم يأكلون بجهلهم لحوم اخوانهم ، ويخربون بسوء عملهم ما أمر الله بعمارته ، وأنت قادر على تعليمهم وإطعامهم ، وتدبير امورهم ، والنظر في اصلاح شؤونهم

فاتق الله في الوديعة التي استودعك اياها ، فقد أدعيت انها مُلكٌ لك ، فتصرفت فيها على ما يرضي هواك ، لا على ما يريد المودع

انما جعلك غنيًّا لتنظر في حالة الفقراء والمساكين ، فتدرأ عنهم عوادي

الزمان ، وتدفع طوارئَ الحدثان · فاستأثرت بالامانة ، وصرت من اهل الخيانة ، ولسوف تندم ، ولات ساعة مندم

ثم إنك لم تكتفِ بما فعلت ، بل طفقت تنكر عليهم حقهم ، وتعبث بمرافقهم ، وتحتقرهم كأنهم الأنعام او اضل سبيلاً ، فكأنك لم تنظر الى قول الله الكريم : « وفي اموالهم حقٌّ معلوم للسائل والمحروم »

ايها الانسان !

إستيقظْ من غفلتك · فان الزمان قد استدار ، وربَّ هذا الفلك المدار · فأدِّ الحقَّ الواجب ، فانه عليك ضربة لازب ، وانهض من سُباتك ، وأصلحْ ما فات من غلطاتك ، وتداركْ هفواتك · والاَّ فارتقبْ جزاءَ سيآتك ، وويلات غفلاتك · يوم يطالبك شركاؤك ، بما أكلت من حقهم اللازم ، فينأى عنك أولياؤك ، فلا تستطيع تأدية المغارم · ثم يأتيك يوم هو اشدُّ الايام هولاً ، واثقلها وطأة ، هو يوم يُنتصر فيه للمظلوم من الظالم ، وللضعيف من الغاشم · ذاك يوم تدور فيه رحى الشقاء ، عَلَى اهل الجور ، ويهيم فيه البخلاء ، في كل نجد وغور ، فلا يجدون مكاناً يعصمهم من البلاء ، ولكل قوم دور ·

أيها الانسان !

تنبه اني لك من الناصحين واحذرْ ان تخالف عن امري ، فتكون من الخاسرين · «اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» فالانسان اخو الانسان · و« إنَّ اكرمكم عند الله اتقاكم » و«ليس لاحدٍ فضل عَلَى احد الا بدينٍ او عملٍ صالحٍ » و « إنَّ اقربكم مني مجالسَ يوم القيامة

احاسنكم اخلاقاً، الموطَّؤُون اكنافاً، الذي يألفون ويُؤلفون» و «ان أخسر الناس صفقةً مَن أخلق يديهِ في آماله، ولم تساعده الايام على أمنيّته، فخرج من الدنيا بغير زاد، وقدم علَى ٱللهِ بغير حجة» و «قد بريءَ من الشُّح من أدّى الزكاة، وقرى الضيف، واعطى في النائبة» و «لا يؤمن احدكم حتى يحبَّ لاخيهِ ما يحب لنفسه» و «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى علَى ٱللهِ الاماني» و «في كل ذات كبدٍ حرَّى اجر» و «العفو لايزيدُ العبد الاَّ عزاً، والتواضع لايزيده الاَّ رفعة، وما نقص مال من صدقة» و «اليوم الرهان، وغداً السباق والغاية الجنة، والهالك من دخل النار» و «يُحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة امثال الذرّ يطؤُهم الناس»

فانزع عنك ايها الانسان ثوب الغرور، واخلع معاطف الزهو والخيلاء، وانظر إلى أخيك في الانسانية، وأَعِنْه بما تستطيع، وخفّف ويلاته، وقلّل من نكباته، فما ذا تفيدك كبرياؤك؟ وما تغني عنك خُيلاؤك؟:

فاتقِ ٱللهَ يا قويُّ وخفّضْ   إن ملكتَ الورى من الغُلَواء
انما الناس يا قويُّ سواء   كل خلقٍ من طينها والماء
لا تدعْ شوكة التكبر تنمو   فجميع الانام من حوَّاء
إنْ تفاخرْ بالاصل فالطين والما   او ببطشٍ فهاك أسد الشراء
خفّفِ الوطءَ فالبرايا عيال ٱلله   — فارحم يرحمْك مَن في السماء
وانتزع عنك مِطْرف الزهو واخلع   قبّعاتِ الإعجاب والكبرياء

اقحط رجال ام قحط وجدان ؟

كل انقلاب في العالم يعقبه اختلال في الاحكام ، وفوضى في الاعمال ، واضطراب في حركة العمّال ، والانقلاب العثماني كجميع الانقلابات ، تلاه ما تلاها من الارتباك والتشويش وقحط الرجال العاملين

غير ان الاختلال له اجلٌ معلوم والارتباك لابدَّ ان ينتهي عند حدّ . والاجل يطول او يقصر بنسبة اهمية الانقلاب او عدمها — ولما كان انقلابنا من اهم الانقلابات التي انقضَّت علَى العوالم الاستبدادية كان لابدّ لانتظام الاعمال وسيرها علَى محورها من وقت طويل ، وذلك لتربية العمّال تربيةً دستورية حقاً ، حتى اذا ما عرفوا واجبهم واتقنوا ما عُهد اليهم إتقاناً ، ساروا كما تقتضيه النظامات ، ونهجوا منهج العمّال في الأُمم الدستورية الراقية .

ويجب ان يُختار هؤلاء العمّال ممن فيهم الاستعداد للقيام بمهام الأُمة . واول شرط يشترط فيهم ان يكونوا من اهل العقل والدراية والاخلاق الفاضلة والوجدان الصحيح — والوجدان الشرط الاعظم في كل ما تقدم

يشكو الناس اليوم من قحط الرجال ، وعدم وجود الاكفاء العاملين المدرّبين . وانا اشكو من قحط الوجدان ، وندرة الحكام الذين ينظرون إلى الجريمة لا الى المجرم وما يتبعه من الذيول والغيوث

وقحط الوجدان ليس قاصراً على المتربعين فوق دست الامر والنهي والحل والعقد بل هو عام شامل الامة الاَّ من رحم ربك وقليلٌ ما هم ، ومع ذلك

فكأننا ندعي المحافظة عَلَى الحق،وأننا احرار معتصمون بحبل الدستور المتين

اذا لم نربّ الوجدان تربية صحيحة ، واذا لم نرمِ بالاغراض الى مكان قصي، فلسنا باحرار ، ولو سبحنا باسم الحرية آناءَ الليل واطراف النهار . لان الحرية تقضي عَلَى كل انسان حاكمٍ او محكوم ان يتبع الحق وينصر المظلوم ، ويبتعد عن كل عمل شائن

الوجدان الصحيح يجب ان يكون في كل امريءٍ حرّ غير أَنَّ وجوده في الحاكم آكدُ منه في سائر الناس لان بيده إحقاقَ الحق وابطالَ الباطل . فإن راعى وجدانه وانصاع لحكم العدل، فقد أَحيى ميت الرجاء في الامة، وأنشر مندثر الامل

الرجال عندنا كثيرون لا كما يتوهم الناس ، فان بيننا من اهل الثروة والعلم والقوانين وارباب الادارة رجالاً يُفتخر بهم لو راعوا وجدانهم وخدموا امتهم خدمة صادقة . غير أَنَّ الاهواء تصدف بهم عن سلوك جادة المنفعة العامة ، وتقذف بهم في طريق الغاية الشخصية والنظر الى منفعة الذات . فاغنياؤُنا عُبّاد اموال وعلماؤُنا خَدَمةُ اقوال، وحكامنا رُوّاد آمال ، وقليل من هؤُلاء واولئك من يجود لمنفعة الامة ، ويعمل بما يعلم ويحكم بما يوجبه الحق ويمليه عليه الوجدان

الاغنياء لو راعَوْا وجدانهم ، وخدموا الأُمة باموالهم المكنوزة في الصناديق ، وأفاضوا عليها من وابل الاحسان، وشيّدوا لها المدارس، لنهضت من رقدتها ، وأُقيلت من عثرتها . ولكنهم عن ذلك غافلون ، وبترفهم منهمكون . ولو أهبت بهم ليتنبهوا ، ولو حرّضتهم لينفحوا المشروعات

الخيرية بجزء من اموالهم ، لوَّوْا روُّوسهم وهم معرضون !!!

فهل نقول : ليس عنـدنا رجال اغنياء ؟ ام نقول : ليس لكثير من اغنيائنا وجدان حرّ يدفعهم إلى الاخذ بيد الامة واقالتها من هـذه العثرة ؟

العلماء يقولون ما لا يفعلون ، وباهوائهم مشتغلون ، وعن تعليم الامة وتهذيبها وارشادها لاهون ، مع انهم عالمون ، وعَلَى الحقيقة مطلعون · فهل نقول ليس عندنا علماء ؟ ام نقول : إنهم باعوا الدين بالدنيا ، واستبدلوا الذي هو ادنى بالذي هو خير ؟

الحكام وما ادراك ما هم ؟ قوم فوَّضت الأُمـة اليهم امورها ، والقت عليهم اثقالها ، ورمت اليهم بمقاليد الحكم عَلَى اعراضها واموالها ودمائها · ثم بصُرت بكثير منهم حادوا عن سبيل الرشاد ، واتبعوا غير طريق السداد ، تلقاء وصاية او رجاء ، وميلاً لمنفعة اورياء · ويظن الكثير أَنَّ سبب ميلهم عن الحق هو الجهل بالقوانين ، وأَنَّ من سُلموا زمام الحكم غير اكفاء · وهو حكم عليهم غير صحيح ، وانما عادات الدور البائد لم تزل موَّثرةً في نفوس اكثرهم ، ومسيطرة عَلَى طبائع الجلّ منهم · فهل نقول ليس عنـدنا حكام اكفاء ؟ ام نقول : ان الوجدان ضعيف ؟

فيا ايها الحكام راعوا وجدانكم ، وأصيخوا الى صوت ضميركم ، ولا تدعوا من لاخلاق لهم يقولون : لافرق بين الماضي والحاضر ، واننا لم ننل من فوائد الحرية والدستور ، الا انطلاق الالسنة وحرية الجرائد ، التي اتخذ كثير منها الحرية ذريعة لهتك الاعراض وشتم الناس والتطاول عَلَى اهل الفضل

ان كثيراً من الدعاوي التي تنظرون فيها ليس عليها أثارة من حق ، فلا

تسرعوا بالحكم فيها الا بعد قتلها علماً ، واياكم ان تبتّوا الامر قبل ان تتثبّتوا فيه . فوالله ان التزوير والكذب والنفاق قد تأصّلت جذورها في نفوس الامة ، فلا تكونوا عوناً للظالم على المظلوم ، ولا تسهلوا للمزورين السبيل ، ولا تفتحوا لاهل النفاق والشقاق الابواب ، فيلجوها ، فان دخلوها فقد اختلط الحابل بالنابل ، وضاعت الحقوق ، وتطاولت الفساق واهل الشرور على الابرياء ، واهل الفضل والحق

الهمَ الله اغنياءنا وعلماءنا وحكامنا السيرَ في سواء السبيل ، حتى ترقى الامة ، وتشفى من هذا الداء الوبيل ، وتصعّد في جو الارتقاء ، وتجلس فوق منصة العلاء

الى الامة العربية

اليكِ ايتها الأمة الكريمة اوجه الكلام ، ونحوك ايها الشعب النبيل ارسل ما اقول

إنَّ الزمان قد استدار ، وإنَّ الحالة اليوم تطلب رجالاً غير رجال الامس . فمن قام أفلح ، ومن بقي قاعداً طال قعوده ، ومن لم يزل نائماً فلا يُرجى له تنبُّه ، ومن ظلَّ خاملاً فلا املَ بانتباهه ، ولا رجاء بترقيه

قام فيك الصارخون ، وجهر بين ظهرانيك المهيبون ، وبنوك عن الاصغاء لاهون ، والى غير حلّ الاواصر لايميلون

ان سائر الأمم العثمانية تسعى لتأييد مركزها وتعليم بني جلدتها ، وتربية

بني جنسها، لانهم أدركوا أن لا رقيَّ الاَّ بالعلم ،ولا فلاح بغير التربية الصحيحة يجهـدون انفسهم و يجتهدون طاقتهم، ليجاروا العنصر الراقي و يمشوا معه في طريق الرقي والتقدم إلى الامام

و بنوك الكرام نشوى من الجهل — سكارى بخمرة الخيلاء

فأستفق من غفلتك، وتنبه من رقدتك، واعلم أَنك أن لم تأخذ باسباب العلم، وتتمسك بوسائل النهوض، وتعتصم بعرى الاقدام، فستبقى كما أَنت الآن أقلَّ الأُمم العثمانية مدنيـة ، اقلهم علماً ، اقلَّهم عملاً ، في حين أَنها شعرت بالحاجة إلى التربية ، وأدركت انها مفتقرة إلى الاكثار من معامل العقول، ومصانع الافكار ، ومنابت العلوم، و بساتين الاعمال . وقد اخذت العدة لكل ذلك ، و بدأَت تسير للوصول إلى ما هنالك

عَلَى حين أَنك ايها الشعب العربي اولى الجميع بهذه النهضة، فان الأَغربة فوق اطلال مدارس بغداد ودمشق وغرناطة والقيروان وغيرها، لاتزال تقرع سمعك بنعيقها، وتذكرك بما كان لأُمتك من سالف المجد، في ذلك العهـد . ولا تنفكُّ ارواح اولئك العظماء الذين أَناروا العالم بعلومهم ، واولئك الكبراء الذين دوَّخوا الممالك بحزمهم و إقدامهم، ترفرف من فوقك وتناديك : لقد اضعت علومنا، ودرست آثارنا، وأُستهنت بمجدنا وسلبت ثمار اعمالنا إلى غيرنا . فهتكت حرمتنا، واسقطت عظمتنا ، نخسئت من ولد، ولا ربحتَ من مولود!!!

بمثل هذه الكلمات تناديك ايها الشعب العربي ارواح آبائك، و بمثل هذا التقريع المر ، والتعنيف القاسي، تخاطبك وهي في عالم البرزخ ، فأَستمع لكلماتها وأَصغِ لمناداتها ، ثم أعمل بما تشاء

أنتِ أيها الأُمة ساعدُ الدولة القوي فان لم تنهضي اليوم وتسعي إلى المعالي السعيَ الحثيث، كنتِ وبالاً عَلَى الدولة ، وشرًّا على المملكة العثمانية · كنتِ آلة الخراب وواسطة الدمار · كنتِ سبباً لتوهين اركان الدولة ووسيلة لمحوكِ بسبب الجهل من لوح الأُمم الحية · فالدولة لا غنى لها عنكِ ولاغنى لكِ عن الدولة

. . . .

يا نواب هذه الامة، ويا قادة افكارها ، ويا رائدي رقيها وفلاحها ؟ ها قد القت اليكم بمقاليد شؤُونها، وأُنكلت عليكم في ادارة مصالحها · فلا تكونوا وبالاً عليها ، ولا ترضوا بغير ما يُنجحها ويرقي ابناءها ، ويرفع عنها حجاب التأخر وستائر التواني والاهمال ، فان عليكم إنجاحها وبكم نهوضها ، فلا تضيعوا ثقتها ، ولا تنفروا قلوبها

ان الدولة اليوم في مشاكل عظيمة، وويلات جسيمة، فكونوا مع اخوانكم اعضاء دار الندوة، يداً واحدة في تخفيف الويلات، وازالة العقبات

وانتِ ايتها الامة العربية ماذا ستعملين امام هذه المشكلات ؟

نعم ان كان شيء مما يحذر وقوعه، فجودي بالارواح جود الكريم بالمال، كما كان اجدادك الكرام يبذلون الارواح في سبيل تعزيز مكانة الشرف وبناء صروح المجد — وان لم تفعلي ذلك ، فلستِ منهم وليسوا لك آباء

اين انتم ايها الخطباء ، أَهيبوا بامتكم، وحمّسوا شعبكم ، وقولوا لقومكم اليوم كما قال احد اسلافكم من قبل في جزيرة الاندلس وقد زحف عَلَى الاعداء بعد أَن قطع اسباب الرجوع (او عَلَى التعبير العصري خطّ الرجعة) :

«ايها الناس! اين المفر، والبحر من ورائكم والعدوُّ من امامكم؟ وليس لكم واللهِ الا الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيعُ من الايتام في مأدبة اللئام. وان انتهاز الفرصة لممكنٌ إن سمحتم لأنفسكم بالموت. وإني لم أحذّركم امراً انا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة ارخص متاع فيها النفوس، بل ابدأ بنفسي»

ايها الشعراء! دعوا الغزل والنسيب، والمدح والهجو، وخوضوا غمار الحماسة، وغوصوا عَلَى معاني المجد، وصوغوا للامة عقوداً من الإِباء والشرف، وسيوفاً حداداً تكون لها عوناً عَلَى اقتحام الغمرات، واحتمال الويلات. وأذكوا بكلامكم الحيّ نارَ همتها، وأحرقوا خشب رقدتها، وقولوا لها كما قال احد اجدادكم:

إن تُبتدَرْ غاية يوماً لمكرمةٍ ... تلقَ السوابق منا والمصلّينا
إنا لنرخصُ يوم الروع انفسنا ... ولو نُسام بها في الامن أُغلينا
بيضٌ مفارقنا تغلي مراجلنا ... نأسو باموالنا آثار ايدينا
إني لمن معشر أفنى اوائلَهم ... قولُ الكماة ألا اين المحامونا
لو كان في الالف منا واحد فدعوا ... مَنْ فارس خالهم اياه يعنونا
ولا تراهم وان جلّت مصيبتهم ... مع البكاة علَى من مات يبكونا

او كما قال الآخر

ونشرب ان وردنا الماءَ صفواً ... ويشرب غيرنا كدراً وطينا
إذا بلغ الفطامَ لنا صبيٌّ ... تخرُّ له الجبابر ساجدينا
ملأنا البرَّ حتى ضاق عنّا ... ونحن البحر نملأُه سفينا

فهل للامة العربية اليوم، أن تحقّق قول شاعرها، وتملأَ البحر بالسفن؟ وما

ذلك الا بدفع ما تجود به انفس الكرام في هذه السبيل الشريفة ، ليدفعَ عن الدولة عارُ الضعف ، وتكون تلك السفائن قذى في عيون الاعداء ، الذين يتربصون بنا الدوائر ، ولا يفتأون يجرون الينا المشاكل ، ويريدوننا عَلَى الدخول في المآزق ، رغبةً في إضعافنا ، وسعياً وراء منافعهم السافلة ، وغاياتهم المعروفة .
فقومي ايتها الامة واحفظي بالك الدولة ، وعزّزي مكانتك بين الامم

ايها الكتاب وارباب الصحف ! اين اقلامكم فأشرعوها ؟ واين محابركم فاملأوها ؟ واين طروسكم فانشروها ؟ ان الامة في حاجة الى نشر ما يفيد من المقالات الاجتماعية والعمرانية والاخلاقية ، فلا تخطّوا سطراً الا وانتم واثقون كلَّ الثقة أنه ينهض بها ، ولا تكتبوا فصلاً حتى تعلموا ان وراءه فائدةً عظمى ، ومنفعة جلّى

دعو الاغراض جانباً ، واطرحوا المطاعن قصياً ، فان كل ذلك لايزيد الأمة غير تأخر ، واكتفوا من السياسة بلبابها وصحيحها ، ومن الاخبار بقليلها واوثقها ، وأكثروا من نافع القول ، ومفيد الكلام

. . . .

وانت ايتها الامة ! قد آن لعمري النهوض واُطّراح الخمول ، فانْزعي رداءَ الوجل ، وأميطي عن طريق إقدامك اذى التواني والضعف ، فانَّ السبيل واضحة ، والطريق مُعبَّد

وسلام عليك اليوم ، وأزكى منه يوم تُبعثين من اجداث خمودك وخمولك ، الى محشر حزمك وشهامتك وعزّك ، وسالف عهدك ، وغابر مجدك

التربية اساس النجاح

تمهيد

في التربية وفضائلها

التربية كلمة صغيرة اللفظ ، كبيرة المعنى ، تنطوي تحتها الكمالات اجمعها . فهي مِلاك الخير كله ، وجماع الفضيلة بأسرها ، وعليها مدار الكون ، وبها تنال الفلاح ، وفيها قبعت ذرّات النجاح

وهي في اللغة مصدر ربّاه يربيه بمعنى نمّاه . وفي اصطلاح علماء الاخلاق والتربية هي تنمية الاخلاق الفاضلة في النفس ، وتعهّدها بالارشاد ، لتكون ملكةً راسخة فيها ، فتثمر الفضيلة والخير

فعلى التربية الحق سعادة الامم وفلاحها ، وشقاؤها وانخذالها . فمتى كانت التربية صحيحة في أُمة من الامم ، رفعتها من وهاد التأخر الى ذروة الفلاح . والعكس بالعكس . وعلى مقدار التربية تكون تجلية الاقوام في مضمار هذه الحياة . فما من أمة وجدت التربية الحق في قلوب ابنائها متسعاً الاّ بلغوا ما يأملون من رفاه العيش وسعادة الحياة . وبقدر التربية يكون في الامم الرجال المفكرون الذين يبذلون وسعهم ، ويُنفدون مجهودهم ، لترقية أُمتهم واوطانهم

خذ اية أُمة من الامم الراقية اليوم وقبل اليوم ، تجد انها قد تقدمت و بلغت ما بلغت من العظمة والمدنية ، بواسطة اناس تربوا تربية صحيحة ، فعرفوا

انحطاط أمتهم وتأخرها ، فضحوا كلّ مرتخص وغالٍ ، حتى ارواحهم ودماءهم ، في سبيل تخليص أمتهم من مخالب الظلم والاستبداد ، والاخذ بايديها ونشلها من مهاوي الجهل والفساد ، حتى أنافوا بها على يفاع الحرية وذروة المدنية • والامثال على ذلك كثيرة تكاد لاتحصى ، والتاريخ طافح بها • وهاك مثالاً من ذلك — الامة العربية :

— الامة العربية وما ادراك ماهي ؟ تلك الامة الرفيعة الشأن ، البعيدة الصيت ، التي بلغت من المدنية والعمران شأواً بعيداً لاتزال آثاره ناطقة شاهدة على ما كان لهم من العظمة في الملك والسلطان وامتداد السطوة • تلك الامة التي مدّت جناح ملكها على الحجاز واليمن والشام والعراق وفارس وافريقيا والاندلس وقسم من اوربا ، ووصلت حوافر خيولها الى قسطنطينية وباريس • تلك الامة التي نشرت العلوم والمعارف والصناعات ، وبثّت في أرجاء المعمور انوار الهداية لسلوك مناهج العلم والفضيلة • تلك الامة التي لم تزل اوربا اليوم تعترف لها بالتقدم وتقول إنها تلميذة لها ، وعنها تلقّت العلوم والصناعات التي كانت لها نوراً أوصلها الى ما هي عليه الآن من التقدم والبراعة في كل شيء .

تلك الامة التي هذا شأنها ، ماذا اصابها حتى اصبحت الآن ضعيفة ، متأخرة في كل شيء ؟

— من نظر اليها بعين التروي والبصيرة نظرَ المنتقد الخبير ، يعلم أن ضعف التربية وفساد الاخلاق هو الذي أوصلها الى هذه الحال من التأخر — فسدت اخلاق الناس بفساد اخلاق الملوك : « ان الملوك اذا دخلوا قريةً افسدوها

وجعلوا اعزة اهلها اذلة »

ملوكها بطرت معيشتهم ، فاستبدوا برعيتهم ، فقام عليهم ثائر من اهلهم او من غيرهم بداعي الاصلاح ، فاشتعلت الحروب الداخلية ، فلها الناس بها وتركوا التعليم والعلم والتهذيب والتربيـة — زد عَلَى ذلك أنَّ الاجنبي أغتنم فرصة هذه المشاكل الداخلية ، فجاءهم عَلَى حين غرة ، فاصبحوا بين شقين من عصا : عدوٍّ في الداخل وعدوٍّ من الخارج ، وتلك هي الطامَّة الكبرى ، والبلية العظمى . وما زالوا عَلَى انفسهم والعدو الخارجي عليهم ، ينقص ارضهم من اطرافها ، إلى ان زالت مدنيتهم ، وبقيت اثراً بعد عين . واضمحلَّ ملكهم ، وذهب من ايديهم إلى يد غيرهم ، فكادت تُمحى الدول الاسلامية ، لولا أن قبض عَلَى ناصية الخلافة خلفاء بني عثمان ، وهم لا يزالون إلى الآن

هذا مثالٌ من أمثلة الأُمم التي كان ضعفُ التربية وفساد الاخلاق سببَ انحطاطها بعد الارتفاع ، وتأخرها بعد التقدم

وهاك مثالاً آخر وهو اقرب ما اضربه للقاريء :

— مضى عَلَى الأُمة العثمانية حينٌ من الدهر (٣٣ سنة) لم تكن فيه شيئاً مذكوراً ، بعد أن كانت تتخوَّفها دُوَل العالم ، وتحسب لها الف حساب . فقد كانت في مقدمة الدول أستعماراً واستعداداً . فلما نخر سوس فساد التربية والاخلاق عظمَ مجتمعها ، بسبب ما طرأ عليها من استبداد الهيئة الحاكمة ، وإماتة الشعور فيها ، والضغط على عقولها — لما حصل ذلك في الأُمة ، أَشرفت عَلَى الهلاك وأشفت عَلَى شفا جُرُفٍ هارٍ من الاضمحلال . فطمعت فيها الدول الحاضرة التي كانت تخافها ، وكادت تقتسمها فعلاً ، لولا أن

الحياة الدنيا · فيعوّد كرم الاخلاق والشجاعة وحبّ الخير ، وغير ذلك من الفضائل والمحامد · ومتى كان كذلك فيرجى من الناشيء ان يكون عضواً صحيحاً في جسم الأُمة ، يبذل روحه ودمه في خدمة اوطانه ودولته ، لانه يكون بمقتضى تلك التربية مُجبراً مقهوراً عَلَى أَداء الواجب نحو الأُمة (ولو كان في زمن حرية القول والعمل) إذ ليس منشأُ ذلك الاجبار او القهر السلطةَ الاستبدادية ، لأَن هذه السلطة تكره كل مَنْ يقوم باعباء الخدمة الوطنية ، واثقال منفعة الأُمة · وليس منشأُه من قوم يأْمرونه بذلك ، فيفعل حياءً او رياءً — ولكن ما هو منشأُ ذلك ؟

— منشأُ الاجبار عَلَى القيام بالواجب ، هو تلك العاطفة التي ربّاها المربي ، وعمل عَلَى احيائها العلم الصحيح — الا وهي الضمير — هذا الضمير او تلك النفس الطاهرة هي التي تجبره عَلَى خدمة وطنه وامتهِ ودولته ، ولا تحصل تلك العاطفة بغير التربية الصحيحة · فالتربية جماع الخير كله ، واساس الفضائل باسرها · فربُّوا ابناءَكم وبناتكم ، وأَودعوا في نفوسهم التعاليم القويمة ، وأَبذروا في قلوبهم تلك البذور الطيبة ، وتعهّدوا افكارهم بمياه الفضائل ، ولا تدعوا لسلطان الاوهام والخرافات عَلَى عقولهم سبيلا · وبذلك يحيون حياة طيبة ، ويكونون ابناء المستقبل ، يخدمونه بكل صدق وامانة واخلاص

التعليم امر عظيم جليل القدر ، عظيم الفائدة ، ولكن التربية اشرف وانبل ، واعظم واجلّ · فان العاقل الخبير ، والناقد البصير ، يرى من نفسه ارتياحاً لقومٍ حسنت تربيتهم ، ونبلت اخلاقهم ، وكرمت نفوسهم ،

ولو كانوا غير متعلمين · ولا يرى هذا الارتياح وذلك الأُنس بفئةٍ من المتعلمين ، ليس عندهم من التربية الصحيحة ما يرغّب الناس في مخالطتهم والأُنس بهم · وهذا مشاهد بالعيان ، لايحتاج في صدقه إلى برهان · وقد ورد في الحديث الشريف : « خير الناس من يألف ويُؤلف »

وليس المرادُ مما قدمناه إنكارَ مزية العلم والتعليم ، حاشا لله ان اكون من الجاهلين ، فالعلم من أقوى دعائم المدنية ، واقوى اسباب الرقي في معارج الحضارة والعمران · وانما القصد أنَّ التربية والاخلاق ومعرفة الواجب ، خيرٌ من العلم المجرَّد عن التهذيب والآداب والاخلاق الفاضلة ، وهـذا امرٌ لاينكره عاقل ، وما أحلاهما إذا اجتمعا في المرء

كم رأينا من شبان درسوا مادرسوا ، واغترفوا من بحر العلوم ما اغترفوا ، ولكنهم في فساد الاخلاق غارقون ،وفي حمأة الشرورمنغمسون، لاينفعون الامة والوطن ، وليس مرادهم الا « ربي وسعدى وهنداً » وغيرهنَّ من دواعي السرور واسباب الحبور ···· غير أنهم لو علموا العاقبة لقالوا : انها شرور وأيَّة شرور

ناشدتك الله هل امثال هؤلاء المتعلمين سوى اعضاء اشلاء في جسم المجتمع ؟ وهل تفضّلهم عَلَى أُولئك الاخيار الاطهار ، اصحاب القلوب النقية البيضاء ، والاخلاق الكريمة السمحة ، الذين لم يسعفهم الحظ بالجلوس وراءَ مناضد المدارس ؟؟

· · · · · · ·

ليس القصد من التربية ان تكون الأُلفة بين النوع الانساني فقط ،

بل الامر أَعلَى من ذلك وارفع ، واشرف وانبل ، فان الغاية التي نقصد اليها، والضالّة التي ننشدها ، هي ان نوجد بواسطة التهذيب والتربية في نفوس النشء شعوراً لطيفاً ، وعاطفة شفافة ، يجبرانه علَى القيام بالواجب نحو الأُمة والوطن والناس اجمعين . وذلك لا يكون إلاّ بتعويد الاحداث مكارمَ الاخلاق واحاسنَ الاعمال منذ نشأتهم ، وبذلك نكون قد خدمنا الوطن والانسانية أَجلّ خدمة تُذكر فتشكر . فتعويد الاحداث علَى العمل بالواجب منذ الصغر يربّي في نفوسهم تلك العاطفة التي نريدها ، وذلك الشعور الذي نتطلّبه . فالتربية في الصغر كالنقش في الحجر

الولد لابدّ ان يشبّ علَى خُلق حميد او ذميم ، لانه بحكم القسر والطبيعة مفطورٌ علَى اكتساب ما يسمعه او يراه من خير او شر، نفعٍ او ضرّ ، فهو بالقياس الى ما يسمعه كالصدى « الفونغراف » وبالنسبة إلى ما يراه كناقل الهيئة « الفوتغراف » فكما أَن الاول يحفظ في اسطوانته ما يلقى اليه من الالفاظ ، والثاني ينطبع في زجاجته ما يكون امامه من الاشباح والهيئات، ثم يبدي كلٌّ منهما ما أَكنّه وأَخفاه ، إنْ خيراً فخيرٌ ، وان شراً فشر ، فكذلك الولد ينطبع في مرآة عقله ما يراه من الافعال ، ويُنقش في صفائح ذهنه ما يسمعه من الاقوال ، ثم يبدي ذلك للناس و يعاملهم حسب ما رآه وسمعه

فمثل قلب الولد مثل الشمعة ، قابلة لكل نقش وصورة ، فاُحذر ايها الرجل ان تنقش في فوآد ولدك وفلذة كبدك ما يكون و بالاً عليه وعلَى أُمته في مستقبل حياته . قال الامام الغزالي :

« ان الولد امانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة خالية عن

كل نقش وصورة ، فان عُوِّد الخير وعُلِّمه نشأ عليه ، وسُعِد في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلّم ومؤدّب . وان عُوِّد الشرّ وأُهمل شقي وهلك ، وكان الوزر في رقبة وليّه والقيم عليه » اه

فسعادة الوطن — معشرَ ابناءه — ان ندأب في تهذيب الاحداث ، وتربية الصبيان ، قبل ان يأتيهم يوم لاينفع فيه مال ولا بنون ، وهو يوم الجهاد الاكبر في معترك الحياة المستقبلة . فالتربية لاتؤثر الا ان كانت منذ الصغر كما قدمنا . واما تربية الشبان بعد ان تتأصل فيهم شأفات الجهل وفساد الاخلاق فهي عسيرة . واعسر منها تأديب الكهول والشيوخ . وهؤلاء قد ينفعهم التعهُّد بالوعظ والارشاد من حين إلى آخر :

قـد ينفع الادبُ الاحداثَ في صغرٍ
وليس ينفعهم من بعـده ادبُ
إنّ الغصون اذا قوّمتها أعتدلت
ولا يُقوّم لو قوّمتـه الخشبُ

تلك هي التربية الاولى في هذا الدور ، دورِ الطفولة او دور التهذيب المنزلي او الأسريّ . وهو دور يجب التنبه له اشد التنبه ، اذ عليه مدار رحى الآمال

التربية المنزلية خير واسطة لبث المبادىء القوية في نفوس النابتة ، وافضل سبب يرقى بهم في سلم النجاح والخير . وفي الجملة فتأثير الأسرة «العائلة» في طبائع الناشئين وعقولهم امرٌ لاينكر . بل ان طبائع الآباء ربما تنتقل الى بنيهم بطريق الارث ، حتى ذكروا أن بعض فلاسفة الاميركان

(او ليفيه و يندل هلمس) سُئل عن مبدإِ تربية الطفل فقال : « تبتدئ تربية الطفل قبل ان يُولد بمائة سنة » يريد بذلك ان التربية تراث يرثه الولد عن آبائه ، كما ورد في الحديث الشريف : « الرضاع يُغير الطباع » — فان لم تحسن اخلاق الوالدين والوالدات أثر ذلك في اولادهم ، لهذا يجب على المربّين والمربيات أن يتكلّفوا الاخلاق الحسنة — وان لم يكونوا من اهلها — حتى تنطبع في مخيَّلة الولد صُورُ السجايا الحسنة ، وهيئات الاخلاق الصحيحة

ومن آكد الواجبات في هذا الدور أن يترك الوالدان كلَّ خصام وجدال ، وينبذا كلَّ خُلُق سيئ يؤدّي إلى النفور · وذلك بان يعرف كلٌّ من الزوجين ما لاحدهما على الآخر من الحقوق فيؤديها · والاّ كان خصامهما وتنافرهما ضربةً قاضية على البنين والبنات ، لانهم يحفظون من الآباء والامهات رواياتٍ سيئةً يمثّلونها متى بلغوا مبلغ الحياة الزوجية

وليُعلم أن تربية الولد بين ظهراني أُسرته « عائلته » هو خيرٌ له وأولى من دفعه الى المربيات ، يتصرفن فيه بسوء اخلاقهنَّ وشرّ عاداتهنّ · وانّا لنرجو من السيدات ان يتحمّلْن تلك المشقة ، مشقةَ التربية والتهذيب بانفسهن ، فهي في الحقيقة راحةٌ وحسنُ مستقبلٍ لأَولادهنَّ

التربية المدرسية

هناك دور ثانٍ ، وتربية ثانية ، وهو دور التلمذة والتربية المدرسية · وهو دور يجب الاهتمام به كسابقه ، فانه نتيجة ما تعلَّمه من ابويه ، وما أختبره من اخلاقهما وأَخلاق أُسرته · فان كان من حسن حظه انهُ وجد في

مدرسة مستوفاة الشروط ، من حسن التربيـة والتهذيب ، فتلك سعادة فوق سعادة · وان وجد في مدرسة فسدت اخلاق طلاّبها والقائمين باعبائها ، فهناك الطامة الكبرى ، والبلية العظمى · إذ هناك يتصرّف الطلبة باخلاق بعضهم والمعلمون باخلاق تلاميذهم

ولما كانت المدرسة منزلاً ثانياً للناشيء وجب ان تكون كمنزله الاصلي ، معهداً للاخلاق الكريمة والسجايا الفاضـلة · وإلاّ كانت ضربةً قاضية على التلميذ ، بل شرًّا عليه من الافعى والوحش الضاري · لهذا وجب علَى الاب او الوليّ ان يختار لولده او للقيّم عليه من المدارس أسماها تربيةً وارقاها تهذيباً · وذلك هو اوّل ما يجب أن يهتمّ به حين يريد إدخالهُ في المدارس · وأمّا أمرُ التعليم فهو شيءٌ ثانوي بالإضافة إلى التربية

المدارس كثيرة فيجب علينا ان نسعى لإصلاحها ، ونبذلَ الجهـد لإيجاد روح الفضيلة والتهذيب العالي في كل حجر من احجارها ، وكلّ خشبة من اخشابها · وبذلك نضمن مستقبل ابناءنا

كيف نُصلح المدارس ؟

— نصلحها بإصلاح القائمين باعبائها ، وذلك بأن نحملَ رؤساءها علَى ان يختاروا لها الاكفاء من المعلمين والمربين ، وان لا ينتخبوا لها إلاّ مَن هو ثقة معروف بآدابه واخلاقهِ ، لان التلاميذ امانة بين يديهِ · وذلك بان لا يكون المربي أحمق ، انانيًّا ، وسخ الذيل · بل يكون طاهر السيرة والسريرة وقوراً ، محبًّا للنفع ، وأن يكون من اصحاب الدين والوجدان · ولست اقصد ان يكون المربي شيخاً او كاهناً ، كلا ، وانما أعني بذلك ان يكون متبعاً للحق ،

محبًّا للخير والسلام ، ذا وجدان صحيح ، واخلاق فاضلة ، وعواطف شريفة ، يسير بتلاميذه نحو ما يعود عليهم بالسلامة والنجاح • فان فعلنا غير ذلك فعلى مستقبل النابتة السلام :

وسائل التربية في دَوْرَي الاسرة والمدرسة

تختلف وسائل التربية واسباب التهذيب باختلاف مشارب المربين :

فمنهم من يرى أنها لاتكون الا بالقسوة والشدة والضرب ، وغير ذلك من الوسائل التي كانت محظورة في ايام الاستبداد ، فأحرِ بها ان تكون كذلك في ايام الحرية والعدل

التهذيب علَى تلك الصورة هو من الاعمال الوحشية ، وهو بقية من بقايا الهمجية ، لانها تُفقد الناشيء ذلك الخلُقَ الكريم ، وهي الشجاعة التي هي مِلاكُ كلّ فضيلة • ولست اعني بالشجاعة ان يكون وحشيًّا يستلُّ مديته او مسدَّسه عند اقلّ طاريء ، كلا ، وانما أُريد بالشجاعة تلك الروحَ التي تحفز المرء للدفاع عن وطنه بقلمه او ماله ، بل بسلاحه وروحه ، إن طرأ علَى البلاد طاريءٌ اجنبيٌّ يريد بها شرًّا (لاقدر الله ذلك)

ومنهم من يرى أنَّ التربية بشتم النشء وسبهم و إهانتهم وتخويفهم ، وغير ذلك مما يربّي في نفوسهم الذل والهوان والصَّغار • فالتربية علَى هذه الصفة تُفقد الناشيءَ كلَّ شعور و إحساس ، وتنزع عنه كل صفة من صفات الخير والكمال ، وتجعله عرضة لكل مؤثّر ، وآلة صمَّاء بيد كل مدير ، فلا يتحرك لأمر ، ولا يتأثر من هوان ، فالموت والحياة لديه سيان :

من يهُنْ يسهل الهوان عليه   ما لجرحٍ بميّتٍ إيلامُ

التربية الصحيحة التي جاء بها الشرع ، واقرّ عليها العقل ، ودلّ عليها الاختبار ، وأمرَ بها علماء التربية والتهذيب ، تكون بتعويد النشء الفضائل ، و إرضاعهم المحامد ، وتغذيتهم بما ينير الاذهان ، ويوسع نطاق العقول ، مع ابن التغذية ودروس العلم ، بلا مخوّف ولا إهانة ولا ضرب ، بل بالترغيب والتنشيط ، وتمثيل الفضائل بصورها الكاملة ، ومستقبلها الحسن ، وتمثيل الرذائل والاخلاق السافلة والكسل ، بصورها القبيحة ، ومستقبلها السيء

وهناك امر مهم في التربية ، وهو ان لايتكلم احد بحضرة الاطفال والناشئين بما ينافي التربية القويمة من الفاظ الفحش والبذاء ، وكلمات التخويف والتهويل : كالبعبع والجن والعفاريت ، وغير ذلك مما يحدث في نفوس النابتة أثراً سيئاً ، لا يمحوه كرور الاعوام ، ولا مرور الزمان . لان ما ينطبع في الناشيء لايفنى الاّ بفناء جسمه ، ولا ادري ان كان يصاحب روحه بعد موته ايضاً

امّا ما يفعله بعض من لاخلاق لهم : من بثّ جراثيم الفساد في اولادهم ، وذلك بأن يتكلموا أمامهم بكلمات السفاهة ، وعبارات الوقاحة ، فهو مما لايجدر بالعاقل السكوت عنه إن رأى مثل ذلك ، لأَنه من باب المنكر الذي تجب ازالته باية وسيلة من الوسائل

التربية العملية

متى تمّ للناشيء هذان الدوران : دور التربية المنزلية ، ودور التربية المدرسية ، ينتهي الى دور ثالث هو أشد الادوار وأجدرها بالاعتناء، الا وهو دور الجهاد في معترك الحياة ، دور الجد والعمل ، دور السعي بلا ملل . وهو نتيجة الدورين السابقين . فإن كانا حسنين فهو حسن ، والضد بالضد . غير أنه يلزم التنبّهُ لأمرٍ عظيم : وهو أنه لايكفي ان تكون التربيتان الأوليان ساميتين فقط . بل يجب ان يكون دور الجهاد منزّهاً مقدّساً . والاّ ضاع التعب الماضي سُدًى، لأنّ هذا الدورَ الثالث دورُ اجتناء ثمرة الجهاد والجد والتربيتين اللتين تقدمتاه . فان لم نُحسنِ اقتطاف هذه الثمرات تذُبلُ شجرة الحياة

كيف تكون التربية في هذا الدور ، دورِ الجهاد والعمل ؟ وكيف تُجنى نتائجها ؟

— تكون التربية في هذا الدور كسابقيهِ بالمحافظة علَى الآداب الصحيحة ، والاخلاق الفاضلة ، والسعي وراء تنمية القوى العقلية والادبية ، بالاختبار والمشاهدة والمطالعة ، وغير ذلك من وسائل ترقية النفس و إذكاء نار الهمة .

وهناك امرٌ مهم جداً وهو ان يبتعد الشابُّ عن اقوامٍ فسدت اخلاقهم ، وخبثت ضمائرهم ، ليس لهم همٌّ الا الفساد وتدنيس شرفهم وأعراضهم بقاذورات المواخير والحانات والميسر « القمار » .

واني لأَعلمُ طائفةً ممن تربوا تربية حسنة في دورالأُسرة «العائلة» والمدرسة ، ثم خرجوا منهما الى دور العمل والجهاد ، فأَحاط بهم قوم فسدوا اخلاقاً ، وانحطوا آداباً ، فأفسدوا عليهم أَخلاقهم وشرفهم ، وغمسوهم في حمأة الشرور والمنكرات ، فخسروا اموالهم وعقولهم واجسامهم وثقةَ امتهم بهم . فلا حول ولا قوة الاَّ بالله

يجب ان نلتفت الى هذا الدور التفاتَ متيقّظ حاذق حذر . والتربية في هذا الدور هي للحكام اكثر منها للآباء . فيجب عَلَى القوة الحاكمة ان تبحث عن الشرور واصحابها ، وتنقّب عن مواضع قتل العقل والشرف ، و إهلاك الاجسام ، واتلاف الاموال ، فتقفلها . وان لم تفعل ذلك ، ضاع مستقبل الشبان ، ورجعوا بخفيَّ حنين ، بعد عناء التربيتين .

ايتها القوة الحاكمة لاعذر لك في اهمال الشبان، وعدم النظر الى تحسين احوالهم : بمنعهم من كلّ ما يضرّ بدينهم ودنياهم واجسامهم وعقولهم، فاحرصي عَلَى تخليصهم مما هم فيه من الفساد والفجور . ولا تتوهمي أَنَّ القانون يبيح امثال هذه الشرور والموبقات ، كلاَّ ، إن القانون أَباح الحرية الشخصية بشرط ان لايتعدّى ضررُها الى الغير . وأَفعالُ الشبان متعدٍّ ضررُها الى غيرهم . ولا يظنَنَّ ظانٌّ أَنَّ الحكومة لاتقدر ان تمنع الشخص من عمل يضرُّ بنفسه لاغير . بل هي مفوّضة في منعه من كل ما يضرُّ به وبغيره . الا ترى أنها لو رأت احداً يريد ان يقتل نفسه فهل تدعه يفعل ما يشاء او تمنعه من ذلك ؟ — لاشك انها تمنعه ، فكذلك لو رأته يعاطي القمار والشرور فهي تمنعه منها ، فان لم يكن المنع حباً بمن يعاطي هذه الامور ،

فهو للحرص عَلَى أَنْ لا يراه غيره فيعمل مثل عمله ، اذ لو تركوه وشأنه ، فعمل غيره بعمله ، يصير الضرر عاماً لا خاصاً

. . . .

وصفوة القول : أن التربية الصحيحة للاخلاق والشعور ، هي اساس الفضائل ونبراس التقدم ، وسلم الترقي ، وروح النجاح · وأَنَّ ترقي المجتمع والامم ، إنما يكون بحسب الهمم ومقدار العزائم ، ولا تكون العزائم القوية ، والهمم العالية ، الا بتصحيح المباديء ، وتقويم الاخلاق · وذلك يكون بزرع بذور الملكات الصحيحة في عقول النابتة ، وتعويدهم الفضائلَ منذ نشأتهم ، حتى يكونوا رجال المستقبل · مع ملاحظتهم في دور الجهاد والعمل الى ان يؤْمنَ جانبهم

ويعجبني في هذا المقام قول الفيلسوف الطويراني :

« كلُّ جيلٍ من البشر هو عنوان ما قبله ، ومقدمة ما بعده ، وشبانُ كل عصرٍ كبارُ آتيه وصغار ما فيه · فكيفما كانت مقدمات الاعمال في أُمة ، كانت نتيجة الآمال فيها »

٤

الانانية وحب الذات

خلق الله الانسان ، واعطاه من الادراك ما يستعين به عَلَى مكافحة اهوال هذه الحياة ، ومصادمة المصاعب التي تحول بينه و بين جرّ ما ينفعه، ودرء ما يضره . وهداه النجدين ، وأوضح له الطريقين ، وسنَّ له من النظامات ما لو اتَّبعه لكان سعيداً في الحياتين . أرسل له الرسل ، فأبان له عَلَى ألسنتها السُّبُل . وعرض عليه الامانة التي أبت أن تحملها السموات والارض ، إباءً طبيعياً لعدم الاستعداد لذلك ، لأنه لم يُودع فيها ما يجعلها اهلاً لتلك التكاليف التي يترتب عليها الثواب والعقاب ، وحملها الانسان ، وتلقَّاها بما خُصَّ به من جوهر العقل ، وسداد الرأي وسلامة الفطرة : « انا عرضنا الأمانة عَلَى السموات والارض والجبال، فأبَيْنَ ان يحملْنها ، وأشفقْنَ منها، وحملها الانسان » نخان الله في امانته ، وأضاع ما اخذه عليه من العهود والمواثيق ، « إنه كان ظلوماً جهولاً » طغى وبغى وترك النهج السَّوى ، طمعاً في ارضاء الهوى ، والنفس الامَّارة بالسوء . فسُدَّت ابواب السعادة الحقيقية في وجهه ، وسوف يندم عَلَى ما فعل ، ولات ساعة مندم

ما السبب الذي دعاه الى ذلك يا تُرى ؟ وما العلة التي قعدتْ بهِ عن الطيران في سماء الفضائل ، الى السفيف (١) عَلَى حضيض الرذائل، وحادتْ به عن سلوك الصراط المستقيم، الى المرتع الوخيم ؟

---

(١) سفَّ الطائر مرَّ عَلَى وجه الارض

— لو دققنا الفكر وامعنا النظر ، لرأينا أن السبب لذلك ، والعلة الكبرى لاقتحامهِ هذه المهالك ، هو حبّ الذات علَى غيروجههِ ، والاستئثار بالمنفعة دون غيره ، والانانية التي تصحبهُ من مهده الى قبره · وعن ذلك تنشأ سائر الرذائل الممقوتة ، والاخلاق المذمومة

حب الذات يطلق علَى معنيين : احدهما مذموم والآخر ممدوح مقبول معقول · اما الاول : فهو أن يميل إلى الاستبداد بالامر ، والامتناعِ بالمنفعة دون غيره ، و يبذلَ ما في وسعه وطاقته لسدّ ابواب الخير عن سواه ، وتضحيةِ المئات من منافع الخلق في سبيل خيرجزئي يعود له ، او نفعٍ قليل يرجع اليهِ · فحبُّ الذات بهذا المعنى رذيلة وحشية ، لاتصدر الا عمَّن فقَد الشعور الانسانيّ والمرحمة القلبية ، ولبس من الهمجية ثوباً طويلَ الاذيال ، واسعَ الاردان ، وكيف لايكون كذلك ؟ وهو القائل :

انما دُنيايَ نفسي فاذا ذهبتْ نفسي فلا عاش احدْ
ليتَ أَن الشمس بعدي غربت ثم لم تَطلُعْ علَى اهل البلد

ولا أُبالغ اذا قلت : ان اكثر الناس قد نهج هـذا الخلق السيء ، وخاض في تيار ذلك الامر الذي كاد يقضي علينا او قضى ، فنزع ما في قلوبنا من الحب والشعور ، فاستبدلنا الذي هو ادنى بالذي هو خير · ترى احدنا ان لاح له بارقٌ ولو خُلّباً ، او بصيصٌ من نور نفع وهمي ، سعى لذلك سعياً حثيثاً ، و إن أضرَّ بمجموع الامة التي هو عائش في بيئتها ، ومتمتع في بحبوحة خيرها :

يقول اذا ما كنت امرح في المنى

فما الناسُ عندي غيرَ حصبة صاحب

أَرشده فكره السافل ، ورأيهُ العاطل ، الى أَنَّ الاستئثار بالمنفعة خير له وأَبقى ، فجنى عَلَى نفسه وعَلَى غيره · لان ذلك داءٌ مُعدٍ ما سرى في أُمة من الأُمم الاَّ كان اقوى سبب لسقوطها ، وجعْلِها في أُخريات الناس في هذا المعترك الحيوي

إختبر حالة الناس اليومَ ، ونقّبْ عن افعالهم واعمالهم ، ترَ أَنهم يغتنمون الفرص ، ويطلون الوسائل بمغناطيس الحيل ، وكهرباء المداهنة ، لجذب المنافع اليهم ، ودفعها أَنْ تُنيخَ بباب غيرهم · بل هناك داهية اعظم ونكباء اشد ، وهو أَنَّ كثيراً منَّا ، لغاية نفسيَّةٍ خبيثة كمنت في فوآده كمون النار في صلد الزناد ، يسعى لإِفساد ذات البين ، وإِيقاع ذات البين ، والتفريق بين الاخوين ، وإِلقاء الناس في التهلكة ، وجرّ المصائب والويلات عليهم · وماله بذلك من فائدة ، ولا يناله من عائدة ، بل لانهُ حنق عليه مرة في عمره ، او اصابه منه اذًى ولولا يُعبأُ به · ولا أُبرّيء كثيراً منا من هذه الوصمة · فانَّ البعض اذا حصل بينه وبين احد نفورٌ ما تراه يزوّر القول ويختلق الاكاذيب ، لإِثبات ذنب عَلَى من بينهُ وبينه حزازة او نفور ، تشفّياً منه وانتقاماً ، ولكنَّ الحق لايخفى ولو سُتر باسجاف الباطل الكثيفة ، وستائر الوهميات الغليظة ، فلا يلبث ان يزول هذا الغطاء ، وينهتك ذاك الرين ، فتبدو الحقيقة بأَجلى مظاهرها ، وابهى حُليّها وحُلَلِها

نعم هذه حالة الناس اليوم : كلٌّ يجرُّ النار الى قرصه ، ويطلب الماء

الى غرسه . ولو علموا ما في الأَثَرَة بذلك من الضرر المبين ، لأَقلعوا عنه تائبين . ومع ذلك فهم يظهرون خلاف ما يبطنون ، و يقولون مالا يفعلون

وأمّا حبّ الذات بالمعنى الثاني : فهو أَن يسعى المرء لما يعود عليه بالنفع ، بشرط ان لا يُلحق بغيره ضرراً . فهو بهذا المعنى ممدوح مطلوب ، بل فضيلة عليها قِوام أمرِ المدنية وعمارة هذا الكون ، اذ من المحال ان يعمل احدٌ عملاً لا ترجع له منه فائدة دنيوية او أُخروية . ولو أنَّ هذه الفائدة امرٌ وهمي ، يخرج من الافواه ، فيحمل عَلَى اجنحة الهواء ، فيطير في الفضاء ، كالمدح والثناء

اتظن أنَّ اصحاب هذه المعامل العظيمة ، والاختراعات الجسيمة ، لولا حبّهم لذاتهم ، هل اتوا بغرائب هذه المدنية التي نشاهدها بأبصارنا ، ونحكم باستحسانها إجمالاً ببصيرتنا ؟ . وهل كنا قد رأينا البواخر تمخر عُباب البحار ، تنقلُ ما عليها من الاثقال والسُّفَّار ، الى بلدٍ لم يكونوا بالغيه الا بشق الانفس ؟ . وهل كنا قد أبصرنا القطار ، يقطع السهوب والقفار ؟ ، قد اتخذ سبيله في البر سهلاً وسَرَباً ، فأرانا امراً عجباً ، فإن أردته وقد أُطلق له العنان ، فلن تستطيع له طلبا . تارةً يصوّب وطوراً يُصعّد ، وأُخرى يبدي زفيراً وشهيقاً ، وآونةً يبكي لهفةً مشوقاً ، وآناً تستولي عليهِ الدّعة والخمول ، فيخلُدُ الى السكون وقطعِ العويل . يسير الى حيث يُراد به لا كما هو يريد ، وهذا هو شأن المشتاق العميد :

وما هو الا كالمشوق حدا به غرامٌ أَثارته جنوبُ الحبائب
وهذي بخارات الجوى ودخانهُ ونيرانهُ في الصدر تحت الترائب

أُراني قد جُذبت بعامل التصور ، وسرحت في عالم الخيال ، فأستجديكم

ايها القراء عذراً ·

نعم، ولولا حبُّ الذات لما قام لدينٍ قائمة ، بل ولا عُبدالله في ارضهِ ، ولا سمعت للكرام اُسماً ، ولا رأيت للشجاعة والمروءة رسماً ، · فلو أَن حاتماً وعنترة والسموأل ، لم يكونوا ممن يحبون انفسهم ، بل ممن هم كَلِفون بمحبتها ، لما أَلبسوا ارواحهم ثوباً من المدح لا يبلى ولو بلي الدهر وتاجاً تتمنى الثريا ان تكون في سمائه لولا حبُّ الذات وبقاء الذكر المخلَّد المسطر عَلَى صفحات الكون ، لما دعت الاولَ نفسُهُ الى أَن يجود بها في بعض الاحايين ، ولما خاض الثاني المعامع ، ورغب في عناق الاسمر الخطَّار ، ومصاحبةِ الابيض البتَّار ، غيرَ مبالٍ بالكوارث ، ولا مهتمٍّ بالحوادث ، يستضيء بسيفهِ إن أَظلم الليل ، و يستصبح بسنان رمحه إن اُختلطت حنادس الخطوب بظلمات الليل · ولولا حبُّ الذات ، وطيِّب المدح ، وعظمة الفخر ، لَمَا جاد ثالثهم بولده وفلذة كبده ، وآثر حبَّ الشهرة والتقريظ عَلَى روح وُلده · وما كان لو سلَّم تلك الدروع ، لولا ما قدَّمناه من حبهِ لذاتهِ ، ليقال إنه امين ، صرف دون حفظِ ما اُؤْتمُن روحَ نجله ·

وهناك قوم ليسوا في العير ولا النفير ، فسَّروا حب الذات عَلَى غير الوجه الذي فسره بهِ اصحاب الرأْي الاول والثاني ، فادَّى بهم حبُّهم لذاتهم أَن تعالَوْا عَلَى ابناء جنسهم ، واحتقروا من سواهم · فظنوا أَن الله لم يخلق غيرهم ، وأَنَّ ما عداهم خيالات واوهام ، او حيوانات عجم لا يستحقون الاكرام ، فهم كالأَنعام ، او عبيد لهم والسلام · وحسبوا أنهم بذلك محبون لذاتهم مكرمون لها ، ولو علموا أَنهم بفعلهم هذا أَغضبوا الخالق والمخلوق ، بل لو دروْا أَن هذا ليس من حبِّ الذات في شيءٍ ، بل هو من بغضها

وكراهية الخير لها ، لأقلعوا عن ذلك ، ورجعوا عن العبور في هذه المسالك ، التي توصل الى المهالك

مَنْ كان هذا دأبه مع ابناء جنسه ، وتلك فعلته بمن هو منهم ، فقد فتح لهم طريقاً ليسلكوا في هجوه والقدح فيه ، ويُتبعوه الاحتقار حيث مال ، والنفور منه في الحلّ والترحال ، وهو غافل عن افعالهم ، يظن لفرط جهله وانانيته وعجبه بنفسه ، أن كلامهم كلّه مدح ، وفعلهم جلّه تعظيم وتبجيل

يظن هذا الجاهل العَبام ، ومن هو عَلَى شاكلتهِ من الطَّغام ، أنَّ هذا من باب تكريم النفس ، فمن اتصف به فهو ذو نفس أَبية ، وربما ينشد : «ومن لا يكرّمْ نفسه لا يكرَّم » ويفسره بمعنى الترُّفع عن الناس والتكبر عليهم واحتقارهم : إمَّا ليخافوا بأْسه وشدته ، او ليخضعوا لجاهه وثروته . لا يوقّر كبيراً لسنه ، ولا عالمًا لفضله ، ولا يرحم صغيراً لضعف مُنَّته

حُكيَ أَنَّ مطرف بن عبد ٱلله ابن الشخّير نظر إلى المهلَّب بن ابي صفرة ، وعليه حلّة يسحبها ويمشي الخُيَلاء ، فقال : يا ابا عبد ٱلله ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله ؟ فقال المهلب : اما تعرفني ؟ فقال : بل اعرفك . . اوَّلُكَ نطفةٌ مذِرَة ، وآخرك جيفة قذرة ، وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة . فأخذ ابن عوف هذا الكلام فنظمه شعراً فقال :

عجبتُ من مُعجَبٍ بصورته وكان بالامس نطفة مذره
وفي غدٍ بعد حسن صورته يصير في اللحد جيفة قذره
وهو عَلَى تيهِهِ ونخوتهِ ما بين ثوبيْه يحمل العذره

وكان المهلبُ أَفضلَ من أَن يخدع نفسه بهذا الجواب الغير الصواب ،

ولكنها زلّة من زلّات الاسترسال ، وخطيئة من خطايا الإدلال

وشواهد ذلك كثيرة بيننا اليوم ، فأدِرْ طرفك في هذا العالم ، واُختصّ بهذا الحكم بني آدم ، ترَ صدق النتيجات ، من هذه المقدمات ، يفعلون كلّ ذلك اعتماداً علَى انه من باب تكريم النفس والإباء . ألَم يدرِ هؤلاء المعجبون بانفسهم أنَّ معنى تكريم النفس ، هو ان يحملها علَى معالي الامور ، ويجهدها للصبر تحت أعباء المجد ، و يسدي الجميل إلى الناس ، ويُغضي عن زلاتهم مع القدرة عَلَى الانتقام . وأن يبذل جهده وطاقته دون إيصال الخير اليهم ، ودفعِ المضرة عنهم

هذا معنى حب الذات وتكريم النفس . فإن فعل ذلك فقد اُستحقّ الإكرام منهم ، ورفعَ المنزلة بينهم ، وأن تكون له الكلمة العليا ، والامر النافذ يقومون ان قام ، ويقعدون ان قعد :

ومن يجعلِ المعروفَ من دون عرضهِ يَفِرْهُ ومن لا يتقِ الشتمَ يُشتمِ
ومن يكُ ذا فضل فيبخلْ بفضله علَى قومهِ يُستغنَ عنه ويُذمم
ومن يُوفِ لا يُذمَمْ ومن يُهدَ قلبه إلى مطمئنّ البر لا يتجمجم

وان فعل غير ذلك فقد أساءَ إلى نفسه و بني جنسه . ويكون قد اضرّ بنفسه من حيث لا يشعر ، وجنى عليها من حيث لا يدري . فيكون « كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً [1] » هذا ان كانَ له غزل ، وقدّم بين يديْ سيئاتهِ حسنات

محب الذات بهذا المعنى ايضاً سافل ، ساقط المروءة والدين ، ناقص

(١) الانكاث : الأنبسة البالية التي تنقض لتُغزل ثانية ومفردها نِكْث

العقل ، مفتون بالرذيلة · بل هو عين الإعجاب الذي انكره الله والعقلاء ، وشدّد الوعيد على من تردّى بردائه ، كما جاء في الحديث القدسي : «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما قصمته » وكما جاء في حديث آخر : « ثلاث مهلكات شحّ مُطاع ، وهوًى مُتّبع ، وإعجاب المرء بنفسه» والآيات في ذلك كثيرة نكتفي منها بقوله تعالى « ولا تمشِ في الارض مَرَحاً ، إنك لن تَخرُقَ الارضَ ولن تبلغَ الجبالَ طولاً » «ولا تُصعّر خدّك للناس ولا تمشِ في الارض مَرَحاً ، إنّ الله لا يحب كل مختال فخور · واقصد في مشيك ، وأغضض من صوتك ، إن انكر الاصوات لصوت الحمير »

وما الاباء الذي يفسرونه الا عجب وكبر ، وجرٌّ لذيول الفخر الباطل ، والمجد الوهمي ، فيمثّلون نقيصة الاعجاب ، تحت ستائر الامتناع عن الضيم ، وأسمِ الإباء المحمود · واما الإباء والامتناع عن الضيم ، إلاّ ان تلبس مطارف الفضيلة ، وتنزعَ ثوب الرذيلة ، وتتبعَ الحقّ اينما كان ، وتُذلَّ النفس في طلب الكمال ، وتُهينها تحت عبء المجد ، لتنال بذلك عزة الابد وفخار الامد · ولا اقصد بتذليل النفس وإهانتها ان يكون الانسان خاضعاً تحت نير الأغيار · يُصفع فلا يعتبر ، ويُرشق بسهام الكلام فلا يدّكر · كلاَّ ، وانما هو الخضوع للحقيقة ، وتحمّلُ المشقات في سبيل المكرمات ، غير مبالٍ بما يعترضه من العقبات ، ولا عابئٍ بما يحول بينهُ وبين القصد من المخوفات

هذا هو حب الذات ، وهذه هي فضيلته ورذيلته ، فأُعيذ قومي بالله ان يكونوا مع مَن فسروه علَى غير وجهه ، ولم يدركوا حقيقة كنهه

أَحِبُّوا انفسكم واسعوا لمنفعة ذواتكم، وترفَّعوا عن النقائص وقرين السوء، لكن لا تدَعوا لإبليس بغضِ الغير والضررِ بهم سبيلاً يجوزه، ولا لوساوس النفس الأمَّارة بالسوء طريقاً تعبره، فتأمركم باحتقار سواكم، والترفُّع عن ابناء جنسكم، اللهم الا ان يكونوا ممن عُرفوا بنقص الدين والعقل، وفساد الأَعراق، والميـل لمنكرات الاخلاق . ومع ذلك فلا ينبغي احتقارهم والازدراء بهم لأَنفسهم . بل إنَّ الترفع عن افعالهم، والابتعاد عن شائن اعمالهم، كافيان في احتقار ما هم فيهِ من فاسد احوالهم

وايا كم ان تدعوا للعجب والكبرياء عَلَى عقولكم سلطاناً، فقد قال بعض الحكماء : «عجب المرء بنفسه احد حُسَّاد عقله» وأُعيذكم بالله ان تكونوا من الحاسدين

جدُّوا واجتهدوا وتقدموا . فقد كفانا ذلك الخمول الطويل، والسبات الذي كاد يُدعى بالدائم او دُعي، وحسبنا ذلك الانحطاط الذي جعلنا آخر الامم، بعد ان كنَّا القابضين عَلَى نواصي العلم، والجالسين عَلَى منصَّات الفضل . الينا يُرجع في المشكلات، وعلينا يُعتمد في المهمَّات، وبنا تُناط الصناعات، وفينا تحلُّ المكرمات . تركنا ذلك الهـديَ الواضح، والعقل الراجح، وملنا عن تلك المناهج الى هذا الجهل الفاضح . وسلكنا مفاوزَ مظلمةَ الارجاء، وطرقاً يضلُّ فيها الخِرِّيت (١) ونبذنا العلوم والفنون والصناعات، والاخلاق ومستحسن العادات، تقليداً للاهواء، وهوًى للتقليد . وما بهذا أُمرنا، ولا لذلك خلقنا . وقد حلَّ فينا من جراء ذلك

(١) الخرّيت : الدليل الحاذق

اعباءَ همٍّ من ثقال الاسى   لو حُمِّلتها الشمُّ لم تَستطِعِ
ولو بدت للشمس في أُفقها   ارزاؤنا الدهماءُ لم تسطَع
ولو رأتها الطير في وكرها   آمنةً عيَّت ولم تسجع

فلنطرح عنا تلك الاخلاق والعادات ، ولنتمسك بما يوصلنا إلى غاية الغايات ، ورفيع الدرجات . والاَّ فلا رقي ولا نجاح ، ولا صلاح ولا إصلاح . فسلام عَلَى من يسعى لإحياء الوطن بإبادة جراثيم الاخلاق الضارة ، ونشر العادات السليمة ، والعلم والتربية الصحيحة

رجال الاصلاح

اختلف الباحثون في احوال النوع الانساني من حيث جبلَّته عَلَى ثلاثة اقسام : قسم يعتقد انَّ الانسان مفطور عَلَى الشر و إرادة السوء ، وأَنه لا يكتسب الخير ولا يعتاده الا بعد عناء طويل يُصرف في تهذيبه وتعويده الفضائل . وقسم يعتقد أَنه مفطور عَلَى الخير والفضيلة ، وانما يصرفه عنهما دواعي السوء واسباب الشر . وقسم يقول : انهُ خُلق غيرَ ميَّالٍ إلى الخير ولا إلى الشر، بل هو مستعد لهما معاً ، فإن وجد له اسباب تدفعه الى الفضيلة ، وتصدف بهِ عن الرذيلة، فهو ذاك ، والعكس بالعكس

وعَلَى كل حال ، فهم و إن اختلفوا في المبدإ ، فهم متفقون عَلَى أَنَّ

الانسان تؤثر فيه التربية والوعظ والارشاد لما فيهِ سعادتهُ في الدارين · فان أُهمل وشأنه يصدأُ فكره وتعلو بصيرته غشاوة ، وتغلب عليهِ الاخلاق السافلة ، وتأسره الرذائل · وان هُذّب ورُبي التربيةَ الحق ، وتعهّده الواعظون والمصلحون بالارشاد الى السبيل القويمة ، والطريق السّوى ، فذلك ينزع ما فيه من فساد ، ويربأُ به ان يسير في غير منهج السداد

وإني مع القوم القائلين بأنّ المرء مفطور عَلَى الفضيلة · وذلك أَنّ النفس التي أُودعها الله سبحانهُ في الانسان هي من جوهر صافٍ نقي ، لأنها هبطت الى هذا الهيكل الانساني من مكان مقدس رفيع ، ليس فيهِ سوءٌ ولا رذيلة · وانما يكتسبهما من البيئة التي يوجد فيها ، كما أَنه يزداد لطافة وطهارة من بيئته ان كان اهلها من الاصفياء الاطهار · فالنفس كالبلور النقي الشفاف يبقى محفوظاً من الدنس والاوساخ ان مُنع عنهُ الغبار والطوارئُ التي تزيل بهجته وصفاءه · ويزداد صفاءً ورونقاً ان زِيد عَلَى ذلك تعهّده بالصّقل والتنظيف · ثم إنهُ يعدم تلك البهجة وذلك الصفاء ، ان تُرك عرضةً لكل طارئٍ يطرأُ عليهِ ، وربما تأتيهِ صدمة شديدة تُحطّمهُ تحطيماً

اذا ثبت هذا وأن جبلّة الانسان — عَلَى اختلاف الآراء فيها — تفسد بالاهمال وفساد البيئة ، وتصلح وتترقى بالارشاد والوعظ والنصائح ، فلا بدّ ان يكون في كل أُمة قوم يقفون حياتهم ، ويبذلون جهدهم لإصلاح الفاسدين ، وزيادة خير الخيّرين · واولئك القوم هم الرجال المصلحون الذين ما وجدوا في أُمة الاّ كانوا سببَ رفعها من وهاد التدلّي الى اوج الترقي ، ووسيلةَ تقدمها وعلوّها بعد التأخر والانحطاط

وبقدر عدد المصلحين في الامة يكون ترقيها و بلوغها مبلغ الحياة العالية، والمدنية الراقية ، و بنسبة قلتهم يكون تأخرها وتقهقرها . لذلك يجب السعي الحثيث وراء تخريج رجال عظماء ، يعرفون الداء وموضعه ، فيعملون على ملاشاته وتطهير جسم الامة والمجتمع منه.

المصلحون اقسام : قسم يبذل الجهد لتنقية الامة مما الم بها من الامراض، لالغاية يسعى وراءها ، ولا لمصلحة يتطلبها . واولئك هم الذين يرجى منهم النفع الصحيح ، وعليهم تعلق الآمال بترقية الشعب والنهوض به من كبوته الى صهوة النجاح . وهذا القسم قليل في كل امة . وهو على قلته يفعل ما لاتفعله الكثرة التي مزجت غايتها بالاصلاح . وبهذه القلة نالت الامم حريتها ، ووصلت الى ما ترجوه وتطلبه من المدنية والرقي ، وقد تفعل القلة ما لا تفعل الكثرة

وقسم يريد الخير ولكنه جاهل طريق الاصلاح ، وقد يكون ضرره اكثر من نفعه ، وهؤلاء كثيرون في الامة . وأغرب من ذلك أن اكثرهم يدعي المعرفة والمقدرة على العمل ، ودماغه أفرغ من فؤاد أم موسى ، غير أنه يغش العامة بهذه الدعوى ، ويتسلط على عقولهم ، فينقادون اليه صاغرين ، فيسير بهم الى هوة الجهل ، ويركبهم متون الغباوة والخسران

وقسم قادر على الاصلاح ، وعارف وجوه الخلل والاسباب المحطة بالامة الى الدرك الاسفل ، غير انه لا يريد خيرها ، ولا كشف رين الجهالة عن قلبها ، ولا ازالة برقع الاوهام عن بصائرها وأبصارها . وذلك لأن في خيرها اضاعة مصلحة له على زعمه ، كضعف سلطته ، وذهاب أبهته

وعظمته ، لأن العلم والاستبداد لايجتمعان · فهو يسعى لابقاء الامة في ليلٍ من الجهالة بهيم ، كيلا تتنبه اذا عرفت الواجب وما لها من الحقوق،فيتساوى معها ، والظالم يبغض المساواة ؟ وذلك كان شأن رؤساءنا في الدور الماضي البائد ، ونرجو ان لا يكون رجال اليوم كرجال الامس

وهناك قسم ليس في العير ولا النفير : فهو يعرف من اين تُؤكل الكتف ، وكيف يكون الاصلاح ، فيحشر نفسه في زمرة المصلحين ويُظهر للناس أَنه من اكابرهم وخيارهم ، غير أَنه لايقصد من وصف نفسه بذلك الاَّ مأرباً يسعى وراءه ، وغاية يقصد اليها ، فهو يلبس رداء الاصلاح ،ونفسه عدوَّة له · وقد يقصد الاصلاح والنفع الذاتي معاً ، لكن الاصلاح متى مُزج بنفع الذات يكون ضئيلاً قليل الفائدة · وكثيراً ما يتغلَّب طلب النفع للنفس عَلَى الاصلاح ، وربما كانت النتيجة شرًّا بحتاً

نحن اليوم في حاجة شديدة الى الاصلاح ، ليبقى الدستور معزَّزاً سالماً من كل طاريءٍ ، ولكن

من المطالب بالاصلاح ؟

— المطالبون بالاصلاح خمسة :

رجال الدين : وهؤلاء عليهم ان يقوموا بوعظ الشعب والنصح له ، وإِفهامه واجباته نحو الخالق والمخلوق والحكومة ، وتهذيبه تهذيباً شريفاً عالياً ،

وتعليمه الدين كما أُنزل : خالياً من كل بدعة وخرافة · فمتى قاموا بهذا الواجب تجلَّى سلطان الدين علَى قلوب العامة ، وصرفهم عن الشر الى الخير ، وجعلهم ينقادون لما فيه خيرهم وسعادتهم · غير ان علماء الاديان قعدوا عن هذا الفرض ، وأهملوا الوعظ والارشاد ، فحاق بالامة العثمانية ما نحن مشاهدوه من الفوضى والتأخر وعدم سلوك الصراط المستقيم

ورجال المال : وهؤلاء عليهم ان يمدوا يد المساعدة لافتتاح المدارس و إنشاء المعامل والمصانع ، وتشييد صروح عالية للصناعات الوطنية · ومتى تمَّ لنا ذلك بقيت اموال البلاد محفوظة فيها ، فنستغني اذ ذاك عن الاجانب الذين يبتزُّون اموالنا بل دماءنا ، ونحن عن ذلك ساهون لاهون ·

نحن في حاجة شديدة الى المال لانَّ به نوال كل مرغوب ، وتحصيلَ ما فقدنا من المدنية والتقدم · وهو الذي يعيننا على افتتاح المعامل ، و إنشاء المدرَّعات ، و إحياء مدنية اسلافنا الكرام ، التي بنوها بجدهم واجتهادهم وسعيهم وراء تحصيل العلوم والمعارف وتعلُّم الصناعات

واصحاب الجرائد والاقلام : وهؤلاء عليهم ان يتجرَّدوا عن كل غاية سافلة ، ويتنحوا عن ذكر ما يوقع الامة في الاختلاف والتفريق ، او يجلب عليها هواجس وافكاراً سيئة — وهي في حاجة الى ما يطمئن بالها ويسكن جأشها — وعليهم ان لايذكروا الا ما كان خبراً يغلب عليه الصدق ، او مقالاً يفيد الامة ، ويبعث فيها روح الجد والسعي الى ماينهض بها من كبوتها ، ويُقيلها من عثرتها · فرجال الاقلام هم قادة الشعب ، فإن أَحسنوا القيادة ، أَوصلوه الى الغاية الحسنة والعاقبة الحميدة · وان أساؤها كانت عاقبتهُ

الاضمحلال والدمار ، وغايته السوء وخراب الديار · وقد كنا نظن أن صحافتنا تنهج منهجاً حسناً بعد الانقلاب ، فاذا كثير من اربابها لم يقصدوا بانشائها الا غايةً غير مشكورة ، فلم يودعوا فيها الاما هو ضارٌّ بالامةوالوطن، ولم ينشروا الاَّ ما يتقاضون عليه الدنانير : كالرسائل المأجورة التي ملؤُها السفاهة والوقاحة والطعن في اعراض الناس والتشفيّ منهم · نعم انا لاأُنكر ان كثيراًممن يُطعن فيهم هم مستحقون لذلك ، بل لما هو اعظم منهُ · غير أَن طائفة من الصادقين في خدمة البلاد ، الذين لاذنب لهم الاَّ انهم احرار يبذلون جهدهم لتوطيد الدستور والانتصار للمظلوم وردع الظالم عن ظلمهِ ، قد جرَّتهم قافية اصحاب الامضاآت المكذوبة والرسائل المأجورة ، فاُختلط الحابل بالنابل والبريء بالمجرم · فاتقوا الله يا ارباب الاقلام ! وتفكَّروا يا اصحاب الجرائد ! ولاتدعوا الاصفر الرنان يسيطرعليكم فتنشروا الاكاذيب والمطاعن الشخصية · فاتقوا الله في هذه الامة ، وخذوا بايديها الى ما يفيدها، وانشروا لها ما ينهض بها فانكم رُعاةٌ لها ، « وكل راع مسئول عن رعيته »

ورجال الحكومة : وهؤلاء هم روح البلاد وملح الامة · فمتى فسدوا فسدت الامة وتأخرت البلاد · ومن وظائفهم حفظ الامن ورقابةالمفسدين والاشقياء ، وإحقاق الحق وإبطال الباطل ، والانتصاف للمظلوم من الظالم ، وغير ذلك مما يجعل البلاد واهلها سعداء · وكل هذه الصفات التي يجب علَى الحاكم ان يتصف بها كانت مفقودة في الدور الماضي ، لذلك اصبحت البلاد خلاءً من الرجال العظام ، وصارت الصناعات اثراً بعد عين ، واُستفحل الظلم واستأسدت الرشوة · وإن ما نراه اليوم بعدان نشر الدستور

لواءه ، من المظالم والفوضى هو اثر من آثار ذلك الدور · وان حكم الاستمرار المعروف عند علماء الطبيعة لم يزل جارياً · غير أنَّ التيار لابدَّ ان ينتهي عند حدّ ، بشرط ان نقاومه ونبطش باهله ، ونبّين نقائصهم ، حتى يعتدلوا او يعتزلوا · واما ان تركناهم وشأنهم فيزداد التيار ، ويطّرد حكم الاستمرار ، ويرجع الامر الى ما كان عليهِ

يشكو كثير من الناس بل كلهم من ازدياد الفوضى والظلم والرشوة ومخالفة الحكّام لاحكام القوانين · وإنهم محقون في ذلك ، لان فئاتٍ من رجال الحكومة في الدور الماضي لم يزالوا رجال الحكومة في الدور الحالي · وهؤلاء قد اعتادوا الظلم والرشوة والاستبداد ، حتى تأصَّل ذلك في نفوسهم ، وصار خلقاً من اخلاقهم · فمهما عوَّدوا نفوسهم الاقلاع عنه ، فلا بدَّ أَنهم يميلون بحكم القسر الى ما تعوَّدوه · وكان يجب عزلهم واستبدال غيرهم بهم

نعم ، انا لا انكر ان بين هؤلاء رجالاً احراراً صادقين في خدمة الوطن · وهذا لا ينكره الاَّ من استولى التعصب عَلَى قلبه حتى ران عليه · وهذا قد شاهدته في مدينتنا (بيروت) يوم كان الاستبداد ضارباً اطنابه ، والجواسيس كالجراد المنتشر ، تنقّب عن الاحرار ورجال النهضة · فان هذه الطائفة القليلة لم تكن تجاري رجال الدور الماضي على اعمالهم المنكرة · بل كانت تبذل كلَّ الجهد لتخليص الاحرار من مخالب الجواسيس والمستبدين · واني اتكلم عن مشاهدة واختبار · وقد جرى لي كثير من المحن الاستبدادية التي سبّبها الجواسيس اللئام ، فقاموا بناصري وعملوا عَلَى تمزيق التقارير بعد ان كان الخطر قاب قوسين او ادنى · ولا بدَّ ان يكون في كل بلدة من بلاد الدولة رجال

قلائل من الحكام، هم علَى شاكلة هؤلاء الكرام

يارجال الحكومة أصلحوا انفسكم، وعوّدوها العملَ بالقانون، قبل ان يأْتيكم يوم لاينفع فيه مال ولا بنون، الا من كان مخلصاً في اعماله، جارياً في سنن العدل، سالكاً سبيل الحق، ونصرة العدل بين الرعية. ولا تظنوا ان هذه الفوضى تدوم، فما هي الا سحابة صيف عن قليل تقشّع. وما هي الاّ لازمة من لوازم الانقلابات، ثم تضمحل وتذهب «فأمّا الزبد فيذهب جُفاءً، واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض»

والقسم الخامس من رجال الاصلاح هم رجال دار النّدوة الذين انتخبتهم الأُمة لينوبوا عنها بما يلزمها من الاصلاحات، وما تحتاج اليه مما يرقى بها في مدارج المدنية. وهؤلاء عليهم سنُّ الانظمة والقوانين التي تعود علَى الأُمة والبلاد بالخير. غير أننا نرى بعضهم أَضاع ثقة الأُمة به، وعمل بما يخالف مقصدها، واضاع وقتــه الثمين بالسكوت، او بالكلام الذي لاطائل تحته ولا نتيجة

مجلس الامة عليه قوام حياة البلاد، وسعادة العباد. فهو يحتاج الى اتفاق اعضاءه واتحادهم ليعملوا عملاً يفيد الوطن. وإنَّ مجلسنا النيابي هو اشدُّ احتياجاً الى الاتحاد والوئام من كل المجالس النيابية في العالم. لانه يضمُّ في ردهتهِ اعضاء مختلفي الاديان والمذاهب والاجناس، فان كان اهل كل جنس او دين ينظرون الى غيرهم نظر الاحتقار، ويناوئونهم في كل ما يطلبون — ولو كان وراءه نفع عظيم — فهناك ضياع الآمال

الامة اليوم كلها جسم واحد، فيجب ان يسعى النواب في كل ما يعود

علَى مجموعها بالخير ، من غير نظرٍ الى جنس او مذهب ، وان يساعد اهلُ كل جنسٍ الجنسَ الآخر فيما يطلب إن كان حقاً · فان بـذلك انهاضَ الامة ورقيَّها

· · · · · · ·

فعلى كل رجل من رجال الاصلاح ، ان يتجرَّد عن كل غاية ، ويسعى السعيَ الحثيث لمصلحة الوطن ، ويعملَ كل وسيلة لبترِ كل عضوٍ فاسد في مجتمع الأُمة العثمانية · والله لا يضيع اجر المحسنين

الارادة

اجتمع اعضاء مجلس شورى ولاية بيروت « المجلس العمومي » في دار كامل بك الاسعد · وكان بينهم السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الشهيرة · فاقترح عليه بعضهم ان يقوم فيهم خطيباً · فخطب خطبةً عمرانية مهمة ، ذكر فيها ما يجب علَى هذا المجلس اتباعه ، وكان فيما ذكَّرهم به وحثَّهم عليه كلامٌ موجزٌ مفيدٌ عن الارادة · قال :

ايها الاعضاء الكرام : ان هذا الغرض الذي تُطالَبون به عظيم ، ولكن قوَّة الارادة في الانسان تصغّر كلَّ عظيم ، وتسهل كلَّ عسير · فاذا وجَّهتم عزائمكم الى ذلك بالاخلاص ، فإنكم تصلون الى الغاية باذن الله :

وكلُّ من جدَّ في امرٍ يحاوله　　وأستعمل الصبرَ الاَّ فاز بالظفرِ

يرى بعض الفلاسفة أنَّ الانسان لايجزم إرادته بامر ممكن الاو ينفذ ، وكان الاستاذ الامام عَلَى هذا الرأي ، وقد قال لي غير مرة : انه لم يجزم ارادته بطلب شيء جزماً تاماً لاتردُّدَ فيه الا وحصل · وقد كان حكماء الصوفية عَلَى هذا الرأي ، وعبر عنه بعضهم بقوله : « ان لله عباداً اذا أرادوا اراد » اي اذا صحَّ توجُّه ارادتهم الى شيء تعلَّقت ارادة الله تعالى به ، وما تعلَّقت به ارادة الله نفذ حتماً · فعلى الانسان ان يعرف قيمة نعمة الإرادة فيوجّهها الى خدمة وطنه ، جازماً بأنه اهلٌ لأَن يرقيه ، وهو بهذا يكون اهلاً له ، مهما كانت معارفه · فإنَّ تفاضل الناس بالإرادة فوقَ تفاضلهم بالمعرفة · فما كلُّ عالمٍ ينفع ، وكلُّ من اراد ان ينفع فإنه ينفع عَلَى قدر استعداده ·

. . . .

ذلك ما قاله السيد الاستاذ الرشيد · وهو من خير ما قيل في هـذا الموضوع الجليل · و إنه عَلَى إيجازه واختصاره ، جمع المعاني السامية ، والآراء الصائبة · ولو عُمل به ، بل بجزءٍ منه ، لبلغنا الدرجة الرفيعة والغاية القصوى مما نتطلَّبه من الاصلاح ، وما نفكّر فيهِ من رفع الامة من تدهورها ، وسقوطها بين براثن الجهل ، ومخالب الاضمحلال

اجلْ : صدق الصوفيّ الحكيم بقوله ، « ان لله عباداً متى أَرادوا أَراد » فإنه صحيح معقول ، لايدفعه ولا ينفيه الا من ليس له معقول · وهـذا القول الحكيم مبنيٌّ عَلَى تلك القاعدة الجليلة الثابتة — نظام ربط الاسباب بالمسببات — وذلك أَنَّ الله امر الانسان بالعمل الذي هو سبب سعادته وروح حياته · ولا يكون عملٌ الاَّ بالنية والعزم والإرادة · والى هذا اشار

النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « انما الاعمال بالنيات ، وانما لكلّ أمريءٍ ما نوى » فمن أَحسن النية ، وتوجّه للعمل بقلب ثابت ، وإرادةٍ ناضجة ، فانّ ما أَراده من الاعمال كائن ألبتة ، ضرورةَ وجود المسبّب عند وجود السبب . فالرجال الذين يريد الله اذا أرادوا ، هم اولئك العظام ، اصحاب العزائم العظيمة ، والنفوس الكبيرة ، والهمم القعساء ، والارادة الشماء . اولئك الذين اذا نوَوْا امراً ، اوعزموا شيئاً ، توجّهت ارادتهم اليه ، وبذلوا مافي وسعهم دون تنفيذه وإجراءه . وحينئذ تتعلق ارادة الله سبحانه بأن يكون ما ارادوا ، لأَنهم بذلوا الجهد ، واستعملوا الاسباب التي ارشدهم اليها للحصول عَلَى ما يسعون وراءه . وحاشا لله ان يخيّب قوماً نهجوا المنهج القويم ، وأتعبوا النفوس ، وعملوا الاسباب الممكنة في سبيل تحقيق امانيهم وارادتهم

ولنا في الانقلاب الاخير اعظم عبرة واسطع برهان عَلَى هذا المدّعى : كلنا يعلم ما كانت تقاسيه الامة ، مما اصبحنا نسأم من ذكره ، لانه صار بديهيّاً لدى طبقات الناس كافة . فقد أُنشئت الجمعيات السرية للقيام ضدّ الحكومة الهالكة لإِبادة الظلم والاستعباد . ولكن لم يفز احد بما كان يريد ، لأَنه لم تكن هناك عزائم صادقة ، ونفوس فدائية ، ولا ارادة صحيحة تتوجه نحو دكّ معالم الجور والاستبداد . ولهذا لم ينالوا باديء الامر ما كانوا ينوونه من تخليص الامة وفكّ اغلالها وقيودها . غير أَنهم لم يفتروا ولم تكلّ عزائمهم ، ولم تضمحل نيتهم ، بل ظلوا مثابرين عَلَى ذلك ، الى ان كانت الارادة الناضجة التي ولّدت فيهم روح الفدائية والإقدام . فأَقدموا ، واراد الله ما أرادوا ، وكان ما كان مما عرفه الخاص والعام

ان توجّهَ الارادة في مخلّصي الوطن هو الذي أحدث هذه الامور العجيبة التي ادهشت العالم بأسره . ولولا الارادة والحزم لبقيت الأُمة في حالة الخمول والجور ، ولأصبحت الدولة في اسر العداة ولأمست البلاد نهباً مقسّماً

ربّ قوم يقولون : إنّا نرى كثيراً يريدون ان يفعلوا، غير أنهم لايجنون من ارادتهم سوى خيبة المسعى ، فلو أنّ الارادة تفعل ، لكان الناس في رخاءٍ وهناءٍ ، وسعادة وارتقاء .

— نقول ان هؤلاء القوم الذين تعنونهم ، هم احد رجلين : رجل ضعيف الارادة بليد الحزم ، فهو ان خطر له عملٌ ما يريد ان يعمله ، يكون بين الخوف والرجاء ، ويعتوره عاملا الاقدام والإحجام ، فتارة يريد ، ثم يعرض له فكر اماً صحيح او خطأ فيرجع عن ارادته ، فهو يقدّم رجلاً ويؤخر أخرى ، بين تلك العوامل التي تنتابهُ من كل الجهات ، فكأنه المعنيُّ بقول القائل :

فصرتُ كأني بين شقّين من عصا

حذارَ الردى او خيفة من زيالكِ

فأجدرْ بمن كان كذلك ان يقال عنه : انه لا أرادة له ، ومن لا إرادة له فهو عن العمل بمعزل . والرجل الثاني هو رجل صحيح العزم ، قويُّ الإِرادة ، غير أنهُ يقدم عَلَى العمل قبل اوانه ، ويريد ان يجني الثمرة قبل نضجها ، فلا ينتظر الشيء الى ابانّهُ ليقتطف فائدته . فعملهُ اذن عمل مبتسر « سابق اوانه » ومن اراد عملاً مبتسراً ، فهو كالرجل الاول من حيث انهما

يجتمعان في عدم نجاح عملهما وسقوطه

وهناك رجلٌ ثالث وهو وسط الرجلين ، ليس عنده تقلّب الاول ولا عجلة الثاني ، بل هو ثابت الجنان رابط الجأش ، لا تغيّره الحوادث ، ولا تنهنهه الكوارث ، يأخذ للامر عُدّته . ويهيئ له الاسباب ، ويتحيّن الفرص لإنفاذ ما يريد . فان رأى إنفاذَ الامر خيراً ، انفذه فكان ناجحاً فيه ، وان رأى تأخيره اولى ، أخره وترقَّب الاوانَ الذي يبدأ بتنفيذه فيه . ذلك الرجل ، هو صاحب الارادة الذي يعنيه السيد الرشيد في مقاله . ويريده ذلك الصوفي العظيم في عبارته . أمَّا التهور في الامور وإنفاذها قبل ان يأخذ المرء للشيء عتاده ، فهو من الخطإ والجهل باسباب بلوغ المراد :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزللُ

الأُمة العثمانية علَى جانب عظيم من الاستعداد للرقي والبلوغ الى مراتب المدنية والسعادة ، فأراضيها خصبة ، وعقولها سليمة ، ورجالها اكفاء . ولا ينقصهم الا إرادة صحيحة ، تبعث فيهم روح الإقدام ، وتُشعل شرارة العمل . فمتى قويت فيهم روح الارادة ، فإنك ترى منهم ما يدهش ويُعجب . ولكن أنىّ لنا برجال ذوي ارادة تدفعهم الى القيام بما يُنجح الوطن ، وينهض به من هذه الكبوة ، ويُنقذهم من تلك الهوة ، واكثر رجالنا قد شغلتهم انفسهم واغراضهم الذاتية عن النظر فيما ينفع الأُمة ويُقيلها عثرتها . فلو تجرَّد رجالنا الذين اودع الله فيهم الاستعداد لعظائم الامور عن الانانية ، وتفرغوا لما يفيد ، ووجَّهوا ارادتهم الى نفع بلادهم ، وصرفوها عن الشر ، لبلغنا ما بلغه سلفنا من التقدم وإخضاع أُمم الارض . بل كنا نبلغ اكثر مما بلغوا ، ونفعل اكثر

العلوم وإنشاء المعامل والمصانع ، والسعيُ الحثيث وراء كلّ امرٍ نافع ينهض بالوطن وبنيه

رب قائل : إن انفاذ الامر وايجاد العمل يتوقّفان علَى الارادة ، ولا إرادة عندنا ، فانت تطلب المستحيل

— اقول ان الارادة عندنا ثابتة ، غير اننا صرفناها الى ما يضرُّ ، لا إلى ما ينفع · والدليل علَى ذلك أن احدنا متى وجَّه عزيمته الى امرٍ من الامور السافلة ، فانه يبذل جهده وراء تحقيقه حتى يناله ، ولو تحت شفار السيوف وصليلها ، ورصاص المسدسات والبنادق · ونحن لانطلب من اصحاب الارادة والعلماء والاغنياء ان يصلوا الى هذا الحد من الخطر · وانما نطلب من العالم ان ينشر علمه ، ومن الغني ان يبذل ماله ، ويسعى الكل بإرادة واخلاص لتخليص الوطن من مخالب الجهل ، كما خلَّصه الجيش والاحرار من براثن الاستبداد والاستعباد

فليكن عندنا رجال ارادة وحزم وعزم ، يصرفونها في الخير ، حتى ننال المراد ، فان لله رجالاً اذا أرادوا أراد

الالقاب والرتب

الميل الى المجد ، والرغبة في الشرف ، والسعي وراء النفوذ ، خُلُق من اخلاق الانسان ، وشهوة من شهواته ، يضحي كل ما في وسعه للحصول عليها . وقد يؤدّي به ذلك الى إنفاذ ما لديه من المال ، ولو بقي صفرَ اليدين . او الى بذل دمه دون الوصول الى مبتغاه . وأمّا الذين لا يعبأون بهذا الامر ، فهم قوم صغار النفوس ، ضعاف الهمم ، خامدو العزيمة ، لا يستطيعون حيلةً يحتالون بها ، لينالوا ما يسعى اليه اصحاب النفوس الكبيرة ، والمدارك السامية ، والهمم القعساء . وان طُولبوا بان يسموا الى المجد ، ويجدّوا وراء العلى ، تعلّلوا بما هو معروف عنهم : من رغبتهم في الانقطاع عن مظاهر هذه الحياة ، وعدم الالتفات اليها ، وقولهم هذا — لو علمت — رياء ومداهنة ، وأحبولة يصطادون بها عقول السذّج من العامة . وهم لو كان عندهم عزيمة صارمة ، وهمة لا تعرف الملل ، لسعوا الى ذلك سعياً حثيثاً ، وحصلوا ما حصّل غيرهم . ولكنّ حبّ الراحة والميل الى الدعة والاخلاد الى الكسل — كل ذلك يدعوهم الى الاستكانة : فهم كمن

ظنّ دين الله في ترك الدُّنا ورأى الاعراض عنها انفعا
وهو لو جاءته منها بدرةٌ طلّق الدنيـا وعاف الورعا
فهو لا زهداً بها عنها نأى لكنِ الجِدُّ يُذيب الأضلُعا
خاف ان يسعى فيدمي رجله فرأى الراحة فيما صنعا

[illegible]

ان كثيراً ممن نالوا الرتب العالية ، والوسامات المرصّعة في الدور الماضي، لم يكن لهم عمل يستحقون عليه ذلك . ولو عوملوا بالعدل لما استحقوا الا الصفع على الرقاب ، واللطم على الوجوه ، والقصع على الرأس . غير ان بذل الاموال في تلك السبيل قد مهّد لهم الحصول على هذا الامر ، ليقال : فلان صاحب السعادة او العزة او الرفعة او العطوفة او الفضيلة او السماحة ، وليمشوا في ايام الاعياد بالألبسة المزركشة ، والنياشين المرصعة ، ليلفتوا اليهم الانظار ، فيتيهوا عجباً واستكباراً . أمّا جهلة العامة وضعفاء العقول من الخاصة ، فكانوا يغترّون بهذه المظاهر الوهمية ، وينحنون لاصحاب هاتيك الالبسة والوسامات إجلالاً . واما ارباب العقول الصحيحة فكانوا يسخرون من اولئك الاقوام ويضحكون من اعمالهم ، ويأسفون على تلك الاموال التي بذلوها للحصول على هذه الازياء والالقاب التي لا تسمن ولا تغني من جوع . كما أنّ الجميع بعد الدستور في الاستهزاء سواء

وا أسفاه على تلك الليرات التي اختلسها رجال الدور الماضي وتجارُ الالقاب والرتب من ضعفاء العقول الذين لايهمهم الا ان يقال لهم : «عطوفتكم سعادتكم سماحتكم فضيلتكم » ولا يروق لهم الا ان يخرجوا في الرسميات بحُلَلٍ زاهرات . . . .

وإني لأشدُّ اسفاً على الذين استدانوا الاموال واشتروا بها وساماً او رتبة ، وكثيرٌ منهم لم يخلصوا الى الآن من اعباء ذلك الدين الذي أثقل عاتقهم وأرهقهم عسراً .

ان اكثر من نال رتبة علية جاهل مركّب ، لايعرف للعلم معنى ، ولا

يدري للفنون مغزى ، و إنك لترى أنَّ العلماءَ العاملين لم ينالوا ما نال اولئك الجهلة من الرتب والالقاب ، لأنهم يحتقرونها شأن كل عاقل . ولو طلبوها فليس لديهم من النقود ما يرشون به الذين كانوا يبيعون الأُمة والدولة بالدرهم والدينار

وهكذا الشأن في اولئك المتموّلين الذين اشتروا الوسامات والمناقب بليراتهم ، واولئك الذين استدانوا الدنانير ورشوا بها الخائنين ، ليقال انهم من المقربين

اما وقد مضى زمن التمويه والتضليل ، ولم يبقَ افتخار الا بالعلم والعمل الصالح ، فقد رجعت الاشياءُ الى اصولها والمياه الى مجاريها ، فكل من حاز رتبة او وساماً وليس اهلاً لذلك ، فقد رجع الى اصله ، وتساوى ماضيه بحاضره ، و يومه بأَمسه

فلنسعَ جميعنا إلى طلب المجد والشرف الصحيحين من طُرقهما الشريفة ، ووسائلهما النبيلة ، وذلك بتحصيل العلم ، وانشاء المدارس والمعامل والعمل النافع . فانَّ هذا هو الفخار الحق ، والمجد الصحيح ، و « لمثل هذا فليعمل العاملون »

حديث مع النابتة

اذا اردت ان تستدلَّ عَلَى مستقبل أُمةٍ من الامم ، وتستعرف ماستؤُول اليه حالتها الاجتماعية والعمرانية والسياسية ، فابُحث عن اخلاق شبانها ، ونقّب عن احوال نابتتها، فتقتطف النتائج من هذه المقدمات . لأن نشء كل أُمة عنوان مستقبلها ومادَّة ترقيها ، فان رأيتَ نبتاً مهذَّباً ونشأً متعلماً ، فأبشر باتٍ حميد ومستقبل زاهر، وبشّرها بأن ستكون أُمة حية ، تنال طلباتها ، وتفوز برغباتها . وان وجدت شباناً جاهلين ، ونابتةً فاسدة الاخلاق ، سافلة المباديء ، فاقرأ عليها آية التأخر ، ثم أنذرها بالخراب ، وحقّق لها أن ستكون نهباً مقسَّماً ، تعبث بها ايدي اللاعبين ، حتى تكون عبرة للآخرين ، وتلك سنة الله في العالمين

تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، فقد حكم — وهو أحكم الحاكمين — أنَّ الارض يرثها عباده الصالحون، وينتزعها ممن لايقدرها قدرها، ولا يمشي في مناكبها مِشيةَ من يحسن استعمارها ، ويستورد خيراتها ، فالصالحون في هذا المقام هم من يعرفون كيف تؤكل الكتف ، ويدرون من اساليب العمران ما يؤهلهم لأن يكونوا ورثاء الارض

فالأُمة التي يكثر متعلموها والمهذبون من شبانها ، هي الامة التي ستكون وارثةَ الارض، والمالكةَ زمام استعمارها ، والقابضةَ عَلَى صولجان الامر والنهي فيها . والامة التي لاتكون كذلك ، ستكون قَيْدَ الذل ، وتبقى خادمة لغيرها

ممن هي اهلٌ للاستعمار وجديرةٌ بالحكم . والشواهد عَلَى ذلك اكثر مما يحصيه القلم ، و يحيط به البرهان

واني ارى في الأُمة العثمانية نوراً ضئيلاً ، يبشرنا بأن سيكونُ شمساً ساطعة ، يملأُ نورها المشارق والمغارب . وأُشاهد نهضةً مباركة ، ستسلك بها سبيل الرشاد ، وتوردها موارد السداد . فالهمة في نشر المعارف مبذولة في كثير من البلدان ، والساعون في هذا العمل المجيد — عَلَى قلة عددهم — باذلون من المجد اقصاه ، ومن الاجتهاد منتهاه . والامل أَن يُوفَّقوا الى مايقصدون اليه في اقرب مدة ، إذا امدَّهم الاغنياء ، وساعدهم العقلاء ، وسهَّلت الحكومة لهم السبيل

و إنَّ اعظم من تُطلب منهم المساعدة، اربابُ الثروة والغنى في كل قرية ومصر من البلدان العثمانية ، فان عَلَى المال المعوَّلَ في كل شأْن من الشؤُون ، ولا نرى اغنياءَنا الا فاعلين ان شاءَ الله

النهضة العثمانية مهما كانت عظيمة ، ومهما بلغت من التقدم ، فإنها لاتفي بالحاجة، اذا لم يكن في الامة قادة كبار متعلمون التعليم الراقي، وعارفون أُصول التربية والتعليم الحديثة ، وليس لدينا من هؤُلاءِ إلا النزر اليسير الذي لايقوم بجزءٍ مما نحتاج اليه . لذلك وجب عَلَى الأُمة ان تختار من ابنائها من هم اهلٌ فطنة و إقدام واخلاق شريفة ، وتقذف بهم إلى مدارس الغرب ، حيث ينالون منها قسطاً وافراً مما نحتاج اليه . ثم يرجعون الينا وقد ضربوا من العلوم والفنون وتطبيق العلم عَلَى العمل بسهام . عَلَى شرط ان يعودوا كما ذهبوا : من غير ان تؤَثر في نفوسهم عادات الغربيين واخلاقهم

التي لاتمتزج بعاداتنا واخلاقنا . فليس كل ما يأتية الغربي بنافع لنا . وربَّ عاداتٍ لأولئك القوم يعدُّونها من اصول المدنية ، ونعـدُّها من فساد الاخلاق ، والتوحش الذي لايطاق ، فان العادة تختلف حسناً وقبحاً باختلاف الأُمة والبيئة التي تقطنها

ان بعض من يرحل الى الغرب تؤثر في نفسه عادات اهله واخلاقهم وسياستهم . فاذا رجع إلى قومه ، اخذ يحدثهم بما رآه ، وربما استحسن كثيراً مما نراه مخالفاً لأَخلاقنا وعاداتنا وما فطرنا عليه من التعاليم الدينية . وبالطبع ليس ما استحسنه مما يجرُّ نفعاً ، او يدرأُ ضرراً ، وانما هو مما نراه مدعاةَ التهتك، ومجلبةَ فساد الاخلاق ، ويراه الغربيون من تتمة المدنية ولوازم المتمدنين . والسرُّ الذي يدعو بعض الراحلين الى الغرب الى استحسان ما قدَّمناه، هو أَنهم لم يتربوا منذ نشأتهم تربية شرقية ، ولم يتعوَّدوا الاخلاق الصحيحة ، ولم تُغرس في نفوسهم اغراس الدين ، حتى تكون طبيعةً من طبائعهم ، ولازمةً من لوازمهم . وهذا نقص كبير في مدارسنا وبيوتنا يجب ان يتنبه اليه الآباء والمعلمون . وربما سبَّب ذلك نفرة الناس ، وأضاع كثيراً من الفوائد التي نتوخّاها من الشبان الذين يهجرون ديارهم لتحصيل العلم

ان من نرسلهم الى الغرب ، لانرسلهم لاكتساب اخلاق لا تتفق مع عاداتنا الشرقية ، واخلاقنا الملية ، وانما نبعث بهم للعلم المجرّد واكتساب ما ينفعنا في حياتنا الدنيا لاغير . لأَن ما لدينا من الاخلاق العالية ، والعادات الشريفة ، هو خيرٌ لنا وانفع لبيئتنا ، ويجب ان نحتفظ به كل الاحتفاظ ، ونذود عن حياضه بكل قوانا ، لان الأُمة التي لا تحافظ عَلَى عاداتها

ولا تدافع عن اخلاقها ، لايمضي عليها حين من الدهر حتى تكون كأمس الدابر :

وانما الامم الاخلاقُ ما بقيت   فان هُمُ ذهبت اخلاقهم ذهبوا

وليس ذهابهم وأندثارهم هو محوَ مجموعهم المحسوس من لوح الوجود ، وانما هو اندماجهم في الأُمة التي يتخلقون باخلاقها ، ويستعيدون عاداتها . فذهابهم هو ذهاب قوميتهم بذهاب اخلاقهم ، واندثار لغتهم ، كما حصل لكثيرٍ من الامم التي داست عاداتها واخلاقها ، وتطوَّرت باطوار الامم المجاورة لها ، والتي تلقَّت العلم عنها ، او تزلَّفت اليها . وما ذلك الا لضعف الاخلاق فيها ، او لمرض الارادة التي هي سبب قوي لنهوض الامم . فاذا اراد الشبان الراحلون الى اوروبة ان يمحوا أُمتهم ويضيعوا قوميتهم ، فليكونوا كما يفعل البعض منهم . ولا نخالهم فاعلين ذلك . واذا احبوا ان يحفظوا أُمتهم ، ويبقوا قوميتهم ، فليذودوا عن اخلاقها ، وليدرأُوا عن عاداتها . ولا نظنهم إلاَّ فاعلين ان شاء الله

إنَّا نشاهد الاجانب الذين يأتون بلادنا سائحين او مستوطنين ، محافظين كلَّ المحافظة عَلَى عاداتهم واخلاقهم ، مفتخرين بالمحافظة عليها . ولذلك نراهم مهما قطنوا بلادنا ، أُولي حفاظ شديد عَلَى ما تربوا عليه . بل نراهم عاملين بكل قواهم عَلَى نشر مبادئهم واخلاقهم بين اهل بلادنا

نحن لانطلب الآن من شباننا ان ينشروا عاداتنا واخلاقنا بين القوم الذين يتلقَّون عنهم العلم . بل غاية ما نطلبه منهم ان يظلوا محافظين عَلَى اخلاق قومهم ، وأن يرجعوا اليهم كما ذهبوا ، حتى يمكنهم الاختلاط بهم ، وبثُّ المبادىء العالية والعلم الصحيح فيهم . والشرط كلُّ الشرط ان لايروا

٦

صحيح ، وغيرة على الدين عظيمة · لكنه منتقد بعض ما لا دخل له في الدين ، وليس من اصوله ولا صحيح فروعه · اعني انه يتهكم على ما أحدثه المبتدعة من الخرافات والبدع ، وقالوا : هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً الا ساء ما يعملون · فاذا سمعه العامة يظنون أنه يطعن في الدين ، وما طعنه الا في الزوائد التي ليست من الدين في شيء ، بل هي مما يجب على مصلحي العلماء ان يسعوا وراء إزالته ومحوه ، حتى يبقى الدين خالصاً من كل شائبة ، نقياً من جميع الادران

نعم ليس عندي شك بان اللهجة التي يستعملونها في انتقاد البدع شديدة تنفر السامع ، وتدع في نفسه الشك من حال المنتقد · فلو استعملوا التؤدة في اظهار الحقيقة ، وترووا في الانتقاد ، واستشهدوا على مدعاهم بما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة ، لأذعن الخصم إذعاناً ، وبهذه الوسيلة لا يتركون في نفس المنتقد عليه شبهة ولا خاطرة تمر في ذهنه فتثير فيه التعصب الذي يحمله على سوء الظن بمن يجادله

وربما تهاون بعض النابتة ببعض الفروض الدينية ، لا عن كفر ولا إلحاد ، وانما الداعي الى ذلك الكسل ، فيرميهم بعض الجهلة بالإلحاد ، ويتهمهم بالمروق من الدين · ومن الغريب ان كثيراً من هؤلاء الذين ينسبون إلى غيرهم الكفر لتهاونه في بعض الاعمال ، هم انفسهم متهاونون بها او بأعظم منها

فلو لم يتهاون بعض النشء ببعض الاعمال الدينية ، بل ثابروا على اداءها وواظبوا على الإتيان بها ، لقطعوا بذلك السنة الخراصين الذين يقولون انهم كفار او ملحدون من جراء ترك بعض الفروض

أجل، ربما وجد افراد لا يعبأ بهم ، قد فسدت عقيدتهم ، فهم يهرفون بما لا يعرفون ، و يتطوحون بالكلام الفارغ الذي لا يفيد الا النفور ولا يجدي غير تفرّق الكلمة . ولو سألت هؤلاء ان يبينوا لك موضعاً واحداً من النقد ، لما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، لانهم مقلّدون لم يدرسوا من اصول الدين ولا فروعه شيئاً ، وانما قرأوا في بعض كتب الملحدين من الاوربيين ومن نحا نحوهم ، فعلقت في نفوسهم شُبَهٌ مما قرأوه ، لأنها أتتهم وقد الفتْ في قلوبهم متسعاً ، فضربت اطنابها . فلو أنّ هؤلاء درسوا من الدين ما يكفيهم مؤونة ما يَرِدُ عليهم من الشُّبه والاعتراضات ، لأحسنوا صنعاً

ان هؤلاء المقلدين هم اعداء العلم ، اعداء ترقية الامة ، وان كانوا يزعمون أنهم من انصار المعارف . وربما عجبوا من هذه النسبة اليهم لأنهم تملّصوا من الدين لاجل العلم بزعمهم . فاقول لهم لا تعجبوا ومتى ظهر السبب بطل العجب:

انكم باظهار فساد عقيدتكم ، وتظاهركم بما ينافي الدين ، تنفّرون الناس منكم ومن العلم . لأنهم يظنون أنّ الذي أفسدكم هو العلم ، كما صرح بذلك كثير من الناس . ومتى رسخت هذه العقيدة في النفوس كانت حائلاً عظيماً دون إرسال القوم اولادهم الى المدارس العالية ، لانهم يفضّلون ان يبقى اولادهم ناقصي العلم ، علَى ان يكونوا ناقصي الدين . وهذه جناية كبيرة علَى العلم والدين ، سببها تهوّر البعض ، وتظاهرُهُ بعدم التدين ، تقليداً لملحدي اوربا ، ليقال انه غير مقيَّد ، وما هو الا مقلّد مقيَّد ، يقول ما لا يعلم ، ويدين بما لا يقوم عليه برهان صحيح ، ولا دليل رجيح

انا اعرف رجلاً متديناً منوَّر الفكر ، له ثلاثة اولاد قد قذف بهم الى

المدارس العالية ، وهو يتكبّد مصرفات عظيمة ، فضلاً عن تحمّله آلام البعد عنهم . وقد سمعته منذ مدة يقول : يترجح عندي ان لا أُرسلهم بعد الآن الى المدارس ، بل سأرمي بهم الى المزارع . فسألته عن السبب فقال : خيرٌ لي ان يبقوا متدينين متمسكين بعقائدهم ، من ان يكونوا فلاسفة علماء ، وليسوا عَلَى شيء من الدين ، كما نشاهد بعض المتعلمين كذلك . فقلت له : يا هذا ! ليس العلم هو الذي يقلّل التدين ، بل هو مما يعين المتدين ، ويكون له سلاحاً يحارب به الإلحاد . وانما الذنب عَلَى الآباء الذين لا يربّون اولادهم تربية دينية راقية ، بل يرسلونهم الى المدارس العالية قبل ذلك ، واني آمنٌ من اولادك فلا خوف عليهم ولا بأس

ان عمل هؤلاء المتطوحين ، وانتهاكهم حرمة الدين ، سيكونان — ان لم ينتبهوا — وسيلة لمنع الناس ابناءهم من التعليم العالي ، وضربة قاضية عَلَى العلم والامة معاً . فهلا ادركوا مقدار الضرر الناجم عن تهوّرهم ، وهلاّ عرفوا الى أيَة هاوية هم سائرون بانفسهم وأُمتهم

ان مثل هؤلاء المفسدين يجب ان يُنبَّهوا الى هذا السر . فان تعقلوا وأنابوا فبها ونعمت . والاّ وجب على الامة — وخصوصاً الفئة المتعلمة منها — ان ينبذوهم نبذ النواة . لانهم اعداء العلم ، اعداء الترقي ، بسبب ما يعملونه من الاعمال التي تنفّر الامة من العلم

هذه كلمات وجيزة أُرسلها الى البعض من النشء الجديد المتشدقين ، لعلها تكون واعظاً ومذكراً لقوم يعقلون

الانتقاد ومشارب المنتقدين

السعي وراء الحقائق دأب كل عاقل يربأ بنفسه ان يرد موارد الاوهام والظنون ، وشنشنة المرء الذي لايهمه الاّ التنقيب عما هو حقيقة راهنة لا تقبل الايهام · فمعرفة الحقيقة واستطلاع شؤونها غاية ما يطلبه العقلاء ، ومنتهى ما يسعى لاجله الأُدباء

وقد زعم قوم أَنْ لاحقيقة في الوجود· وهذا قول صادر عمن لارويه له ولا تعقُّل ، إنْ ُقصد به نفيُ الحقيقة · وقد يكون له وجهٌ من الصحة ، إن أَراد بذلك أَنَّ الحقيقة مستورة مقنَّعة بأباطيل المبطلين ، واستار المموّهين ، الذين يرون الحقَّ أبلج ، غير انهم يعدلون عن الجهر به لاغراضٍ لهم : كخوفٍ من مستبد ، او خجلٍ من الإقرار بالخطإ ، وغير ذلك · فان كان المدّعي من هذا القسم فهو ممن يمكن اقناعهم وإرجاعهم الى الوجه الحق بالبراهين والادلة التي لا تقبل الرد

ومتى ثبت أَنَّ في الوجود حقيقةً راهنة ، فلا بدَّ من السعي وراءَها ، وذلك دأب من تحرَّكت في جسمِهِ عاطفة الادب ، وجرى في جثمانِهِ دمُ النبل · غير أَن معرفة هذه الحقيقة صعبة عَلَى من لم يحلب الدهر اشطره ، ويعرفْ حلوه ومرَّه ، لانَّ تحصيل هذه المعرفة يتوقف عَلَى إذكاء نار الجد ، وإيقاد جذوة الطلب والاجتهاد ، والمباحثة والمذاكرة ، والرد والاعتراض ، والمناقشة والانتقاد

عرف فائدة ذلك العقلاء ، فدرجوا عليه ، وتحققوا فوائده ، فاتخذوه اساساً لاعمالهم ، ورائداً لهم في امورهم · حوّل نظرك الى تاريخ من تقدّم من سلفِ العلماء ، فترى أن مجالسهم كانت تغصّ بالادباء ، وتموج بامواج العلماء ، هذا يفيد ، وذاك يعترض والآخر ينتقد · ووجهة الكل واحدة ، وهي نصرة الحق ، واظهار الصحيح من قواعد العلم · اللهم الا ما شذّ عن ذلك ، وهم قليل لا يعبأ بهم · ولا يُلتفت اليهم

الانتقاد يمحّص الحقائق ، ويُثير الاذهان ، ويوسع نطاق العقول ، ويبرز الحقيقة من خفايا الوجود بأبهى حُلَلِها واجمل برودها ، تتجلى للرائين كالغزالة عند الطلوع ، فتعشو عند ذلك عيون المكابرين ، فيرتدّ بصرهم خاسئاً وهو حسير

ليس شيءٌ كالانتقاد مظهراً للعيوب كي تُجتنب ، ومبيّناً للخطإ ليُصلح ، ومميّزاً للصواب من الخطل « فأمّا الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض »

ليس من أمةٍ حطّت عنها اعباء الكسل ، ورمت بإهمالها الى اقصى مكان ، الاّ كان الانتقاد هو الداعيَ الاكبر ، والسبب الاقوى في تقدمها · ولذلك نرى أنّ مقدار ارتقائها إلى اوج السعادة في المعرفة والمدنية ، بكثرة عدد المنتقدين فيها ، واقتدارِهم علَى معرفة مواضع النقد ليظهروها ، وحذقِهم بمجالّ العلة فيخرجوها · وما المنتقدون الاّ كالاطباء ، يرون العلل واسبابها ، فيعملون علَى تطهير البدن منها ، ويصفون لها من العلاجات والادوية ما يكون عاملاً علَى إخراجها ، وإراحةِ الجسم من اذاها · هذا إذا كان

الطبيب نطاسيًّا حاذقًا ، يقيس الاشباه بالاشباه والنظائر بالنظائر ، وليس فهمُهُ قاصراً عَلَى مادرسه ، والا فيكون ضرره اكبر ، وخطبه اعظم

وكذا المنتقد يجب ان يكون ذكيًا عالمًا بمكان العلة والزمان الذي لاتخرج الاَّ فيه ، حكيماً بكيفية وصف الدواء وطريقة الانتقاد ، يخاطب كل انسان عَلَى مقدار عقله وحسب ما عنده من الاستعداد . فلا يطوّحْ بلسانهِ او قلمه إلى غير الغاية التي من اجلها نصب نفسه منتقداً ، ولا يكنْ بذيءَ اللسان متهوّر القلم . فان فعل ذلك فقد ضلَّ الغاية وحُرم ثمار النتيجة . وأولى له حينئذ أَن ينتقد نفسه ، ويحملها عَلَى سلوك طريق الادب

كل انسان يروم ان يكون كلامه فصيحًا ، ورأيه صحيحًا ، ولكن من اين له ان يحقّق ذلك من نفسهِ قبل أَن يحكم به جمهور العقلاء مع التجرد عن الغايات السيئة ؟ . لعمري لا يمكنه ذلك لأَنَّ العقل الانساني كثير الخطإِ وافر الخطل ، لا يقدر ان يستقلَّ بمعرفة كثير من الامور . فلا يعرف المرء صحة رأيه من فساده الاَّ بعد أَن ينتصب فريق المنتقدين ، ولفيف المرشدين ، فيهدوه للصواب ، ويرشدوه لمهيع الحق ، وبذلك تُقال عثراته ، وينجو من الزلل

لولا الانتقاد لما بعث الله الانبياء ، وعلَّم العلماء ، وأَمر الناس باتباعهم ، والاستماع لنصائحهم ، إذ الغاية من إرسال الرسل انتقادُ العادات والاخلاق ، ليرجع الناس عمَّا أَلفوه من الباطل ، وأتبعوه من العقائد الفاسدة ، والاخلاق الكاسدة ، وبذلك تصلح حالهم ، وتستقيم سبيلهم ، فيكونون سعداء الدارين

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذان أُمرنا بالعمل بهما عَلَى لسان الانبياء ، هما فرعان عن الانتقاد ، او هما الانتقاد بعينه · لأَنَّ النهي عن المنكر يجوز ان يعتبر به عموم اللفظ ، فيصح حينئذ ان يُراد ما كان منكراً في الدين ، وما كان منكراً في شريعة العلم ، فان رأَينا احداً يفعل شرًّا نهيناه عنه وامرناه بضده · وكذا لو رأَينا احداً يقرّر مسأَلة في العلم خطأً ، علّمناه صحتها ونهيناه عن الاعتقاد بها خطلاً

مشارب المنتقدين

مشارب المنتقدين شتى تختلف باختلاف اخلاقهم ، وتباين اذواقهم ، وقد قيل : اللسان ترجمان القلب ، والقلم احد اللسانين · فيستدل عَلَى طيب اخلاق المنتقد ، ولطافةِ طبعه ، وحسن قصده ، بما يبرزه عَلَى لسانه او قلمه من الالفاظ والجمل ، والعكس بالعكس ·

فمنهم من يستعمل التؤدة والتأني ، ولا يتسرَّع في الانتقاد الاَّ بعد ان يخبُرَ المنتقَدَ عليه خبرةً تامة ، و يفكّر فيما قاله تفكيراً · ثم بعد ذلك يشرع في نقْدِ قوله او فعله ، متسلحاً بالادب التام ، واللطافةِ في التعبير ، عادلاً عن الالفاظ التي تنفّر المنتقَدَ عليه · و يقارعه بقويّ البرهان ومتانة الحجة ، وغايته من ذلك اظهارُ الحق ، وتبيان الصحيح من الفاسد ، ليس الاَّ ، فلا يَقصدُ من المجادلة تسفيهَ رأْي المناظر ، ولا فضيحَتَهُ بين الناس باظهار جهله وعيوبه ، لانَّ ذلك مما حرَّمه الشرع والعقل · فمن نحا هـذا المنحى من الجدال فهو رجل انانيّ متعجرف ، يجب ان يُطرح في زوايا الاهمال ، وان

لا يُنظر اليه الاَّ بعين الاحتقار والازدراء ، لأَنه اتخذ الحق ذريعةً للتشفي من الناس وفضيحتهم . فهو لم يطلب الحقَّ لذاته بل لأَغراضهِ السافلة . فهو يجادل عن حقٍّ ، ولكنه أَراد به باطلاً . ومن نحا غير هذا النحو متخذاً الانتقاد ذريعةً لإِحقاق الحق ، لا لهوًى في النفس ، فبشّرْه باقتناع الخصم وخضوعه لديه . وبذلك تتم الفائدة المرغوبة ، وتحصل النتيجة المطلوبة

ومن المنتقدين من اذا رأَى هفوةً من احد ، أرغى وازبد ، وتسرَّع في النَّقْد ، وسلق الخصم بأَلسنة حداد ، ورماه بصخورٍ من الحدة شداد . سلاحه بذاءة اللسان ، وحدة القلم ، وغير ذلك من الوسائل التي تضيع معها الحقيقة ، وتجعل المنتقد عليهِ لايقرّ بالخطاء ، وان كان مخطئاً . وكثير من هؤُلاء ليس قصدُهم اظهارَ الحق ، بل ابداء عيوب الخلق ، والإِبانة عن جهلهم وتسفيه آرائهم . عَلَى أنَّ جمهور هذه الفئة ، كثيراً ما يخطّئون المصيب ، ويصوّبون رأْي المخطيء ، وذلك لعارضٍ يعرض لاحدهم فيظُنُّ في نفسه النباهة والرئاسة والحكمة ، وأَنَّ كل ما قام بذهنه هو الصواب ، فان رأى شيئاً من غيره قام وقعد ، وسفَّه رأْيه ، وانكر عقله ، وسلبه ماأُوتيه من علم ومعرفة ، وتقوى وفضيلة ، ووصفه بالجهل والزندقة والمروق من الدين ، أن كان الجدال في امر ديني ، وان كان في مسأَلة علمية رماه بنبال الغباوة ، ونقصِ العقل ، وقلةِ الاختبار ، والتجرُّدِ من العلم ، بل ومن كل فضيلة

عَلَى اني لا أُنكر أَنَّ البعض ممن هذا شأْنه ، قد تكون غيرتُهُ عَلَى العلم

او الدين هي التي تدعوه الى ذلك ، ولكن يجب عليهِ ان يتكلَّف التأني وحفظ القلم او اللسان من ان يسبحا في بحور الشطط ، و يتيها في بيداء البذاءة والسفاهة والوقيعة في الناس ، لأُنَّ ذلك مضيع للفائدة ، عقيم النتيجة . بل كثيراً ما يكون المنتقِدُ هو المخطيء والمنتقَدُ عليه هو المصيب . فتسرُّعُ المنتقد وتهوُّره يرجعانهِ بخفي حنين ، والخجل قد علا منه الوجنتين . فتنظر اليه الناس شزراً وترمقهُ احتقاراً . فان تأنى المنتقِدُ وتلطَّف في الانتقاد ، ثم تبيّنَ خطأُه ، فهو وان خجل من نفسه ، فهو عند الناس مرموق بنظر التعظيم ، لان غايته حسنة ، وقصده نبيل ، شأن كل اديب مهذب

اتباع الحق متى وضح

متى وضح الحق وظهرت آياته ، وجب عَلَى المنصف ان يتبعه و يقرَّ بخطإِه أياً كان المناظر او المنتقد ، لانَّ الحق احق ان يتبع . وقد ورد في الحديث : « خذ الحكمة ولا يضرُّك من اي وعاء خرجت » وطالما انَّ القصد من المناظرة او الانتقاد هو إحقاقُ الحق و إبطالُ ما عداه ، فيجب عَلَى كلا الطرفين ان يُذعن له متى بدا بالادلة التي لاتقبل الريب . ولا تحدّثِ الانسانَ نفسهُ بأنَّ قبوله للحق فيه شينٌ له واظهارُ عيوبه ، لانَّ الاقرار بالحق هو عين الصواب ، وفخرٌ لمن كان له عقل ، ونحا منحى اولي الفضل الصحيح . قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : « اذا سُئل احدُكم عن شيءٍ لايعلمه ، فليقل لا أدري . رحم الله امرأً اهدى اليَّ عيوبي »

هذا، وانّ المعترف بالخطاء تكون له المكانة السامية في قلوب الناس، و يجلّونه منتهى الاجلال، لانّ اعترافه بذلك يدلّ دلالةً صريحة على انه رجل حرّ صادق لايخاف في الحق لائماً ، والعكس بالعكس . قال الامام الشافعي : « ما أوردتُ الحقّ والحجة على احد فقبلها مني الاّ هبته واعتقدت مودّته . ولا كابرني احدٌ على الحق، ودافع الحجة الاّ سقط من عيني ورفضته »

تلك فائدة الانتقاد الحق، وهذه مشارب المنتقدين ، فاختر ايها شئت، بعد ما بيّنا مزايا كلا الفريقين

خلاصة شروط الانتقاد

للانتقاد شروط وآداب ينبغي للمنتقِد مراعاتها والسير في جادّتها . وللمنتقَد عليه شروط كذلك . فمتى راعى كل منهما ما وجب عليه من الاصول التي يلزمه اتباعها ظهر الحق ، ووضح الامر ، و بطل قول زيد وعمرو . فكان كل منهما راتعاً في بحبوحة الصواب، آمناً من العثار في عقبات الاكدار ، والنزوع لحسام العدواة والاحقاد

وانا ذاكرون شيئاً من تلك الآداب والقواعد التي يجدر بالمنتقِد والمنتقَد عليه ان يجعلاها نُصبَ اعينهما . ولا يُغفلاها طرفة عين

الاول : مناظرك نظيرك . فلا يجوز احتقاره ولا الازدراء برأيه، مهما كان سافلاً او خطأً ، بل يجب ان تلاطفه وتجامله ، الى ان تفري ببرهانك القاطع رأسَ رأيه الفاسد ، وتُنير بدليلك الساطع غياهبَ فكره المظلم . اذ ليس المراد من الانتقاد نَقْدَ الشخص نفسه ، او إظهارَ أنه فاسد ، من حيث

انه فاسد . وانما القصد تبيين الصواب واظهار الحق ، وارشاد من حاد بفكره عن منهج السداد ، او أسقطه رأيه عن منصّات الرشاد . واذا كان الغرض كذلك ، فالازدراء بالمناظر ، والحطّ من كرامته ، يحولان دون الوصول الى المطلوب ، ويمنعان الخصم من الاعتراف بالحق ، اياً كان الحق . وقد ورد في الحديث : « من امر بمعروف ، فليكن امرهُ بمعروف » اي من نصب نفسه لوعظ الناس و إرشادهم وانتقاد عاداتهم واخلاقهم ، فليستعمل التؤدة والتأني والمعروف من القول : فلا يتهوّرْ بلسانه او قلمه ، بل يجعل الحكمة في النصيحة نُصْبَ عينيه .

الثاني : كل دعوى لم تكن مقترنةً بالدليل ، فهي ساقطة عن درجة الاعتبار ، فلا تدّعِ دعوى قبل ان تقتل البرهان علماً

الثالث : لاتستعمل الحدة في كلامك ، وان كنت اديباً في الفاظك ، فالحدة لاتنتج المقصود ، بل ربما اذهبت المطلوب

الرابع : يقول علماء الجدل وآداب البحث والمناظرة : « ان كنت مدعياً فالدليل ، او ناقلاً فالصحة » . اي ان كان كلامك دعوى من قِبَل نفسك ، فاجعل البرهان سياجاً لها يمنع الداخل ، ومجنًّا يدفع نبال المناظر وسيف المجادل . وان كنت ناقلاً لكلامك عن كتاب ، فأثبتْ ذلك النقل وصحّحْ ما نقلت

تلك اصول اربعة اذا اعتصم بها المناظران ، وتمسكا باهدابها ، وصلَ كلٌّ منهما الى ما يريد من اظهار الحق

هذا ما اردنا ايراده موجزاً تمام الايجاز لان المقام طويل الاذيال واسع

الاردان فعسى ان نسير جميعاً في هذه السبيل ، فنفوز بما نروم من القصد ، فالحقيقة بنت البحث والله الموفق للصواب .

سعادة الحياة

١ = مقدمة

الحياة ثروة للمرء ، فإمّا ان يحتفظ بها ، ولا يفرّط فيها ، ولا يصرف منها شيئاً الاَّ عند الحاجة . وإمّا ان يبذّر ويجود بها لِأَقلّ سبب ، سواء كان محموداً او مذموماً ، ضارًّا او نافعاً ، جائزاً او محظوراً . وبحسب احتفاظه بثروته وادخارها إلى وقت الحاجة اليها تكون سعادته فيها واجتناء الفوائد منها

خلق الله الانسان ، ووعده السعادة والخير ، إن هو سار في السنن التي سنَّها . وأَوعده الشر ، إن هو حاد عن طريق الهدى ، ولم يتَّبع الطريق السوى . وأَبان له الاسباب وعرَّفه المسببات . واوضح له انه خُلق للسعادة وانه لا يسلبها عنه ما دام منتهجاً سننها ، معتصماً بحبلها . وتلك الاسباب التي عرَّفه اياها ظاهرةٌ لكل ذي عقلٍ سليم . غير أن اتباع الهوى ، والميل إلى الشهوات ، والسعيَ وراءَ المنفعة الخاصة — كل ذلك يصرف المرءَ عن النظر في شؤُون الحياة الحقيقية ، ويصدف به عن الميل إلى ما فيه سعادة حياته ، وهناءُ معيشته

بينا نرى احد الناس ذا ثروة طائلة ، وعيشة راضية ، وقصور فخمة ، وأثاثٍ ورياش ، وخدم وحشم ، وغير ذلك من وسائل الرفاه واسباب النعيم ، اذا هو اصبح فقيراً لا يملك نقيراً ولا قطميراً ، فيخدم بعد ان كان مخدوماً ، ويعمل للناس بعد ان كانوا يعملون له · ولو بحثت عن اسباب فقره بعد الغنى وبؤسه بعد النعيم وذلّه بعد العزّ ، لرأيت أنّ الاسباب كلّها ترجع إلى شيءٍ واحد ، وهو العدول عن سنة الله في خلقه ، وعدم إتباع المناهج التي انتهجها ، ليسلكها من اراد ان يكون سعيداً في حياته

صاحب الثروة والغنى أمره الله ان لا يكون بخيلاً شحيحاً بحيث لا ينتفع بجزءٍ من ماله أُولو الفاقة والفقر ، كما امره ان لا يكون مبذّراً يُذهب الاموال ويجود بها لامرٍ غير مشروع ، او عملٍ غير مبرور · بل اوجب عليه أن يكون وسطاً بين التبذير والشُّح : بحيث يصرف المال في حاجةٍ وراءها نفع مشروع له او لغيره من عيال الله · فإن خالف ذلك الامر ، وطرق باب البخل ، عاش في الدنيا كئيباً كاسف البال مُتْعَباً ضيّق الصدر · وان صرف امواله جزافاً ، فلا يمضي عليه زمن الاَّ و يصبح صفر اليدين ، فارغَ الصناديق ، فيندم حيث لا ينفعه الندم ، فهو في كلتا الحالتين من الاخسرين اعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة · أَما ان بقي محافظاً عَلَى سلوك الطريقة الوسطى ، فهو سعيد في حياته لعدم وجود ما يكدر صفوه من الوسائل التي تذهب بامواله ، وتدعه في حرجٍ عظيم · فانحراف الأَوَّلَين عن النهج القويم أَذهب بسعادة حياتهما ، واعتصام الثالث بحبل الفضيلة وعدم الميل الى طرفي الامر ابقاه في سعادة دائمة وعيش رغد

هذا اذا نظرنا الى جهة السعادة والشقاء من حيث النعيم بالمال وغيره، وان نظرنا اليهما من حيث صحة العقل والجسم ، والسعادة بالمنزل والاهل والاصحاب او عدم ذلك ، نجد أن القاعدة العمرانية المتقدمة وهي التوسط في الامور تتمشى مع هذه الاشياء كما تمشت مع سابقها :

نرى شخصاً سليم العقل ، صحيح الجسم ، حميد الصفات ، فلا يمرُّ عليه زمن حتى نراه شاحب اللون، ضئيل الجثمان ، قليل الفهم ، مذمومَ الخصال . فيعترينا عند ذلك اجفال وحيرة ودهشة ، ولم نعلم لذلك سبباً . ولو تأملنا في حالته واختبرناه اختباراً صحيحاً ، نرى أنَّ أفراطه في شهواته ، وتفريطه في جنب الاعتماد علَى ما امره به الله سبحانه من الترفع عن الدنايا، وعدم الانغماس في حمأة الشهوات والشرور ، وعدم مراعاة قوانين الصحة — كل ذلك كان سبب شحوبه ، والتخليط في عقله ، وبُعدِهِ عن الآداب الصحيحة، والمزايا الحميدة . فلو ان مثل هذا الرجل لم يُحدْ عن الصراط المستقيم ، ولم ينحرف عن جادة الحق ، لعاش سعيداً في جسمه وعقله واخلاقه . وقس علَى ذلك السعادة باهله وأسرته واصدقائه . فان اتباعه للقواعد التي تعرِّفه كيف يسير بالاهل والأسرة والاصدقاء والناس اجمعين ، تجعله سعيداً ما دام محافظاً عليها ، وتُشقيه في حياته ان حاد عنها

يشكو كثير من الناس شقاء الحياة و بؤس العيش ولو عملوا بالواجب عليهم نحو الحياة لم يشكوا منها . غير أنَّ ضلالهم عن النهج السويّ ، وابتعادَهم عمَّا فيه خيرهم وسعادتهم ، يسلكان بهم طُرُقاً تُضلّ ، ويحمّلانهم اثقالاً تزهق الانفس . فهم لذلك يندبون سوء حظهم ، و يشكون من

حياتهم ، ولو أنهم أقلعوا عن الهوى ، واتبعوا سبل الهدى ، فرموا بالشهوات والمنفعة الوهمية جانباً ، ولم يعملوا الا بما يوافق سنن الله والاسباب التي وضعها لعباده ، لعاشوا عيشة راضية · غير ان العادات السافلة ، والاخلاق الدنيئة ، متى تمكنت من المرء تعمي بصره ، وتغشّي بصيرته ، فلا تدعه يرى بعقله وقلبه ما يكون السببَ الوحيد لنجاته وخلاصه ، ولا تمكنه من النظر الى سنن الله في الاكوان ، ولا من مشاهدة انوار الحياة السعيدة التي ترفعهُ عن مرتبة الحيوان

اما الاسباب التي تجعل المرء سعيداً في حياته الجسمية والعقلية والمالية والاهلية وغيرها ، فهي كثيرة ومتى عمل الانسان بها وصل الى ما يتطلَّبهُ من سعادة الحياة · فيجدر بكل امرئٍ كان له ذرة من العقل ، أن يتبع تلك القواعد ، ويعمل بهذه الاسباب ، حتى يبلغ ما يريد ، ويحصّل ضالتهُ المنشودة · وسنتكلم عَلَى تلك الوسائل والاسباب في المقالات الآتية

٣ = سعادة المرء في نفسه

اختلفت مذاهب الناس في تفسير هذه السعادة باختلاف ميولهم ومشاربهم ، فلا تكاد تجد اتفاقاً في المعنى المراد منها ، شأن الناس في تفسير كل معقول · ذلك لان العقل لاحدَّ له ، فهو حرٌّ لايقبل التقييد ، ولا الخضوع لأَية سلطة كانت · وأمَّا بعض العقول التي نراها خاضعةً متقيّدة بسلاسل الاوهام او الاستبداد ، فهي عقول فاسدة طرأ عليها من الاحوال الخارجية ما جعلها أَسيرةً مستكينةً لكل طارئ · يدلك عَلَى ذلك أَنه

متي رفع عنها ذلك الضغط ، وُجليت بجلاة الحقائق ، وهتك سيف البرهان الصحيح تلك الغشاوة التي تجلّلها فتمنعها عن مشاهدة الحق ، رجعت الى اصلها ، وتجلَّت لها الحقيقة فلم تتبع سواها

قلنا : ان العقل حرٌّ يأبى ان يكون اسيراً ، ولذلك أختلفت العقول في تفسير المعاني والمعقولات . أماَّ الامور الحسية فلا تكاد تجد في تفسيرها اختلافاً كثيراً كما في الامور المعقولة ، لان ما يقع تحت الحس يُدرك بلا تعمُّل ولا مشقة شديدة ، فهو أسيرٌ او عبد رقّ لايتمكن من مخالفة سيده او الذي أسره ، ولا يستطيع ان يفرَّ او يأبق ، فإن ابق فمن السهل ان يقبض عليه مولاه . وكذلك شأن الاشياء المحسوسة ، فان تعاصت عن الإدراك زمناً ، فلا بد أن تُطيع وتكون رَهْنَ الحواس . وليس الشأن كذلك في الامور المعقولة ، لانها تكون من قبيل الامور الغيبية التي لاتقع تحت الحواس ، فهي كثيراً ما تعتاص حتى عَلَى المفكّرين واصحاب العقول الراجحة والاحلام العظيمة ، فيختار كل منهم سبيلاً يسلكها ظاناً انها الضالة المنشودة التي توصله الى ما أجهد عقله واتعب فكره لاجله . وتراه يناضل اهل المذهب الآخر ويناقش اربابه بكل ما يستطيع وما يملكه من القوى العقلية التي اودعها الخالق سبحانه فيه :

فكلٌّ يدعي وصلاً بليلى   وليلى لاتقرُّ لهم بذاكا

واختلاف الناس في الامور المعنوية لايقتصر عَلَى امر دون آخر ، فإنك لاتجد امراً معقولاً الاَّ وتجد بازاءه من الآراء والمذاهب ما يَدعُ المرء حائراً لايلوي عَلَى شيء . غير أنَّ العاقل البصير يدرس جميع ما يراه

من الآراء درساً صحيحاً ثم يختار ما يظهر له أنه الحق ، كلٌّ عَلَى حسب استعداده واجتهاده ، وان خالف في ذلك كثيراً من الناس

عَلَى ذلك درج العلماء ، وفي هذه السبيل مشى الفلاسفة ، المتقدمون منهم والمتأخرون ، كلٌّ له رأي وفكر ، فهم لايكادون يتفقون ، غير أن كلاً منهم أختطَّ لنفسه خطة مشى فيها ، وحسب نفسه سعيداً باتباعها

ولما كانت السعادة من الامور المعنوية المعقولة ، اختلف الناس فيها أختلافَهم في غيرها من الامور التي لادخل للحس فيها ٠

يحسب البعض ان سعادة المرء في نفسه تكون بالتخلّي عن هذا العالم الفاني والتعلّق بالعالم الباقي ٠ مع احتقار كل ما في هذا الوجود من اللذات، وما انطوى عليه من المظاهر ٠ فمتي فعل الانسان ذلك كان سعيداً في نفسه ، لايشعر بما ينزل به من المصائب ، ولا بما يلمُّ بجسمه من المتاعب ، ولا تستميله الحسناء ، ولا تُطغيه الصهباء ، ولا تستفزّه الاوتار ، ولا تغريد الاطيار ، او حفيف الاشجار ، كما لا تُحزنه النائبات ، ولا تُشجيه النادبات ولا الصارخات ، فسواءٌ لديه الحياة والممات ، فنعيم هذه الحياة و بؤسها لديه سواء ، اذ يستوي عنده الفناء والبقاء ٠ وعَلَى ذلك اكثر الفلاسفة وكثير من رجال الدين والصوفية الحقيقيين ٠ فهم يرغبون عن هذا العالم المملوء بالمصائب والزخارف ، الى ذلك العالم الباقي الذي لا أَلمَ فيه ولا شقاء ، بل كله سعادة وهناء

وهناك قسم آخر يقابل هذه الطائفة ، يزعم أنَّ سعادة المرء في حياته تناقض هذا المبدأ مناقضة تامة ، ويقولون : ان ما زعمه هذا القسم من

السعادة هو خطأ صُراح ، وجهل بَواح ، ولو دروا ما درينا ، وعلموا ما علمنا من الحياة وسعادتها ، لعدلوا عن هذا الزعم الفاسد ورموا به جانباً . وتزعم هذه الطائفة من الناس أنَّ السعادة هي ان يتمتع الانسان بما تحت هذا الفلك الدوَّار : من المطعم والمشرب ، والتنقل من ملهى الى آخر ، والتلذذ بكل مرأى جميل ، ووجه صبيح ، والتنعم بالملابس الفاخرة ، والمركبات الجميلة والجياد المطهمة ، وتقطيع الاوقات في جمع الليرات ، وتضييع الساعات ، بين الغانيات ، والأُنس بسحر احاديثهن ، وسفك دم الحياة عندهن .... الى غير ذلك مما يسمى عند هذه الطائفة بالمدنية الجديدة

وهناك قسم وسط بين الطائفتين ، اخذ ما رآه حسناً عند كل طائفة منهما واحتفظ به ، وقال : ان ذلك هو الحياة الحق ، وهو السعادة التامة للمرء في هذه الدنيا

وقبل ان نبين آراء هذه الطائفة الوسط يجب علينا ان ننصب العقل الصحيح مُحكَّما بين القومين الاولين ، لنرى ايهما اقرب الى الحق ، ثم نبين رأي القوم الآخرين

— من تفكر مليًّا في مذاهب اهل التجرُّدَ عن هذا العالم والاحتفاظ بالرغبة عنه ، يجد أَنهم أنصفوا في كثير من الامور التي جنحوا اليها ، فان التجرُّدَ عن هذه اللذّات الوهمية وعدم اعتبارها مبدأ شريف ، غير أَنَّ الإفراط في ذلك امرٌ غير محمود ، فإنَّ الله سبحانه لم يخلق الانسان في هذه الدنيا الاَّ لحكمة سامية . ولم يجعل له هذه اللذات الا لحكمة كذلك . ولم يأُمره بالاعتصام بالاعمال الصالحة التي تؤهله للعالم الباقي الاَّ لحكمة اسمى

وارقى . فان اخذ المرء بطرف وأهمل الطرف الآخر، فقد اساء التصرف فيما خلقه الله له، وما خلقه لأجله

ان الله لم يخلق الطيبات عبثاً . والطيبات معنى عامٌّ شامل، يندمج فيه كلُّ ما ترتاح اليه النفوس والاجساد، سواء كان من الطيبات المعقولة او من الطيبات المحسوسة . فتمسُّكُ المرء بقسم الطيبات المعقولة، ورغبتُهُ عن القسم الآخر المحسوس، خروجٌ عن سنة الله التي سنَّها لعباده . حتى إنه سبحانه حثَّ الناس علَى الطيبات الجسمية فقال: « قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة » فالانسان انما اوجده الله في هذا الوجود لينال نصيبه من الدنيا ونصيبه من الآخرة، وهذا النصيب يكون باتباع اوامره والانزجار بزواجره التي فهمها العقل وأيَّدتها الشرائع السماوية

اما الذين خالفوا مبدأ اهل التجرد والمعقول، فكانوا ماديين دنيويين، لا يهمُّهم من الحياة الا الأكل والشرب والضِّراب، والتنقُّلُ من روضة حسن الى اخرى، وجمعُ المال بايّ وسيلة كانت، زاعمين أنّ هذه هي الحياة، وأنها السعادة لا غير، وأَنهم انما خلقوا لذلك، فقد ضلُّوا ضلالاً مبيناً، وحادوا عن سواء السبيل . ولو تفكروا في عاقبة امرهم لظهر لهم الامر، وادركوا خطأ فكرهم وضلال رأيهم

انا لا اذهب بهم الى المدى البعيد الذي يعتقد كثير منهم أنه خلط واوهام، وانما آخذ بهم الى المدى القريب الذي قد شاهده واحسَّ به اكثرهم :

كلٌّ منهم يعلم أنَّ الافراط في الشهوات ، واعطاءَ النفس هواها : تميل الى كل ما تشاءُ وتختار ، تكون عاقبته الامراضَ والخسارةَ المادية والجسدية · وقد حققوا بأنفسهم أنَّ كثرة الاوباء والامراض التي اعترت المجتمع ، انما كانت ناشئة عن الافراط بالملذات ، ومسبَّبةً عن الانهماك في الشهوات ، والانغماس في حمأة الهوى · بل إنَّ ما نراه كلَّ يوم ونسمع به من العسر المالي والافلاس ، والقضاء عَلَى النفوس البريئة ، بل وقضاء المرء عَلَى نفسهِ ، انما هو مسبَّب عن الخروج عن سنة الله ، والرغبة عن اتباع الحق الى الميل نحو الهوى والشهوات

هذا ما لكلٍّ من الطائفتين وما عليهما ، ويجدر بنا الآن ان نتكلم عن الطائفة الثالثة التي اختارت ان تكون طائفة وسطاً

— هذه الطائفة أعطت للروح حقَّها من النظر في الاكوان ، والاعتبار باحوال الأُمم الغابرة والحاضرة ، وما ألمَّ بها من الطوارىء المسبَّبة عن الهوى والافراط في الشهوات ، فكبحت جماح النفس ، وردعتها ان تميل كلَّ الميل الى ما تريده وتطلبه ، وحدَّدت لها ملذةً خاصة وهوى خاصاً لاتتعداهما ، وربطتها بأنظمة وقوانين ان خرقت واحدة منها عاقبتها عقاب التأديب ، حتى لاتعود الى ذلك مرة اخرى

قد أُباحت للجسم ان ياخذ حظَّه من الملذات ، ولكن بشرط ان لايتجاوزها الى ما يضرُّ به ، بحيث يكون دائماً نشيطاً ، في مأمن من العلل والامراض التي تنهكه وتجعله عرضة لكل طارىء من الادواء ·

اباحت له الطيبات من المأكل والمشرب من غير إسراف ولا تبذير ،

ولا تضييق ولا تقتير ، كما قال تعالى : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا »

اباحت له ان يستعمل اعضاءه فيما خُلقت لاجله ، ولكن عند الحاجة ولأمرٍ هو اسمى مما يظنه اهل الشهوات

اباحت له ان يلبس ويتنعم ، ولكن بشرط ان لايصل به ذلك الى درجة الخنوثة ، ويخرجه عن دائرة الرجولة ، ان كان رجلاً ، وعن دائرة الادب ، ان كانت انثى

اباحت له الراحة والتنقُّلَ في ارض الله الواسعة ، والمتنزهات الجميلة ، ولكن بشرط ان لايعتاد ذلك فيتمكن منه ، فيوجد فيه الكسل وبغضَ العمل ، والميلَ الى الراحة ، وحبَّ الدعة والاهمال . لانه متى تمكن من نفسه هذا الامر ، كانت حياته كلُّها شقاءً وعناء

هذه آراء الطائفة الثالثة ، وهي آراء حميدة ، وافكار سديدة ، فقد اخذت من كل شيء احسنه : اخذت من الأُولى تطهيرَ النفس وحَمْلَها عَلَى معالي الامور ، والنظرَ الى السعادة الحقيقية . واخذت من الثانية النظرَ الى ما يطلبه هذا الجسد من التغذية والملاذ ، ولكنها هذَّبتها تهذيباً جعلها صالحة معقولة ، فلم تهمل لذةَ العقل ولا لذةَ الجسد ، لأَنها رأَت ان لكل منهما حقاً يطالب به ، ويهيم في ان يتقاضاه ، فسلكت الطريق الوسط ، لانَّ حبَّ التناهي والغلوّ غلط . وقد جاءَ في الحديث الشريف : « ان لربك عليك حقاً ، وان لنفسك عليك حقًا ، وان لأَهلك عليك حقاً ، فأَعطِ كلَّ ذي حقٍ حقَّه »

غير أَننا لو دققنا في كلا مذهبي الطائفتين الأُولين ، واراد مُريدٌ ان

ينحو منحى احداهما لاغير، نقول له إنَّ انتهاج منهج الأُولى هو خير وابقى واسلم في الآخرة والأُولى . هذا إن لم نقدر عَلَى ان نحمله بالبرهان عَلَى سلوك اوسط المذاهب : وهو ان يعطي للعقل والروح حقَّهما، وللجسد حقه كذلك

. . . .

وخلاصة القول: ان سعادة المرء في نفسه ، هي ان يكون مقتصداً فيما يتقاضاه منه العقل والجسد ، وان يرجع في كل امرٍ معقول او محسوس الى سنن الله في الاكوان ، وما أَتى به من الشرائع بواسطة انبيائه المكرَّمين، فلا يطلق للروح السراح ، فتعرض عن الدنيا البتة ، ولا يرخي للجسد العنان ، فينهمك في الملاذ التي تعود عليه بالخسران في دنياه ، والشقاء في عقباه . فان من سار في منهجٍ وسط أَمن العثار، في هذه الدار وتلك الدار. « والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم »

٣ = سعادة المرء في اهله(١)

« ومن آياتهِ أن خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل
« بينكم مودة ورحمة . انَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون »
« قرآن كريم »

اقتضت حكمة الله سبحانه أَن يوجد النوع الانساني اظهاراً لقدرته ، واقتضاءً لمشيئته . فأوجد الانسان الاول، وخلق له زوجاً يسكن اليها ،

(١) الاهل الزوجة . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «خيركم خيركم لاهله وانا خيركم لاهلي»

ويأنس بها ، وأَودع فيه تلك الغريزة ، وذلك الميل ، ليمكن الازدواج ، ويكون من وراء ذلك تكثير النسل ، وزيادة عدد هذا المخلوق . وجعل بينهما عاطفة المودة لتتمكن حبال الأُلفة وسكون كل منهما الى الآخر . وغرس في نفوسهما شجرةَ الرحمة لتثمر الصفح والاغضاء ، فيما لو شجر بينهما خلاف في بعض الاحيان ، او قصّر احدهما فيما يجب له عَلَى الآخر . وانَّ في هذا آيةً واضحة ، وحكمة سامية ، وعلامة ظاهرة ، لا يدركها الاَّ من أُوتي عقلاً مفكّراً ، وأُعطي دماغاً كبيراً

لو خلق الانسان عَلَى غير تلك الحال ، لَماَ كان لهذا النوع اليوم بل قبل اليوم وجود ، بل كان في عالم الخفاء . لأَنَّ الرجل او المرأَة ان لم يكن بينهما أُلفة ومودة ورحمة فلا يمكن ان يأنس احدهما بالآخر ، واذا لم يكن أُنس فلا ميل ، واذا لم يكن ميل فلا نسل ولا ذرية

لهذا يجب علَى كل رجل وأُنثى ان يتلقّيا دروس التربية ومعنى الحياة الزوجية قبل ان يكون كلٌّ منهما زوجاً ، حتى اذا بلغ ذلك المبلغ واُقترن كلاهما بالآخر ، يكونان عارفين واجباتهما والاسباب التي تثبت دعائم الأُلفة وتمكّن علائق المودة . والا كانت عيشتهما شقاءً ، وكان الممات خيراً منها . هذا ان لم يشتدَّ البغض و يقوَ النفور الى درجة عدم الميل المطلق ، فان وصلا الى هذه الغاية من الوحشة والشحناء ، فهناك انقطاع النسل وخراب العمر ، وضياع تلك السعادة التي ما اقترنا الاَّ لاجلها . وانَّ ذاك الشقاء لا يقتصر عليهما ، بل إنه يتجاوزهما الى اولادهما — ان كان لهما اولاد — والى من ساكنهما او جاورهما بحكم العدوى

فإنْ اراد المرء ان يكون سعيداً في زوجه ، بعيداً عن النزاع وكلّ ما يجعل صفوه مكدّراً ، فليبتعد عن كل ما يكون سبباً للشقاق ، وواسطة للشجار . كما يجب على الزوجة كذلك إنْ أرادت ان تكون سعيدة في حياتها . وذلك يكون بحلم احدهما عند غضب الآخر ، وتغاضيه عن سيئه حصلت وتجاوزه عن خطإٍ يهضم به حقُّ واحدٍ منهما . فان عفا الزوج عن زلّة امرأته ، وأغضت الزوجة عن ذنب زوجها ، تشتد بذلك اسباب الأُلفة والمودة ، وتنمو عاطفة المحبة والرحمة . وبهذا يكونان سعيدين في حياتهما

وان الرجل هو أولى من المرأة بهذا العفو والاغضاء والرحمة ، لأن عقله ارجح ، وصدره ارحب ، واخلاقه اوسع . فيجب عليه ان يصبر ويرحم ويعفو ويسمح ، ان رأى من زوجته ما يوجب سخطه وغضبه . ولينصح لها ويعظها ، ويبيّن لها خطأها وسيئتها ، باللطف والاحسان والقول المعروف ، والموعظة الحسنة والخطاب اللين ، وبذلك يملك قلبها ويستحوذ عليها ، حتى تكون له طيّعة كما يريد

قال الله تعالى : « وعاشروهنّ بالمعروف ، فان كرهتموهنّ فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعلَ الله فيه خيراً كثيراً » قال البيضاوي في تفسير هذه الآية : « اي فلا تفارقوهنّ لكراهة النفس ، فانها قد تكره ما هو أصلح ديناً واكثر خيراً ، وقد تحبُّ ما هو بخلافه . وليكن نظرُكم الى ما هو أصلح للدين وادنى الى الخير »

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من صبر عَلَى سوء خُلق امرأته أعطاه الله من الاجر مثل ما اعطى ايوب عَلَى بلائه ، ومَن صبرت على سوء

خُلُق زوجها اعطاها الله مثل ثواب آسية امرأة فرعون »

قال الامام الغزالي في كتاب الاحياء : « واُعلم انه ليس حسنُ الخلق معها كفّ الاذى عنها ، بل احتمال الاذى منها والحلم عند طيشها وغضبها اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت ازواجه تراجعنه الكلام ، وتهجره الواحدة منهنّ يوماً الى الليل »

وقال عليه الصلاة والسلام : « أكمل المؤمنين ايماناً أحسنهم خُلُقاً وألطفهم باهله» وقال: « اتقوا الله في الضعيفين : المرأة والرقيق»

ولا نظن انه متى حصل التساهل من الطرفين يبقى هناك نوع من الوحشة او النفور ، بل يكون كلٌّ منهما مُجبراً اذ ذاك عَلَى السكون الى الآخر والميل اليه

نعم ربما يكون هناك اختلاف كبير في الاخلاق ، او تباين من حيث جمال الباطن او الظاهر ، فحينئذ يصعب ائتلافهما ، ويتعذّر ان يكونا سعيدين في حياتهما . والأولى بهما اذ ذاك يتفرّقا إن كانا من اصحاب الشرائع التي تجيز ذلك

وان من خطإِ الآباء والامهات ان يزوّجا اولادهما من رجل او امرأة قبل ان يختبرا ارادتهما وميلهما . وانّ اكثر ما نراه من شقاء حياة الزوجين ناتجٌ من إهمال هذا الاختيار ، وإجبارِ الولد او البنت عَلَى الاقتران بمن لاتودّه او لا يودّها . فيجب الاهتمام بهذا الامر اهتماماً عظيماً ، والاّ كانت العاقبة شراً عَلَى الزوجين وعَلَى اولادهما

سببُ شقاء الزوجين وشقاقِ بينهما ، إمّا ان يكون مسبّباً عن كراهية

احدهما للآخر لاجل جمال الخَلْق اوجمال الخُلُق · ففي الحالة الأُولى يجب ان لايقترن الاَّ بامرأةٍ فيها الاوصاف التي يريدها ، حتى لا يكون عدم جمالها داعياً للنفور فيما بعد · ومعرفة جمالها يكون بالنظر اليها قبل العقد ، وذلك جائز شرعاً ، وقد نصَّت عليه الاحاديث النبوية والكتب الفقهية · قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « اذا أوقع الله في نفس احدكم من امرأةٍ فلينظر اليها فانه احرى ان يؤْدم (يؤَلف) بينهما » اي ان النظر اليها قبل العقد جدير بأنْ يكون واسطة للأُلفة بين الزوجين · وكان بعض الورِعين لا يُنكح كرائمه الا بعد ان ينظر اليهن مَن اراد خطبهنَّ ، دفعاً للغرور · فربما تزوجت المرأة من لا يعرف من صفاتها شيئاً ، فيكون ذلك سبباً للكراهية والبغض · نعم ان العادة اليوم تمنع من رؤْية المرأة قبل العقد عليها ، غير أنَّ الرجل يمكنه ان يرسل من يثق بها لترى من يريد ان يبني بها ، وهي ترى له من تجد فيها الاوصاف التي يميل اليها ، وينبغي له ان لايكتفي بواحدةٍ ترى له تلك المرأة ، بل ليرسل ثانية وثالثة ورابعة حتى يثق تمام الثقة ، ثم بعد ذلك يعقد عليها

وكما أنَّ النظر للمرأة مطلوب ، فالنظر للرجل مطلوب كذلك ، فربما تزوَّجت المرأة من لاتحب ، فيكون ذلك داعياً لسوء العشرة ونكد العيش · حتى انه يحرم عَلَى الرجل ان يحسّن هيئته لترغب فيه المرأة او اهلُها ، كما يحرم عَلَى المرأة ذلك · فقد رُوي ان رجلاً تزوّج عَلَى عهد عمر رضي الله عنه ، وكان قد خضب فنصل خضابه « اي غيَّر هيئة شعره ليظهر انه شابٌّ فتحلَّل الخضاب » فأستدعى عليه اهلُ المرأة الى عمر وقالوا : حسبناه شاباً ،

فأوجعه عمر ضرباً وقال : غرّرت القوم

هذا ان كان النفور بسبب الجمال الظاهري . أمّا إن كان بسبب جمال الاخلاق وحسن الطباع ، فيجب على الرجل ان يبحث عن اخلاق اهلها ، ويستطلع طباع اهل بيتها ، بأيّ واسطة كانت . فان كانت كما يريد اقترن بها ، ولا أهملها ، ولو كانت اجمل اهل زمانها

هذا وان اختلاط الزوجين قبل العقد لا يفيد في استطلاع احوالهما واخلاقهما لان كلاً منهما يجتهد في اظهار احاسن الاخلاق ومكارم الصفات ليحبّب فيه ، وكثير منهم ومنهنّ يكون بمعزل عن الاخلاق الصحيحة والضرائب الحميدة ، فيكون ذلك من باب الغش والتغرير ، وكلاهما حرام شرعاً وعقلاً

كثير من الناس يراعون في الازواج جانب الغنى والجاه والمجد ، ويهملون جانب الاخلاق والعلم والسيرة الحسنة . وذلك جالب اكثر مانراه من الشقاء والنفور بين الزوجين . وان حصل بينهما ألفة ووداد فلا يلبث ذلك ان يزول بزوال غنى احدهما او جاهه او جماله ، فينقلب أنسهما وحشة ، وسعادتهما شقاء

وان العاقل يبحث باديء ذي بدء عن جمال الاخلاق وحسن التربية والتهذيب والتعليم وليكنْ ذلك هو غاية ما يسعى اليه ، ثم يبحث عن الجمال الظاهري ، حتى اذا فقد هذا فلا يسبّب وحشةً او نفوراً ، بل يكتفي كل منهما من صاحبه بما أودعه الله فيه من الاخلاق الفاضلة والتربية الصحيحة وحسن السيرة — جاء في الحديث الشريف « تُنكح المرأة لجمالها ومالها

ودينها وحسبها فعليك بذات الدين تربت يداك[١] » اي ان من يرغب في نكاح امرأة فانما يرغب فيه لامور: اما لمالها ، او حسبها ، او جمالها، او دينها. فالرسول يحذّر ان ينكح الانسان غير صاحبة الدين ، لانّ الدين جماع الاخلاق الفاضلة ، ومصدر الكمالات الصحيحة، فان اجتمع مع ذلك الحسب والجمال والمال، فتلك نعمة فاضلة . اما إيثار الجميلة او صاحبة المال او الشرف عَلَى المرأة الصالحة ذات الشهامة والدين ، فذلك خطأ كبير

الحقوق الزوجية

ان للزوجية قوانين واصولاً يكون بها هناء الزوجين وحياتهما الطيبة ، فالزوجة عَلَى زوجها حقوق مقدّسة ، وللزوج عَلَى زوجته واجبات شريفة كذلك ، فمتى راعى كل منهما ما لصاحبه عَلَى الآخر من الحقوق ، كانت حياتهما سعيدة ، لا يشوبها شائبة من الشقاق او الشقاء . غير ان كثيراً من الازواج والزوجات لم يراعوا تلك الواجبات ، بل انّ الزوج يستبدّ بزوجته، والزوجة لاتراعي حرمة زوجها ولا درجة غناه وكسبه ،فنتج عن ذلك ما جعل حياتهما تعسة غير صالحة . وقد مُلئت بطون الكتب السماوية والمؤلفات من تلك الحقوق التي يجدر بكل عاقل ان يتبعها ولا يحيد عنها قيد شبر . فحبذا لو أنّ رجال الدين والاخلاق والكتبة والشعراء يسلكون هذه السبيل ، و يوضحون

---

(١) تربت يداك : هـذه من الكلمات التي جاءت عن العرب صورتها الدعاء عَلَى الانسان وليس المراد بها ذلك . بل المراد بها الحث على الشيء والتحريض عليه . واصل معنى تربت يداك :لصقتا بالتراب . ويكنّى بها عن الفقر

هذه الواجبات ليعرفها كل احد . وحبذا لو أنَّ مدارسنا علَى اختلافها : سواء كانت للذكور او الإناث تجعل في برنامج دروسها للصفوف العالية والمتوسطة درساً يبحث فيه عن هذه المسائل التي عليها مدار الحياة السعيدة . فان ذلك هو خيرٌ من كثير مما يدرَّس في المدارس

لا شك أَنَّ الرجل قد هضم كثيراً من حقوق المرأَة التي اوجبها الله عليه ، وجعلها آلة بيده يتصرف بها كيف يشاء . فحرمها من التربية والتعليم ومن كلّ ما ينهض بها من وهدة الغباوة ، ويرفع عنها ستار الجهل . فقد ظن أَنها لم تُخلق الا لشهوته ، ولم توجد الا ليستبدَّ بها ويضيق عليها ، غير ناظرٍ الى أنَّ الله سبحانه قد جعلها مساوية له في الحقوق الدنيوية والاخروية ، ومقارنة له في كل شيء الا في السلطة الشرعية التي منحه الله اياها . وهذه السلطة هي سلطة محدودة اودعها الله بيد الرجل لانه اقوى جسماً واوسع عقلاً ، غير انه قد توسَّع في هذه السلطة وأَوصلها الى حدٍّ غير معقول ، فتعست بذلك حالة المرأَة ، وتعست حالته هو ايضاً لتعاسة حال امرأَته . وذلك لأَن المرأَة التي يضطهدها زوجها او من له حقُّ الولاية عليها تنظر اليه نظر العدوّ الالدّ والاسد الكاسر . كما انه ينظر اليها نظر الحيوان الضعيف المهضوم الحقوق . وفي ذلك شقاء الحياة الدائم لكل منهما

المرأَة قد خُلقت لامرٍ هو اسمى من قضاء الشهوات والذلّ :

خُلقت لتكون قرينة الرجل ، وشريكة له في سعادته وبؤسه ، ومعينةً له في ترتيب منزله ، وتسهيل الامور التي لا يستطيع ان يفعلها .

خُلقت لتكون انيسة له عند الوحشة ، ومستودَعَ اسراره عند الخلوة ،

[illegible]

١ = الاسراف

هو التطرف في الإنفاق ، كأنْ ينفق ماله عَلَى ما يعني وما لا يعني ، وما يلزم وما لايلزم ، وهو صفـة من الصفات التي تناقض الفضيلة ٠ وهو الآفة التي تجتاح الثروة ، وتجعل صاحبها فقيراً بعـد الغنى ، ذليلاً بعـد العز ٠ فيصبح بعد ان كان طويل اليد في البذل عَلَى ما يحبُّ و يشتهي ، قصيرَ اليد ضيّق الصدر ، يتمنى الموت فلا يجد اليه سبيلا ، و يصدق عليه حينئذٍ المثل العامي : « العين بصيرة واليد قصيرة » وذلك أنه ينظر الى ما كان قد تعوَّده من المشتهيات والتوسع في الرفاهية ورغد العيش ، فيمدُّ يده ليتناوله فتقصر عن مناولته ٠ وما هذا القصر الاَّ قلَّةُ المال اوفقدُه ٠ فلو أنهُ استعمل الحكمة في الإنفاق : بحيث لايصرف المال الافيما يحتاج اليه ، لعاش عيشة راضية ، وحييَ حياة السعداء

ومن غريب امر المسرفين المبذّرين أَنهم لاينفقون اموالهم الافي سبيل الشهوات ، وتعاطي الملذات كصرفها عَلَى الغانيات ومساكن اللهو والمقامرة ، وغير ذلك من الاعمال المخلّة بالآداب ، المفسدة للاخلاق ، الهادمة اركان المدنية الحق

ولو أَجمع هؤُلاء المبذرون عَلَى انفاق تلك الاموال الوافرة ، في سبيل تعزيز الامة ، ورفع شأن الدولة ، لكان لنا اليوم اسطولان مهمان : اسطول نحارب به العدوَّ المحسوس فترهبنا الامم الاجنبية ، واسطول نحارب به العدوَّ المعنوي ، وما هـذا العدو المعنوي الا الجهل ، وما الاسطول الذي نحارب بهِ الا المدارس ٠ ولكن اين من يسمع فيعقل ،

فيعمل بما يعقل ؟

رأينا وسمعنا أَن كثيراً من الناس ورثوا ثروة عظيمةً عن آبائهم ، ثم لم تلبث هذه الثروة أن زالت في بضعة اشهر او بضع سنين ، حسبما تكون من حيث القلة والكثرة ، ثم رأَيناهم بعد ذلك وقد اكلت الهموم عليهم وشربت ، ونسجت عناكب المقت والذل علَى رؤُوسهم اكاليل الهوان والعيش النكد : « واذا أَردنا ان نُهلك قريةً أَمرنا مُترَفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول فدمَّرناها تدميراً »

أجل إنَّ الترف أو كثرة الغنى داعية الفسق والإِسراف • ولكنَّ المترَف لو عقل ، ونهج منهج العدل ، واتبع سنن الله في خلقه ، فانه لايغترُّ بما لديه من المال ، فينفقه كيفما اتفق : في امر مشروع وغير مشروع • بل يتخذ لنفسه نظاماً ، ويختطّ لها سبيلاً لايحيد عنها :

والدرهم الابيض وهو في يدي ينفعني في كل يومٍ اسود

للإِسراف سببان يرجعان الى سبب واحد وهو الغرور • فان غرور الانسان هو الذي يدعوه الى انفاق المال دون النظر في مغبة هذا الامر

والغرور اماً ان يكون بامرٍ محسوس ، وهو السبب الاول ، وإماً ان يكونَ بامرٍ معنوي ، وهو بالخيالي اشبه ، وتسميته بهِ أحقُّ

أَماً اغتراره بالمحسوس ، فأعني بهِ ميلَه الى الشهوات والترف وحبَّهُ اللهو • ذلك لأَن الانسان ميَّالٌ بطبيعتهِ الى الشهوات الجسمية ، وتضييع الوقت في العبث واللهو ، ولا يمنعهُ من ذلك الا شيئان : الاول طهارة النفس ، وهو المعبر عنه بالتقوى • وقليلٌ مَن تمنعه طهارة — متى كان قادراً —

عن نيل شهواته ، والثاني ضيق ذات يده · وهو الذي يجعل طريقه الى ما يميل اليه وعراً ، ولهذا قيل : « من العصمة ان لا تجد » وقال الشاعر :

كيف الوصول الى سعاد ودونها   قُلَلَ الجبال ودونهنَّ حتوف
الرجلُ حافيةٌ وما لي مركب   والكفُّ صفر والطريق مخوف

ومتى استسهل الطريق ، وانفرجت الأَزْمَة ، وحصل على مشتهاه من المال ، فإنه ينغمس في حمأة اللهو ، ويغرق في تيَّار الشهوات · قال الله تعالى: « كلاَّ إنَّ الانسان ليطغى أن رآه استغنى »

ومتى اعتاد المرء التبذير في تلك السبيل ، فهو يسلو كلَّ شيء من امور الحياة الاَّ ذاك · وليته يكفُّ عن غروره متى نفد ما لديه من المال النَّقْد ، بل إنه يعمد الى ما عنده من عقار فيبيعه ، وما لديه من تجارة فيجعلها كأمس الدابر ، حتى يصبح صفر اليدين ، فارغ الكفين

واغرب من ذلك أنه بالنظر لاستحكام العادات البهيمية في المسرفين فإنهم لا يكتفون بإنفاق المال النقد وبيع التجارة والعقار ، بل إنهم يلجأُون الى الاستدانة ، فيقعون تحت نير الدين ، ثم لا يتمكنون من ايفائه ، وانَّى لهم ان يوفوه وهم ينفقون دون ان يسعوا او يتفكروا في عمل يعملونه ؟ ومع ذلك فهم لا يتركون ما استعادوه ، واذا قيل لهم في ذلك، فهم لا يلوون علَى القائل بل يلومونه، ويضربون بنصيحته عرض الحائط · فالكلام معهم صيحة في وادٍ، او نفخة في رماد

لعمري انَّ من كانت حالتهم كما شرحنا ، فهم عُمي القلوب ، طائشو العقول ضائعو الاحلام ، لأَنهم لم يستعملوا تلك الجوهرة النفيسة — وهي

العقل — فيما وضعت لاجله · ولو كانوا عقلاء لضحكوا قليلاً وبكوا كثيراً ، ولفكروا في حالتهم ، وفيما تؤول اليه عاقبة شأنهم ومغبة امرهم : فان من تأمل في العواقب ، أمن من المصائب

أمّا اغتراره بانفاق الاموال تلقاء لذة معنوية — والأولى ان نسميها بالخيالية او الوهمية — فهو ان يسرف في سبيل الجاه وبعد الصيت · وذلك هو الشرف الكاذب والجاه الخادع ، لان الذي يعظمه ويحترمه لإنفاقه عليه والانتفاع منه ، لا يلبث ان يرجع عن مودته ، ويقلع عن احترامه ، متى انقطعت موارده عنه · ومن الغرابة بمكان ان كثيراً من هؤلاء المسرفين يسعون لاكتساب المال كيفما اتفق ، ليسدوا ثغوراً فتحها عليهم تطلّب الشرف الوهمي · وكثيراً ما يضعون في رقابهم نير الديون ، ثم يجتهدون لإيفائها فلا يستطيعون الى ذلك سبيلاً ، ولا يلبثون ان يفتضح امرهم وينكشف عوارهم ، ويشف ثوب ريائهم عما تحته ، ويتبدل نعيمهم بالبؤس ، ويتلوث جاههم الخلاب بحمأة الهوان ، ويتلطخ شرفهم الكاذب باوحال الذل

ومن هذا القسم مَن يبذل الاموال في سبيل الحصول على رتبة او وسام ، ليخاطَب او يكتب اليه بلقب آخره «لو» ويظن امثال هؤلاء أنّ المجد محصور بمثل هذه الرتب وحمل هاتيك الأوسمة · وما المجد الصحيح ، والشرف الرجيح ، الاّ مجد الاعمال العظام ، وشرف النفس الأبيّة ، التي لاتميل الاّ الى صالح الافعال ، ولا تنهج الا سواء السبيل

بقي علينا امرٌ واحدٌ ، وهو أن الاسراف في المبرات وفعل الخيرات ، هل هو من باب الإسراف المذموم ؟ والجواب عَلَى ذلك : انه لا خلاف في

انّ إنفاق الاموال علَى الخيرات والمبرات ، يختلف باختلاف اصل الثروة ، فربّ إنفاق عظيم لذي ثروة عظمى يعدّ اقتصاداً . ولو أنفق المالَ نفسه رجلٌ ثروته لا يعادل معدّلُها ما أنفق ، فانه يعدُّ إسرافاً بلا شبهة ، ولكنه ليس كالإنفاق علَى التمتع بالشهوات ، فانّ هذا مذموم علَى كل حال ، قلّ او كثر ، الاّ اذا كان علَى شهوة مشروعة فيحمد لها الإنفاق القليل ويذم الكثير

قيل لرجل مسرف : « لا خير في الاسراف » فقال « لا إسراف في الخير » وهذا جواب حسن لا بأس به من حيث الصناعة اللفظية ، ولكن لو نُظر فيه من حيث تطبيقه علَى قواعد الحياة لكان غير محفول به ، ان لم يرجع الى ما قدمناه آنفاً ، وهو أن الانفاق يجب ان يكون بنسبة اصل الثروة

واصل ذلك قوله تعالى : « وآتِ ذا القربى حقّه وابن السبيل ، ولا تبذّرْ تبذيراً . إنَّ المبذّرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً »

٢ = التقتير

هو التضييق في الإنفاق مع القدرة عليه ، فكما أنّ التبذير مذموم لأنه إنفاق علَى غير الحاجة ، فكذلك التقتير مذموم لأنّ فيه تضييقاً علَى النفس وعلَى العيال ، وهو داعٍ لأنْ يعيش المرء عيشة ضنكاً ، ويحيى حياة شقية . فالعاقل من يهتمُّ لأنْ يحيى حياة سعيدة لابؤس فيها ، لا أنْ يكنز الاموال في الصناديق والمصارف (البنوك) ويعيش عيشة الفقراء البائسين . ولا يعمل ذلك الا من سفه نفسه ، وأضاع رشده وحسه

وقد رأينا كثيراً ممن أنعم الله عليهم بالاموال الجمة يضنُّون عَلى انفسهم، حتى بأحوج ما يحتاجون اليه · وان دعوا الى بذل جزء قليل من مالهم لتعزير امتهم ، ورفع شأن دولتهم ، فكأنما مسَّهم طائف من الجن · وان قاموا لإعانة مشروع خيري ، فلا يقومون اليه الاَّ كما يقوم الذي يتخبَّطه الشيطان من المس

لِمَ اذن يجمع هؤلاء الناس الاموال ؟ أليأخذوها معهم الى الدار الآخرة ؟ فانهم لاياخذونها — ألاجل ان يتركوها تراثاً للوارثين ؟ فنحن لانطلب منهم ان ينفقوا عَلَى انفسهم وعَلَى الامة كلَّ اموالهم ، وانما نرغب اليهم ان يحسنوا معيشتهم، وأن ينظروا الى هذه الامة المسكينة بعين الرأفة والحنان ، فقد كفاها تأخراً وانحطاطاً

اذن فهم يجمعون المال للمال ، فهم اذن مجانين ، لأن العاقل يسعى وراء الشيء لا لذات الشيء ، وانما لما ينتجه ذلك الشيء من الفائدة العاجلة او الآجلة · والمال ان لم يستخدم و يستنتج منه الانسان فائدة لنفسه او قومه ، فهو بمنزلة الحجارة ، فلو جمع بدل المال حصى ، ووضعها في صندوقه لتمَّ له ما يريد ، لأنَّ في جمع كلا الشيئين عدم الفائدة :

والمال مثل الحصى ما دام في يدنا   وليس ينفع الا حين ينتقل

فالاسراف والتقتير مذمومان ، لانهما لا يُنيلان المرء سعادة الحياة· وبين هاتين الرذيلتين وسط ، هو الاقتصاد الذي يجعل الانسان سعيداً في حياته ، ذا رَغد وطمأنينة في معيشته

واصل ذلك قوله تعالى : « وأمَّا من بخل واستغنى وكذَّب بالحسنى

فسنيسّره للعسرى ، وما يغني عنه ماله اذا تردّى [١] » وقوله عز وجل : « ولا يحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم ، سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والارض ، والله بما تعملون خبير » وقوله : « ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه [٢] والله الغني وانتم الفقراء » وقوله : « ان الله لايحب من كان مختالاً فخوراً ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل »

٣ = الاقتصاد

هو فضيلة بين نقيصتين . وهو الحد الوسط بين الإسراف وبين التقتير او البخل او الشح . قال الله تعالى : « ولا تجعلْ يدك مغلولةً الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً » وقال عليه الصلاة والسلام : « ما عال [٣] من اقتصد » وقال : « الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة » وقال : « ثلاث منجيات : خشية الله في السر والعلانية ، والقصد في الغنى والفقر [٤] ، والعدل في الرضا والغضب » وقال : « من اقتصد أغناه الله ، ومن بذّر أفقره الله »

الفضيلة امر محبوب يريده كل انسان ، ولكن الناس كثيراً منهم من ضلّ الطريق الموصل اليها ، فهم يلتمسونها عَلَى غير هدى . فمنهم من يظن أنها في المبالغة في الامر ، ومنهم من يظن انها في التهاون فيه . فهم على

---

(١) تردّى : هلك (٢) ذلك لان ضرر البخل ونفع الانفاق عائدان عَلَى المرء نفسه (٣) عال : افتقر (٤) اي التوسط فيهما في الانفاق ونحوه

طرفيْ نقيض و « كلا طرفيْ قصد الامور ذميم » وقليل من يسلك قصد السبيل ويلتمسها في اوسط الامور ، وقد قيل : « حب التناهي غلط ، خير الامور الوسط » والوسط فيما نحن فيه هو الاقتصاد ، لانه يحمل المرء عَلَى ان لايضيّق عَلَى نفسه ، ولا عَلَى عياله ، ولا علَى أُمته التي يكسب من خيرها ، و يجني من ثمرات اعمالها ، و يحسّن اليه ان لاينفق امواله فيما لافائدة حقيقية فيه تعود عليه وعلَى أُمته

فالعاقل اذن من يسلك هذه السبيل ، و ينظر الى امواله نظر المستغني عنها المحتاج اليها • فان فعل ذلك كان سعيداً في ماله ، وعاش عيش الاغنياء ، وحيي حياة السعداء • قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اعمل لدنياك كأَنك تعيش ابدا ، واعمل لآخرتك كأَنك تموت غداً »

الاقتصاد : تدبير معقول يُقصد به انماء الثروة ، وهو قسمان : اقتصاد سياسي واقتصاد فردي او شخصي ، فالاول تدبير اجتماعي يقصد منه توسيع الثروة العامة : اي انماء ثروة الامة لتكون في حال حسنة من حيث المعاش والرفاهية ، ولتكون البلاد راقية علماً وصناعة وتجارة • ومتى اتسعت ثروة الامة تصير الحكومة غنية بما تناله من الافراد من الضرائب والاعانات • ومتى صار للحكومة مال نامٍ عظيم فانها تصرفه في ترقية البلاد ، وتحسين زراعتها ، وتوسيع صناعتها ، و إصلاح طرقها ، وتعليم ابنائها ، وغير ذلك مما تعود فائدته عَلَى الامة بالخير والنجاح

وأما الاقتصاد الفردي او الشخصي — وهو الذي نحن بصدده — فهو تدبير من شخص يُقصد به زيادة ثروته ، ليتمكن من ان يعيش عيشة راضية ،

وليدفع بذلك عن نفسه وعن أُسرتهُ غائلة الفقر والحاجة ، في الحال والاستقبال

والشرط في الاقتصاد ان ينفق أَقلّ مما يكسب ، ثم يعمد الى الباقي فيحمله بحيث يأْمن عليه · ولا فرق بين ان يكون الشيء الذي اكتسبه قليلاً او كثيراً فان القليل يكثر متى ضُمّ اليه قليلٌ مثله ، حتى يتألف منه مع الثبات عَلَى اقتصاده ثروة عظيمة يستعين بها المقتصد عَلَى نوائب الدهر وحادثات الزمان · فانّ المرء لايدري مايأْتيه به المستقبل ، لانه يجهل الغيب · فالدهر ابو العجائب ، وصروف الايام أُمها ، وحالة المرء بينهما ، يدفعها الاول فتلقّاها الثانية ، فتبقى حاملاً بها الى ان تتمخض ، ثم هو لايعرف ماذا تلد له ؟ أَحالة رضية ام حالة شؤْمى ؟ فان كان المرء عاقلاً فإنه يتقي صروف الدهر بما يحتفظ به من المال ليدفع عنه عواديها ·

كثير من الناس استغنوا بعد الفقر حتى صاروا من كبار الاغنياء · وما سبب غناهم الا الاقتصاد في المعيشة ، فقد كانوا يقتصدون جزأً قليلاً مما يكسبون ، و بعد مدّة توفّر لديهم مالٌ كافٍ ، فتاجروا به وربحوا ، وصاروا من اعاظم الاغنياء — ومن هؤُلاء جمهور عظيم من المثرين في امريكا واوربا ، وفي بلادنا منهم ايضاً قسم ليس بالقليل

غير ان كثيراً من الشبان عندنا لايلتفتون الى هذا الامر المهم ! فهم ينفقون كل ما يكسبونه ولا يدّخرون للايام القابلة شيئاً · ومن الغريب الذي يبكي العاقل أَنهم ينفقون تلك الاموال عَلَى شرب الخمور و بنات الهوى والميسر (القمار) وغير ذلك مما يجلب لهم الامراض وسوء السمعة في الحياة

الدنيا ، و يسبب لهم المقت في الدار الآخرة ·

وللاقتصاد وانماء الثروة طرق كثيرة:

اهمها ان لاينفق علَى شيء الا بقدر ما ينتفع منه ، وأن لا يقتني من المأكل والملبس ونحوهما الا ما يلزمه ، وان يعيش عيشة امثاله ، وحسب المكان الذي هو فيه ، وأن ينفق اقلّ مما يكسب ، وان يبتعد عن الاستدانة بقدر الامكان · فان كان لابدّ من ذلك فعليه ان يبذل الجهد لإيفاء الدين في موعده ، وان لايستدين الاّ ان كان واثقاً من إيفاء ذلك الدين في وقته المعين · فان عمل بما قدَّمنا بإتقان تام ، فتكون له بعد حين ثروة بنسبة اقتصاده واعتنائه

هذا ولا ينبغي في اقتصاد المال ان يكون في درجة البخل والتضييق ، كما يفعل بعض الناس مدَّعين أنهم انما يفعلون ذلك خشية الفقر ، لان عملهم هذا هو عين الفقر ، فهم من خشية الفقر في الفقر ، كما قال المتنبي :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

• • • • • • •

وخلاصة الكلام : أن سعادة المرء في ماله تكون في سلوكه السبيل الوسطى: بان لا يقتّر ولا يبذّر ، بل ينفق حيث يدعوه الانفاق ، و يمسك حيث يكون الإنفاق علَى غير جدوى ولا يكون منه فائدة · فمن سلك هذه السبيل عاش عيشة الهناء والرفاء ، وحيي حياة السعداء

واصل ذلك كله قوله تعالى: « ولا تجعلْ يدك مغلولةَ الى عنقك ، ولا تبسطها كلَّ البسط ، فتقعدَ ملوماً محسورا » وقوله عزَّ وجل : « والذين اذا

أنفقوا لم يسرفوا ولم يَقتروا[١] وكان بين ذلك قواما[٢] »

٥ = سعادة المرء في ولده

ان للزواج فوائد كثيرة ومنافع جلَّى · منها إحصانُ الزوجين وحملُهما عَلَى العفاف · ومنها استئناس كل واحد منهما بالآخر ، وبثُّهُ ما يلاقيه في حياته من فرح وسرور ، وهمّ وحزن ، فيُسرُّ المبثوث اليه لسرور صاحبه ، ويسلّيه عَلَى مصيبته ، ويخفّف عنه بعض ما في نفسه من هموم حياته

وان وراء ما ذكرنا وما لم نذكر من فوائده فائدةً ربما تعادل تلك الفوائد كلَّها ، الا وهي النسل والذرية — تلك التي لم يشرع الزواج الاَّ لأَجلها — فهي الجوهر والغاية ، وما سواها فهو العرض والوسيلة

والحكمة من ذلك ظاهرة ، وهي بقاء هذا النوع عَلَى سطح هذه الكرة الى الاجل المحدّد له ، والوقت المضروب لامتلاكه مرافقها ومنافعها · وهذه هي الحكمة العمرانية · واما الحكمة الاجتماعية ، فهي التضامن والتضامُّ ، والسير في طريق الاجتماع والمصلحة · والأَبوان أَحقُّ الناس بهذه المعاونة ، لسبق الفضل وسالف العهد المعنوي

فمتى بلغ الولد درجة العمل والخدمة يجدر به ان لا ينسى من ربَّياه صغيراً ، وحنَوا عليه طفلاً رضيعاً ، وسهرا لأَجله الليالي ، وكابدا اهوال الايام · بل يجب ان يفيهما حقوق الابوة ، ويقوم بواجب الذمة ، وينهض

(١) لم يسرفوا : لم يجاوزوا حدّ الكرم والاقتصاد · لم يقتروا : لم يضيقوا تضييق البخيل الشحيح (٢) قواما : وسطاً عدلاً · سمي بذلك لاستقامة الطرفين

الى أداء الدين . قال الله تعالى : « ولا تقل لهما أُفٍّ ، ولا تنهرْهما وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذُّل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا »

وانَّ من يتزوج ليرى نسلاً ، فانما يقصد من وراء ذلك ان يجد فيه سعادة الحياة ولذة العيش ، وليكون له في هذه الدنيا اليدَ الناصرة والقوة المعينة . غير أن الاولاد ليسوا كلهم سواء في هذا المعنى المقصود . بل منهم من طبع العقوق على قلبه ، وران الشقاء عَلَى وجدانه ، وامتلكت سوء الاعمال جوارحه . بل ربما كانوا شرًّا على آبائهم من الاعداء ، واشدَّ خصاماً من الالدّاء . وهذا أمر مشاهد محسوس . فاين تلك السعادة التي يتطلبها المرء من ولده ? بل اين هذا العيش الرغد الذي كان يأمله من وراء هذه الضالة التي كان ينشدها ?

— اجل ان طائفة كبيرة من البنين يكونون سبب شقاء آبائهم، ووسيلةً لنكد حياتهم ، واولئك ليسوا بالأبناء ، بل هم من الدّ الاعداء ، كما قال تعالى : « ان من اموالكم واولادكم عدوًّا لكم فاحذروهم »

غير أننا لو بحثنا عن سبب شقاء هؤلاء البنين لظهر لنا بعد الاختبار ان السبب الحقيقي هم الآباء ، ولولا هم لكان البنون اسعد حالاً مما هم فيه — واليك البرهان :

ينشأ الطفل فيهمله ابواه ولا يحسنان تربيته وتعليمه ، واذا رأيا منه خلقاً سافلاً او عملاً شائناً ، فلا يزجرانه عنه ، ولا يمنعانه عن اتيان مثله ، خشيةَ ان يبكي او ينفعل من الزجر . ثم يرسلانه الى المدرسة — هذا ان

كانا عَلَى شيءٍ من الإِدراك — ثم يخرجانه منها وقد نال قسماً من العلم ، وا كثر من يتخرج من المدارس يبقى عالةً عَلَى ابويه دون ان يسعيا لإِيجاد عملٍ يحفظ عليه مستقبل حياته ، فيظل شاباً فارغاً من الاعمال ، مضيعاً اوقاتهُ في اللهو · وهذه الحال تتطلب اموالاً كثيرة ، فتفسد اخلاقه ، و يصير الكسل عادة له ، كما قال الشاعر :

ان الشباب والفراغ والجدة   مفسدة للمرء ايّ مفسدة

فان كان ابوه غنياً عاش في ثروتهِ كما يعيث الذئب في الغنم · وان كان فقيراً تكلَّف من المشقة والنصب ما لا يطاق ، لأَجل ان يأْتي له بما يطيب به خاطره وتأْنس به نفسه ، لينفقه عَلَى شهواته وملذاته · وكلا هذين الأَبوين غير سعيدين في ولدهما ، بل يتمنيان ان لا يكون قد وجد

ومن الغريب المدهش ان بعض هؤلاء السفلة السفهة من البنين ، كثيراً مايشتمون آباءَهم وامهاتهم ، و يوجهون عليهم من اللعنة والسبّ ما لو نزل بالجبال لدُكّت هولاً ورهباً · بل قد يبلغ الجهل والسفاهة باحدهم انه يهدّدهما بالقتل ان لم يوافقاه عَلَى ما يريد ، و يعطياه من المال ما يشتهي · وكل ذلك من فساد التربية وضعف ملكة الاخلاق · وانَّ الأَبوين هما سبب هذا كله ، لذلك كانا غير سعيدين في ولدهما

ان من يهمل تربية ولده ، ويدعه يفعل ما يريد ، و يسايره فيما يميل اليه من الاعمال المضرة والمخزية ، و يعطيه ما يشاءُ من الاموال التي تعينهُ عَلَى ذلك ، وتكون سبب فساد اخلاقه واحواله ، لجدير بكل نقيصة ، وحريّ بان لا ينتظم في سلك الآباء ، لانهُ يسعى لحتفه بظلفه و يبحث عن مسببات

شقاءه بيده · فهو بعمله ذلك قد قاد نفسه الى البؤس ، وجرّ ولده الى عاقبة مشؤومة ·

وقد دلتنا التجارب ان من كان مثل هؤلاء الابناء يتمنون من صميم افئدتهم ان لو يموت آباؤهم ليرثوا ما لديهم من الاموال فيتمتعوا بها و ينفقوها عَلَى ما اعتادوه من الشهوات، وما أَلفوه من الرذائل

حدثني من اثق به قال : ان لبعض الاغنياء ولداً كان قـد ارخى له العنان ولم يربّهِ تربية صحيحة ، فنشأ الولد حتى شبّ مسرفاً في سبيل غير الفضيلة كما هو دأب اكثر نابتتنا · وكان كلما شبَّ تشبُّ معهُ عاداتهُ التي استعادها · فاتفق ان رآه والده واقفاً امام صندوق امواله الحديدي ، وهو يناجيه بهذه الكلمات التي تدل عَلَى مبلغ التربية التي رباه عليها والده :

«ايها الصندوق الحديدي متى أُسلَّم مفتاحك ؟ ايتها الاموال المودعة فيه متى تطلق يدي فيك ؟ اخبرني متى يموت والدي ، ذلك الشيخ الذي أَفناه الدهر ؟ متى اضمّك الى صدري ؟ متى تكونين لي الصديق الحميم ؟ اوّاه اوّاه !! » ولم يكد يصل الى هذا الحدّ من الكلام حتى شعر بأنّ اباه يستمع اقواله · فخجل ولم ينبس ببنت شفة · فقال له ابوه : تبًّا لك من ولد ، ولا نعمت عيناك من مولود ! — ونحن نقول له : تباً لك من ابٍ أَفسد اخلاق ولده ، وأَهمل تربيته حتى صار شرًّا عليهِ من الأَفعى ، واضرى من الضاري

لو أَحسن مثل هؤلاء الآباء تربية بنيهم ، وعوّدوهم الفضيلة ، ولم يتركوا لهم العنان لكانوا سعداء بهم ، وكان ابناؤهم لهم خيرَ معين

وقد نرى طائفة عظيمة من الاولاد عَلَى غير هذه الشاكلة ، فهم يستميتون لأجل آبائهم ، ويخدمونهم خدمةً صادقةً ، وما ذلك الاَّ لأنهم عرفوا مقام الابوَّة منذ صغرهم ، فعظَّموه في كبرهم

فعلى الابوين الاعتناء بتربية البنين وتهذيبهم وتعليمهم حتى يكونوا لهم عوناً عند الحاجة اليهم · وهناك يجدون لذة العيش بهم ، وسعادة الحياة معهم

ورد في الحديث الشريف : « لأَن يؤَدب الرجل ولده خيرٌ له من ان يتصدَّق بصاع » فهذا الكلام يرشدنا الى ان تربية الابناء هي خير من الصدقة ، وذلك لان الولد ان نشأ مهذَّباً كان نافعاً لأبويه وللناس اجمعين · فتربية الولد فيها درءٌ للمفسدة ، والصدقة فيها خير ومصلحة للمتصدَّق عليهم ، ودرءُ المفاسد مقدَّم عَلَى جلب المصالح

وقد ورد في الاثر واُعظُهُ لعمر رضي الله عنه : «أَشفق عَلَى ولدك من شفقتك عليه » ومعنى هذا ان المرء الذي لايعتني بتربية اولاده ، ولا يزجرهم عن شائن الفعل ، ولا يحملهم عَلَى ما فيهِ خيرهم ، شفقةً عليهم ورحمةً بهم ، لئلا يجدوا في انفسهم او يغاظوا بسبب زجرهم ، جديرٌ بهِ ان يشفق عليهم و يخاف من سوء عاقبتهم ، ومغبة تربيتهم الفاسدة ، فإشفاقه عليهم يحمله عَلَى تربيتهم وتهذيبهم ، وهو عين الشفقة عليهم والرحمة بهم · واما الشفقة المجرَّدة عن الإِشفاق الذي يدعو الى التعليم والتهذيب ، فليست من الشفقة في شيء ، وانما هي غشٌّ ومحبة كاذبة

ان الولد قطعة من الكبد او هو الكبد كلُّها ، فكما يغار المرء عَلَى كبده

ولا يفعل بها ما يؤذيها ، فحريّ به ان يكون مع ولده كذلك ، قال الشاعر :

وانمـا اولادنا بيننـا اكبادنا تمشي عَلَى الارض

. . . .

قد يرغب الرجل في تربية ولده ولكنهُ كثيراً ما لا ينال امنيتهُ ، وهذا ناشيء عن جهله بأصول التربية الصحيحة ، والطرقِ الموصلة الى البغية ، فيضرُّ بهِ من حيث أراد نفعهُ ومصلحته ، فينشأُ الابن عاقّاً فاسداً

وان خير وسيلة لبلوغ القصد هي تربية ملكة الفضيلة في نفسهِ ، وتعويدهُ الاعمالَ الصالحة ، بالحسنى والكلام اللين ، دون ان يستعمل القسوة والشدة الاَّ عند الحاجة الماسة · وقد يجدر بهِ ان يتغافل عن بعض اعماله ، و يوعز الى أُمهِ او احد اصدقاءه ان ينصح له وينبّههُ على خطإِه ، دون ان يعلم أنَّ اباه قد علم بذلك · ولا ينبغي ان يعرّفه أنه عالم بكثير من سيئاته لئلا تقلَّ هيبتهُ في نفسه ، ويذهب بعض احترامه واحتشامهِ من قلبه

وقد اعتاد كثير من الآباء ان يُضعفوا نفوس ابنائهم ، ويميتوا عاطفة إِبائهم ، وينزعوا اصول الحياء من قلوبهم · وذلك انهم يعمدون الى التطلع عَلَى كل عمل من اعمالهم ، فلا يغادرون صغيرة ولا كبيرة الا أحصوها · ثم يلجأون في مجازاتهم الى القوة والإِهانة والشتم والضرب ، وغير ذلك مما لاينبغي استعماله للمربّين · ولو أنهم اكتفوا من زجرهم بالنصيحة والارشاد وعوّدوهم ذلك ، لنزعت من قلوبهم الرذائل ، ومالوا الى المحامد · وهـذا امر ظهرت فوائده للعيان ، حتى صار لايحتاج في إِثباته الى برهان

قال معاوية : « اني لا استعمل سيفي حيث ينفعني سوطي ، ولا استعمل سوطي حيث ينفعني لساني ، ولو كان بيني و بين الناس شعرة ما انقطعت قطُّ : كنت اذا مدّوها أرخيتها ، واذا أرخوها مددتها »

وهكذا الولد والمربي ينبغي لهما ان لا يستعملا القوة حيث ينفعهما شديد القول ، ولا يستعملا شديد القول حيث ينفعهما ليّنه والموعظة الحسنة ، فمن نحا هذا المنحى في التربية ، وسار في هذه السبيل في التهذيب ، نجح نجاحاً باهراً ، وخلّص النشء مما هم فيه ، وحملهم على معالي الامور . و بمثل هذا أمرتنا الشرائع . والى هذه الوسائل أرشدنا العقل والاختبار . فايّ والدٍ اراد ان يكون سعيداً في ولده ، و يكون ولده عوناً له عند الشدة ، وتسليةً عند الرخاء فليسعَ الى تربيته تربية صحيحة . ولتكن تربيته اياّه عَلَى النحو الذي قدمنا ، و بالوسائل التي تقتضيها الحال

٦ = سعادة المرء في صحبه

ان صديق الصدق من كان معكْ ومن يضرُّ نفسه لينفعكْ
ومن اذا ريب الزمان صدعكْ شتت فيك شمله ليجمعكْ (١)

حياة الانسان في هذه الدنيا تعتورها العوامل المختلفة ، وتكتنفها الاحوال المتباينة ، وهو بين خير ذلك وشرّه يُطوى و يُنشر ، فكأنه المعنيُّ بقول الشاعر :

كُرَةٌ حُذفت بصوالجةٍ فتلقّفها رجلٌ رجلُ

---

(١) البيتان ينسبان للامام علي وللامام الشافعي رضي الله عنهما

ولما كان الانسان عَلَى هذا النمط من تأْثير عوامل الوجود فيه ، احتاج الى كثير من الوسائل التي يدفع بها ما يطرأ عليه من العوادي ، وما ينتابه من المشكلات

والوسائل في هذا الباب كثيرة منها المهمّ ، ومنها ما هو اكثر اهمية — ومن اهمها اصطفاء الاصدقاء ، واصطناع الاودّاء فانه بمصافاتهم والاعتماد عليهم ينفّس كثيراً من كرباته ، و يستسهل ما يصعب عليه من شؤُون حياته ، و يقوم باعمال جليلة عامة وخاصة ، لايستطيع ان ينهض بها منفرداً او معتمداً عَلَى غير من يثق بهم و يركن اليهم

والناس في اختيار الاصحاب متباينون شأْنهم في كل امر، لأَنَّ اكثرهم غافل عن سرّ الصحبة وما تستلزم من النتائج والفوائد ، فهم مساقون اليها بسائق الطبيعة ، لا بسائق العقل ، وشوق الوجدان لابشوق الحاجة والضرورة · وشتان ما بين هذه السوائق والاشواق · ولهذا ترى الناس لا يبالون باختيار الصاحب ، ولا يحفلون بانتقاء الصديق ، فهم يصادقون قبل الاختبار ، و إن اختاروا فلا يحسنون الاختيار · مع ان للصداقة شروطاً وللصحبة آداباً ، فإن أهمل المرء شرطاً منها كانت عاقبة تلك الصحبة و بالاً عليه

ألا و إن اهم شرط يجب عَلَى المتصادقين مراعاته ، هو ان يعلما علم اليقين أنَّ روح الصحبة هي ان يكون كل واحد منهما عوناً لصديقه في الضرّاء ، وأَنيسه في السرّاء ، وان يموت لموته و يحيى لحياته ، وان يأْلم لأَلمه و يهشّ لفرحه ، وأَن يساعده عند النوازل ، و يأْخذ بيده العثرات ، وان يدفع عنه

السوء بماله وجاهه وحياته · وتلك هي الصحبة الحق، والا فهي رياء وخداع، ونفاق وتزلّف · وليس ذلك من دأب ارباب المروءة، ولا من عادة الاحرار واصحاب الشرف

ان كثيراً ممن يدّعون الصداقة يسوقهم اليها طمع في جاه المصادَق او ماله، حتى اذا نفذت امواله، او حجب عنهم نَداه، او سقط من مركزه الذي كانوا يستظلون بظله، ولَّوا عنه مدبرين، كأَن لم يكونوا يعرفونه، فهم اذن اصدقاء ماله وجاهه، لا أَصحاب اخلاقهِ او علمه او فضائله · ومن كان عَلَى هـذه الشاكلة فهو عدوٌّ في صورة صديق، وانما حمله عَلَى الصداقة والإِخاء ما كان يأْمله من المنفعة

اذا العدوّ أَحاجته الاخا ءِعللٌ   عادت عداوته عند انقضا العللِ

إنَّ وجود الاصدقاء ضروري للانسان، غير أَنَّ اختيارهم اشدُّ ضرورة له، والاَّ كانوا اضرّ عليه مما لو عاش منفرداً · فإِن كان في اتخاذ الصحب منفعة للمرءِ ففي عدم انتقاءه اياَّهم ضرر كبير · ودرء المفاسد مقدَّم عَلَى جلب المصالح · فأولى له حينئذ ان يعيش فذًّا مستوحشاً، من ان تتوالى عليه النوائب ممن لايقدرون الصداقة حقّ قدرها

فوجب اذن عَلَى العاقل ان لايستخلص لنفسه الا المجرّبين، ولا يركن الاَّ الى المخلصين، الذين لايبيعونهُ عند الشدة بالثمن البخس، وأَنْ يحذر كل الحذر من اهل الرياء وارباب الزلفى، الذين يعرفونه عند الرخاء، وينكرونه عند الرجاء، وحلولِ الضراء · وذلك لايكون إلاَّ بتجربتهم قبل الاستخلاص، واختيارهم قبل عقد اواصر الصحبة :

ان الرجال صناديق مقفَّلة　　وما مفاتيحها غيرَ التجاريبِ

ومن حسن الاختيار ان يقلّل من الاصحاب ، ويضيّق شرط الانخراط في سلك صداقته ، فان التقليل من الاصحاب والاقتصار علَى الاخيار منهم امر ضروري كما قال الشاعر :

عدوّك من صديقك مستفادٌ　　فلا تستكثرنَّ من الصحاب

فان الداء اكثر ما تراه　　يكون من الطعام او الشراب

فمتى سار المرء في هذه الخطة المباركة ، واصطفى لنفسه من الاصدقاء من يركن اليه ويعتمد عليه ، كان سعيداً في صحبه ، وعاش عيشة راضية ، ونال هناءً وسعادة

ومتى ظفر بمثل من قدمنا من الاصحاب فليعضّ عليهم بالنواجذ . وليثبتْ علَى صحبتهم . ولا يقطع حبال مودتهم بالجفاء . ولا يكدر ماءَ ودادهم بالاذى . وليكن حسنَ الخلق معهم ، رحيماً بهم . فانَّ الأُلفة نتيجة الاخلاق وفضيلة من فضائلها . ولا تتوطد اركان المحبة والصداقة الاَّ اذا استحكمت حلقات الخُلق الحسن بين المحابين . كما أنَّ التفرق بين الاخلاَّء نتيجة من نتائج الخُلُق السّيء ، ورذيلة من رذائله

واعلم أنَّ الصداقة لاتدوم الاَّ اذا كانت خاليةً من كل شائبة ، ومنزهة عن كل غرض ماديّ . لأَنها معنى من المعاني التي لا تعلُّق لها بالمادة . فمتى خُلطت بها فسد جوهرها وكدر صفاؤه . والحب الذي يكون كما قدَّمنا هو الذي يسمونه الحبَّ لله ، ويمتدحونه اشدَّ الامتداح . وقد ورد في الحديث الشريف : سبعةٌ يظلُّهم الله في ظلّه يوم لاظل الا ظله : امامٌ عادل ، وشابٌّ

نشأ في عبادة الله عزّ وجلّ ، ورجلٌ قلبه معلّق بالمسجد اذا خرج منه يعود اليه ، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجلٌ دعتهُ امرأة ذات حسب وجمال فقال : اني اخاف الله ، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» وجاء في حديث آخر : « ان رجلاً زار أخاً له في الله . فارصد الله له ملكاً فقال : اين تريد ؟ فقال : أُريد ان أزور أخي فلاناً . فقال : لحاجةٍ لك عنده ؟ قال : لا . قال : لقرابةٍ بينك وبينه ؟ قال : لا . قال : فبنعمة له عندك ؟ قال : لا . قال فبمَ ؟ قال : أحبّهُ لله . قال فان الله ارسلني اليك يخبرك بأنه يحبك لحبّك اياه ، وقد اوجب لك الجنة »

ان الخليل اذا كان كمن ذُكر فهو الخليل الذي وجبت محبته ، وحقّت كرامته وجدر بالمرء ان يتمسك باذياله . وهذا هو الخليل الصالح الذي أراده صاحب الأثر بقوله : « من اراد الله به خيراً ، رزقه خليلاً صالحاً ان نسي ذكّره وان ذكّر اعانه » وبقوله : « مثل الاخوين اذا التقيا مثل اليدين تغسل احداهما الاخرى » والاخوّة علَى هذه الصورة هي داعية الأُلفة وبريد الاتفاق . اذ لا اخوة بلا أُلفة ، ولا صداقة بغير اتفاق . لهذا ورد كثير من الآثار والاخبار في الترغيب بالأُلفة والحض علَى تحسين الاخلاق التي هي مقدمة لها . وقد جاء في الحديث الشريف : انّ اقربكم مني مجلساً يوم القيامة ، أحاسنكم اخلاقاً ، الموطّؤون اكنافاً ، الذين يألفون ويُؤلفون »

ومن دواعي الأُلفة ان يكون بين الصديقين مشاكلة في الطباع ، ومناسبة في الاخلاق ، لانّ شبيه الشيء منجذب اليه . ولذا ورد في الحديث :

« الارواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » فالتناكر نتيجة التناسب · والائتلاف والاختلاف من فواعل القلوب · والارواح البشرية التي هي النفوس الناطقة مجبولة عَلَى ضرائب مختلفة وطباع متباينة · فكلُّ ما تشاكل منها في الصفات والاخلاق تعارف واتفق ،وكل ما تباين وتناكر منها اختلف وتفرّق · فالمراد بالتعارف هو ما بين النفوس من التناسب والتشاكل · والمراد بالتناكر مابينها من التنافر والتباين · وكل ذلك بحسب ما جُبلت عليه من الاخلاق وما اكتسبته من الصفات

لذلك وجب اختيار الصديق قبل الركون اليه · والاَّ آلَ امرُهما — مهما طال — الى الشقاق وقطع اواصر الصداقة · قال الشاعر :

وقائـلٍ كيف تفارقتما   فقلت قولاً فيه إِنصافُ
لم يكُ من شكلي ففارقته   والناس أشكال وأُلاَّفُ

ومن نظر الى ما يقع بين الاصدقاء من الشقاق ، وما تنتجه تلك الصداقة من النفاق ، يحكم أَنَّ سبب ذلك انما لأَنهم لم يراعوا حقَّ الصحبة ، ولم يبنوا صداقتهم عَلَى اساس مكين · او أَنهم اصطحبوا عَلَى غير ما يفيد ، وتعاهـدوا عَلَى امور ليست من المروءَة في شيءٍ · واكثر من نرى من الاصدقاء ليسوا الا ذؤباناً ووحوشاً لبست لباس الصديق · وكثير منهم انما اتفقوا عَلَى المنكرات ، وسافل الاخلاق والعادات ، حتى اذا انقضى ما أَرادوا ، رجعوا متباينين ، وانقلبوا خاسرين

· · · · · · ·

وصفوة القول : ان من اراد ان يكون سعيداً في صحبه فعليه ان يختار

منهم من اجتمعت فيه امور خمسة ، اساسها مشاكلته اياّه لان الجنس ميال الى الجنس · وان يكون ذا عقل موفور فانّ الاحمق لايمكن ان تدوم صحبته · وان يكون له وجدان يحمله على فعل الخير ، ويربأ به عن موارد الشر · وان يكون محمود الاخلاق ، مرضيّ الافعال ، مُؤثراً للخير آمراً به ، كارهاً للشر ناهياً عنه ، فانّ مودة الشرير تكسب الاعداء ، وتفسد الاخلاق · وان يكون في كل من المتصادقين ميلٌ الى الآخر ، ورغبة صادقة في المؤاخاة · فانّ بذلك كلّه دوام الصحبة ، وإحكام رَوابط الأُلفة

ومتى وجد المرءُ صديقاً استكمل شروط الصداقة ، فلا ينبغي ان ينقّب عن زلاّته ، ويبحث عن هفواته ، فان هذا من دواعي حلّ اواصر المودة · بل يجب عليه ان يتجاوز عن خطاءه ، وان يُسبل المعذرة على ما يفرط منه ، لأنه انسان والانسان بطبيعته يخطئ ويصيب ، واي امرئٍ ليس فيه عيب ؟ فإنْ حاول احد ان يحمل الناس عَلَى التجرُّد من كل عيب ، فقد ركب مركباً خشناً ، وطلب مُرتقى وعراً · لانه بتلك المحاولة يريد ان يخرجهم من الطور الانساني الى الطور الملكوتي ، وهذا ما لايقدر عليه المحاول · ومن رام صديقاً لاعيب فيه ولا تصدر عنه هفوة ، فقد طلب العزلة والحياة منفرداً قال، الشاعر :

تريد مهذَّباً لا عيب فيه   وهل عود يفوح بلا دخان ؟

وقال النابغة الذبياني :

ولستَ بمستبق اخاً لا تلمُّهُ   عَلَى شَعَثٍ ايُّ الرجال المهذَّبُ

وقال بشار بن برد وقد اجاد :

اذا كنتَ في كلّ الامور معاتباً صديقك لم تلقَ الذي لاتعاتبهْ

وان انت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت واي الناس تصفو مشاربهْ

ومن ذا الذي تُرضي سجاياه كلُّها كفى المرءَ نبلاً ان تُعدّ معايبهْ

فعش واحداً اوصل اخاك فإنهُ مقارفُ ذنبٍ مرةً ومجانبهْ

ومن نحا هذا المنحى من المجاوزة عن هفوات الاخوان والإغضاء عن سيئاتهم فقد أراح نفسه من عناء العتاب ، وأنزل عن عاتقه اوقاراً من الهم تنوء بها الراسيات · نعم ان وفرت جرائمهم ، وعظمت اساءتهم ، حتى غلبت سيئاتهم علَى حسناتهم ، فليسوا حينئذٍ بالاخوان الأُلى ينبغي الثبات عَلَى ولائهم ومصادقتهم · بل يجب نبذُهم بعد تنبيههم وعدم ارعوائهم ، وأُولئك هم من اللئام الذين قال فيهم المتنبي :

اذا أَنت اكرمت الكريم ملكته وانْ انتَ اكرمت اللئيم تمردا

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى مضرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

اقوال في هذا الباب

قال بعض الادباء : «لا تصحبْ من الناس الاَّ من يكتم سرَّك ، ويستر عيبك ، وينشر حسنك ، ويطوي سيئتك · فان لم تجده فلا تصحب الاَّ نفسك » وقال بعضهم : « الناس اربعة : فواحد حلوٌ كلُّه فلا يُشبع منه ، وآخرُ مرٌّ كلُّهُ فلا يؤكل منه ، وآخر فيه حموضة ، فخذ من هذا قبل انْ يأْخذ منك ، وآخر فيه ملوحة فخذ منه وقت الحاجة فقط » وقال جعفر

الصادق رضي الله عنه : لا تصحبْ خمسةً : الكذابَ فانك منه عَلَى غرور ، وهو مثل السراب يقرّب منك البعيد، ويبعد منك القريب ، والاحمق فأنك لستَ منه عَلَى شيء : يريد ان ينفعك فيضرّك ، والبخيل فانه يقطع بك احوج ما تكون اليه ، والجبان فان يُسلمك ويفرّ عند الشدة ، والفاسق فانه يبيعك بأكلة او اقلّ منها ، فقيل : وما اقل منها ؟ قال : الطمع فيها ثم لا ينالها

قال الجنيد : « لأَن يصحبني فاسق حسنُ الخلق أحبُّ اليَّ من ان يصحبني قاريء سيء الخلق » والمراد بالقاريء الفقيه العالم

وقال سهل بن عبد الله التستري : « اجتنب صحبة ثلاثة اصنافٍ من الناس : الجبابرةِ الغافلين ، والقرّاء المداهنين ، والمتصوفين الجاهلين »

وقال المأمون: « ان الاخوان ثلاثة : احدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه ، والآخر مثله مثل الدواء يُحتاج اليه في وقت دون وقت ، والثالث مثله مثل الداء لا يحتاج اليه في وقت ، ولكنّ العبد قد يبتلى به وهو لا أُنس فيه ولا نفع »

وقال المؤمل الشاعر

الناس شتى اذا ما أَنت ذقتهم لا يستوون كما لا يستوي الشجرُ
هذا له ثمر حلوٌ مذاقته وذاك ليس له ظلٌّ ولا ثمرُ

وقال ابو ذرّ رضي الله عنه : « الوحدة خيرٌ من جليس السوء ، والجليس الصالح خيرٌ من الوحدة »

وقال الشاعر

انّي لآمنُ من عدوٍّ عاقلٍ   وأَخافُ خلاً يعتريه جنون
فالعقل فنٌّ واحد وطريقهُ   أدري فأرصدُ والجنون فنون

وقال ابو الفضل علقمة العطاردي لابنه موصّياً اياه حين حضرته الوفاة · وقد جمع في قوله هذا جميع حقوق الصحبة : « يابنيَّ اذا عرضت لك حاجة الى صحبة الرجال فاصحب من اذا خدمته صانك ، وان صحبته زانك وان قعدت بك مؤونة مانك · اصحب مَنْ إذا مددتَ يدك بخيرٍ مدّها ، وان رأى منك حسنةً عدّها ؛ وان رأى سيئةً سدها · اصحب من اذا سألته أعطاك ، وان سكتَّ ابتداك ، وان نزلت بك نازلة واساك · اصحب مَنْ اذا قلت صدّق قولك ، وان حاولتما امراً امّرك ، وان تنازعتما آثرك »

وقال عدي بن زيد :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكلُّ قرين بالمقارن يقتدي
اذا كنت في قوم فصاحب خيارهم   ولا تصحب الاردى فتردى مع الردى

وقال آخر :

اذا ما كنتَ متخذاً خليلاً   فلا تثقنْ بكل اخي إخاء
فان خُيرت بينهم فألصقْ   باهل العقل منهم والحياء
فان العقل ليس له اذا ما   تفاضلت الفضائل من كفاء

وقال الماوردي : « الاخوان اربعة : منهم من يعين و يستعين · ومنهم من لا يُعين ولا يستعين · ومنهم من يستعين ولا يعين · ومنهم من يعين ولا يستعين · فأماَّ المعين والمستعين ، فهو معاوض منصف يؤدي ماعليه

و يستوفي ما له ، فهو كالمقرض يسعف عند الحاجة و يسترد عند الاستغناء ، وهو مشكور في معونته ، ومعذور في استعانته ، فهذا اعدل الاخوان · وأَمَّا من لا يعين ولا يستعين ، فهو متروك ، قد منع خيره وقمع شره ، فهو لاصديق يُرجى ولا عدوٌّ يخشى · وأَما من يستعين ولا يعين ، فهو لئيم كَلٌّ ، ومُعان مستذل ، قد قطع عنهُ الرغبة ، و بسط فيه الرهبة ، فلا خيره يُرجى ولا شره يؤْمن ، وحسبك مهانةً من رجل مستثقل عند إقلاله ، و يستقلُّ عن استقلاله ، فليس لمثله في الإِخاء حظٌّ ، ولا في الوداد نصيب · واما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع ، مشكور الصنع ، وقد حاز فضيلتي الابتداء والاكتفاء ، فلا يُرى ثقيلاً في نائبة ، ولا يقعد عن نهضةٍ في معونة ، فهذا اشرف الاخوان نفساً واكرمهم طبعاً ، فينبغي لمن أَوجد له الزمان مثله — وقل ان يكون له مثل، لأَنه التبرُ الكريم والدرُّ اليتيم — أَن يثني عليه خنصره ، و يعضّ عليه ناجذه ، و يكون اشدّ ضنًّا منه بنفائس امواله ، وسنيّ ذخائره · لان نفع الاخوان عام ، ونفع المال خاص · ومن كان اعمّ نفعاً فهو بالادخار احق

· · · · · · ·

هذا غيض من فيض مما ورد في الصحبة وآدابها · وما شرحناه وَشَلٌ من غمْر لا يُدرك له قعر . وفيه كفاية لمن عمل به ليكون سعيداً في صحبه

دلائل التوحيد

ظهرت الاديان ، وظهرت بظهورها الاحزاب ، فمن عاضدٍ لها ، ومن عاملٍ عَلَى خرابها ، شأن كل جديد

الاديان منها السماوية ، ومنها الوضعية . فالسماوية اصل الخير في الدارين وسعادة من اتبعها في الحياتين . وقد كانت معارضتها والقيام ضدّها من الذين طبع الله عَلَى قلوبهم ، فهم لا يفقهون كثيراً . فلهذا تصدّى اقوام من اهل كل دين لدفع الشُّبَهِ التي تورد عليه من الملحدين . وكانت تلك المدافعات عَلَى حسن الزمان ومعلومات اهل الوقت

وقد اصاب الدين الاسلامي ما اصاب غيره من الاديان . فقد وجد له في كل زمان نفرٌ يوردون الشبه عَلَى قواعده وعقائده ، خصوصاً بعد أن تُرجمت كتب الحكمة من اليونانية الى العربية ، وتلقّى المسلمون العلوم الفلسفية وبرعوا فيها . وقد درس افاضل علماء الدين تلك العلوم درساً متقناً فاجادوها ، حتى عُدُّوا من المجتهدين فيها ، ومن اعاظم رجالها . وذلك لردّ ما يورده بعض الملحدين عَلَى عقائد الدين التي جاء بها الكتاب . وقد أَلفوا في دفع الشبهة عَلَى طريقة الفلاسفة كتباً كثيرة في كل زمان . اما في عصرنا هذا العصر الذي هُذّبت فيه الفلسفة ، وأُسندت قواعدها عَلَى البراهين المحسوسة ، وتغيّر كثير مما كان قاعدة مسلَّمة عَلَى المتقدمين من الفلاسفة فقد احتاج الامر الى تآليف جديدة عَلَى طريقة فلاسفة العصر

للردّ عَلَى الملاحدة الذين كثروا كثرةَ الجراد خصوصاً في البلاد الاوربية . وقد سرى لبلادنا شيءٌ من ذلك فعمَّ كثيراً من اصحاب الملل المختلفة ، خصوصاً بعض الشبان الذين ينكرون كثيراً من اصول الاديان المسلَّم بها : كوجود الآله والنبوات ، لمجرَّد أنهم سمعوا أن الفيلسوف الانكليزي او الفرنساوي مثلاً قال بانكارها . ولو طالبتهم بأدلَّتهم عَلَى ذلك لوجموا ساكتين ، ولم ينبسوا ببنت شفة . وما ذلك الاَّ من التقليد الأَعمى الذي عمَّ البلاد واضرَّ بالعباد

عَلَى أنَّ كثيراً من هؤلاء الفلاسفة رجعوا عن كثير من معتقداتهم، وظهر لهم بالادلة الساطعة خطأُ ما كانوا يعتقدون من انكار الصانع وعظمته، كما تشهد بذلك مؤلفاتهم

وممن تصدَّى في هـذا العصر لدفع تلك الشبه بالادلة العقلية ، والشواهد الفلسفية والطبيعية ، السيد جمال الدين الافغاني ، وشيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، والسيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار وغيرهم من افاضل علماء المسلمين . وقد حذا حذو هؤلاء الافاضل الاستاذ الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي المشهور بعلمه وفضله وغيرته ، فأَلف كتاباً من احسن المؤلفات في هذه الموضوعات ، وهو ذو العنوان المفتتح به صدر هذا المقال . وجرى فيه مجرى الباحث الناقد ، والفيلسوف الخبير ، وأبان بأوضح مقال أنَّ الدين لاينافي العقل ، وأنهما متحالفان لامتخالفان . وايَّد بالادلة العقلية الدامغة ، والبراهين العلمية والفنية والطبيعية العصرية ، إثباتَ الصانع سبحانه وصحة النبوَّات ، وغير ذلك من الاصول والعقائد التي

جاءت لأجلها الانبياء · فالكتاب من خير الكتب التي أُخرجت للناس في هذا العصر · جزى الله مؤلفه خير الجزاء

ام القرى

اى ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الاسلامية
المنعقدة في مكة المكرمة سنة ١٣١٩

الاستبداد اثرٌ من آثار النفوس ، تظهره الى حيّز الوجود متى استطاعت الى ذلك سبيلاً وكل امرىء يحب السلطة والاستعباد والظلم ، وكلّ مايشمخ بانف الانسان ، ويجعله مهيباً عند الناس ، مسلطاً عليهم · غير أنّ القوم في ذلك على انواع ومراتب ، وحسب ما في نفوسهم من الاخلاق وما تكنّه من صفات الخير :

الظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفةً فلعله لا يظلم

وهذه العلة إمّا ان تكون خلقاً حسناً يتغلب على خلق الظلم الشر ، وامّا ان تكون قوة اعظم من قوته تغل يده عن استعباد الناس والاستبداد بهم

على هذا درج الملوك والحكام : منهم الظالم المستبد ، ومنهم العادل الذي تمنعه اخلاقه الطاهرة عن مباشرة عملٍ يضرّ بالأُمة التي يحكمها · وكان يوجد في كل أُمة تستبد أُمراؤها ، وتظلم ملوكها ، وتتجاوز العدلَ خلفاؤها قومٌ مصلحون أُولو غيرة على امتهم ، قد نفخت فيهم الأنفة وعدم الرضوخ للذل

روحاً عالية دعتهم لتأليف الجميعات السرية من عقلاء قومهم ، ليتآمروا فيما بينهم عَلَى كسر قيود سلطة الامراء والحكام ، وكفِّ يدهم عن الاستبداد بالرعية . ولا حاجة بي الآن لذكر تاريخ هذه الجمعيات وتعدادها . وانما هي مقدمة لكلام حالتنا الحاضرة ، وذكرِ بعض رجال النهضة السياسية لهذا العهـد

اشتدت وطأة الاستبداد في البلاد منـذ ثلاثين سنة ، حتي وصلت الرعية الى حالة فضّلت بها حكم الاجنبي . فلما رأى احرار الامة والرجال المفكّرون فيها ما آلت اليه حالة الدولة ، وما فشا فيها من استبـداد الحكام والامراء ألَّفوا الجمعيات ، وجمعوا العصابات ، وصاروا يفتكرون بالوسائل التي تغلّ يد الحاكم المطلق عَلَى استبداده ، وتوقف كلّ انسان ظالم عند حده . ولم يكتفوا بذلك بل كتبوا الرسائل وانشأُوا الجرائـد ، وألَّفوا الكتب ونشروها بين طبقات الامة ، لتعرف مالها وما عليها ، فانتشرت بـذلك الافكار الحرة ، واستنارت الشعوب

وكان من هؤلاء الرجال العظام السيد عبد الرحمن الكواكبي الشهير صاحب كتاب طبائع الاستبداد و (ام القرى) فقد ذكر في الاول الاستبداد ونتائجه ومفاسده وحثّ الامة عَلَى التنبه لداءه قبل استفحال امره ، ونسفهِ البلاد ، وإهلاكه العباد . وذكر في الثاني (ام القرى) الداء وبين الدواء وطُرقَ الاصلاح الحقيقي من ديني وسياسي ، وجعله عَلَى اسلوب يشوق المطالع ، فتخيل ان هناك جمعيةً كانت تجتمع في ام القرى (مكة) ويتذاكر اعضاؤُها المتخيَّرون من كل البلاد الاسلامية فيما جلب عَلَى الامة هـذه

الأدواء ، ويذكر كل منهم ما يخطر له من الدواء ، الى غير ذلك من المباحث العالية ، والافكار السامية ، وقد طبع هذا الكتاب عدة مرات . وكانت مجلة المنار الاسلامية قد عُنيت فيه وهذبت بعض موضوعاته باذن المؤلف رحمه الله .

مجالس الامة

قُضي الأمر وأُعيد القانون الاساسي القاضي باعادة مجلس الامة ، المعبَّر عنه بمجلس المبعوثان ، بعد ان بقي في طي الخفاء زهاء ثلاث وثلاثين سنة

الحكومات منها المطلقة ومنها المقيدة ، واكثر الحكومات المطلقة مستبدَّة قلما يرجى منها خير ، لأنها تكون تابعة لرأي واحد ، والرأى المفرد كثير الخطأ إنْ لم يعزَّزْ بالشورى . لهذا كانت الحكومات المقيَّدة التي لاتعمل عملاً الا برأْي الامة ومشورتها اكثر نجاحاً واسلم عاقبة

فالشورى اساس النجاح في الاعمال ، وعليها يتوقف رقيُّ الامة والدولة في معارج التفويق عَلَى سائر الحكومات والامم

خذ مثلاً الامة الاسلامية التي كان أَمرُها شورى بين افرادها ، لايستطيع اميرها ان يستبدَّ برأيه ، ولا ان يستأْثر بعمل يعمله دون ارادة الامة وإِقرارها عليه . بل ان نبيها الاكرم ، ورسولها الاعظم ، لم يكن يعمل

عملاً دون مشورة اصحابه واستطلاع ما عندهم ، وقد كان يقول لهم : أنتم أعلم بإمور دنياكم »

هذه الأُمة التي كان شأنها ما تقدم خطت في ربع قرن خطوة عظيمة كانت موضوع اعجاب العالم ، حتى حُسبت من خوارق العادات . وما زال امرها في نفوذ ، وشأنها في ارتفاع ، وفتوحاتها في اتساع ، بفضل عدلها وعدم استبداد أُمرائها . فلما اختلفت القلوب ، وتحوّلت الغايات ، وانقسمت الحكومة واستبدّ كل امير بمن تحت سلطته ، وانحلّت الشورى ، اخذ ظلّ هذه الدولة بالتقلص ، ولولا أن الله كان يرسل لها من يجدّد لها امرها ، لكانت اليوم في عداد الهالكين

نعم كان يأتي في اثناء كل فترة من فترات الاستبداد حاكم عادل يقيم الاحكام العادلة ، وينهض بالأُمة من درجات التأخر إلى يفاع التقدم

وكان من تلك الفترات هذه الفترة التي دامت زهاء ثلاثة وثلاثين عاماً لا نرى فيها إلاّ ظلاماً محدقاً بنا ، وظلماً واستبداداً واضطهاداً لمن أحب العدل واراد أن يرجع بالأُمة إلى سالف عهدها

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها   فُرجت وخلت بانها لا تفرج

نعم ضاقت علينا المذاهب وسُدّت امامنا الطرق ، حتى بلغ السيل الزُّبى ، ووصل الامر الى المنتهى ، وحشرجت الروح في التراقي . غير أن الله ارسل اولئك الاحرار لإعادة الشورى والعدل ، وإبادة الاستبداد والظلم بسيوف الجنود الاخيار الاحرار فكانوا هم المجدّدين لذلك العهد الذي كانت

الأُمة فيه رائعة في بحبوحة الترقي والتقدم

فعاد بذلك عَلَى الأُمة مجدها ، ورجعت إلى سالف عهدها ، وحكمت نفسها بنفسها ، وخلعت عنها نير الحكم الاستبدادي الذي كان محيطاً برقابها

كيف تحكم الأُمة نفسها بنفسها ؟

— تحكم الأُمة نفسها بنفسها بان ترسل عنها نواباً يتكلمون بلسانها ، ويذكرون حاجاتها في مجلس الأُمة ، وكل امرٍ يقرّره رجال المجلس فهو الذي يكون ، ورجال المجلس قد نُصبوا بإرادة الأُمة واشارتها ، وبذلك يكون كل فردٍ من الأُمة قد حكم نفسه بنفسه

فعلى المبعوثين يتوقف نجاح الأُمة ، ورجوعها إلى طورها الاول : طور العدالة والحكم الشوروي الذي يُرجى ان نرى من آثاره إن شاء الله ماتقرُّ به العينان ، ويحيي به ميت الشعور ، ويثلج به الفؤاد

فإلى المبعوثين عامة ، والى مبعوثي سورية خاصة ، والى مبعوثي بيروت عَلَى الوجه الاخص اوجه الكلام :

ايها المندوبون ! انَّ الشعب العثماني منتظر منكم ان تعملوا اعمالاً تحوّرون بها تلك الصحائف السوداء ، وتمحون بها اعمال اولئك الخائنين الظالمين ، الذين أَهلكوا الأُمة ، ورموا بها في مهاوٍ سحيقة كادت تقضي عليها ، لولا ان تداركها الله بلطفه ، فلا تضيعوا ايها المندوبون هـذا الرجاء ، ولا تخيبوا تلك الآمال

ان الشعب وضع ثقتـه فيكم فهو يأمل منكم ان تمثّلوه في ذلك الموقف

الرهيب، وتنوبوا عنه بالدفاع عن حقوقه ، والذود عما يلزمه من وسائل الترقي حتى يضاهي اعاظم الشعوب

يطلب الشعب منكم أُموراً كثيرة ، واهمها العلم ، و بذل الجهد وراء تكثير المدارس الوطنية واعلاء شأنها ، لتخرج نابتة يفتخر بها ، فتكون رجالاً في مستقبل حياتها ، تخدم الامة والوطن والدولة بكل صدق واستقامة

فشدوا العزيمة وقوّموا العزم على خدمة الامة خدمةً صادقةً ، لايشوبها رياء ، وليس وراءها غاية خاصة

ايها المبعوثون ! انا اعتقد اعتقاداً جازماً أنكم لستم كلكم من الاحرار الذين نأمل ان نجني من حدائق افكارهم وآرائهم ثماراً يانعة ، يتغذى بها الوطن ، فتكون سبب رقيه ونجاحه . بل ان منكم مندوبين ممن أسعفهم الحظ ودفع المال او الوجاهة في قومهم بارتقاء كرسي هذا المجلس وصعود منبر الخطابة فيه . وهو غرٌّ جاهل او خائن للوطن والامة . فعليكم ان تراقبوا احوالهم وترمقوهم ابداً بعين الحذر

سيكون بينكم قوم مرتشون يبيعون الامة والوطن بدريهمات قليلة . و إن الرشوة ربما تكون في ذلك المجلس اكثر منه في سائر دوائر الحكومة حتى في الزمن السابق زمن الظلم والاستبداد . فاحذروا ان يغركم الاصفر الرنان ، فتحيدوا عن منفعة الاوطان

لاتغتروا بما يوجه اليكم ليصدف بكم عن احقاق الحق وازهاق الباطل ، فخدمة الامة والبلاد خير لكم ايها المندوبون الكرام

لا يغرُرْكم المنصب الذي انتم فيه ، فيشغلكم الظاهر عن الباطن ،

والقشر عن اللب · ولا يستميلنّكم منصب او وظيفة ، فتتركوا خدمة الامة لاجلها · فالأُمة اختارتكم لتكونوا خادمين أمُناء لها ، لالتكون آلة لكم تستخدمونها للحصول عَلَى مآربكم

فعليكم بالحزم والثبات ، و إبداء الآراء الحسنة ، وأُجتناب الكلام قبل التفكر والتدبر وقتل الامر الذي تتكلمون فيه علماً · فان فعلتم ذلك فبكم نفتخر ، وبكم نرقى ، و بكم ننال ما نريد

وفّق أُلله جميع المندوبين الى ما فيه صالح الامة ونجاحها وخيرها ، واسأله سبحانه ان ينزّه قلوبهم من درَنِ الغايات والمنافع الشخصية انه سميع مجيب

المال والشرف

الناس في هذا العالم اقسام شتى ، وانواع متباينة · مختلفة اطوارهم ، غير متفقة آراؤهم · وحملُ الناسِ عَلَى السير في مذهب واحد ، وإجبارُهم عَلَى الاتفاق في رأيٍ ما ضربٌ من المحال

فمن الناس من يميل الى امرٍ فيه رفعة قدره وخيره الحقيقي · ومنهم من يُقدم عَلى اقتراف شيءٍ فيه ربحٌ مادي ، غير أَنه يسقطه من الهيئة الاجتماعية ، و يلبسه ثوب الخزي والعار ، وهو لاينظر الى الشرف وعزة

النفس ، إن كان في ضدّهما كسب المال ، ولو مما هبّ ودبّ . فلو أردت ان تحمل مثل هذا الرجل على ترك هذه الخطة ، وتجبره عَلَى سلوك الطريقة المثلى — ولو أضرّت ببعض ربحه المادي — لنظر اليك شزراً ، وربما رماك بما يغيظك من الكلمات . فأجدر بمثل هذا الانسان ان يُنبذ ظهريّاً ، وان يسقط من الجامعة الانسانية . اذ الانسان باخلاقه الفاضلة ، وصفاته الكاملة . لا باموإله الوافرة ، ووجاهته العظيمة .

عَلَى ذلك درج الرجال العظام ، وفي تلك السبيل القويمة مشى العقلاء المفكرون . لهذا نرى اسماءهم تُذكر والعظمة والإجلال حليفان لها . أمّا من خالف هذا المبدأ الشريف ، فحدّث ولا حرج عما يناله من السخط العام والاستهزاء به متى ذُكر او خطر عَلَى بال احد

ايها البائع شرفه بالمال : لو كان لك عقل يفكّر ، او وجدان يتألم ، لعدلت عن هذه الخطة وتنكبت تلك الطريق

انّا نعلم كثيراً لديهم من الاموال ما لايعلم عدده الاّ الله ، ولكن لانرى في انفسنا ميلاً اليهم ، بل هم محتقرون في اعيننا . مرذولون في كل نادٍ وجدوا فيه . وما ذلك إلاّ لأنهم يبذلون الجهد لاكتساب المال من كل مصدر ، ولو اضرّ ذلك بديانتهم وأمتهم ، لانهم لايعملون الا ما يفيدهم ليس الاّ . ومع ذلك فلو طلبت من احدهم اعانةً تفيد الوطن علا وجههُ الاحمرار او الاصفرار او الاخضرار ، إلى غير ذلك من الالوان ، ثم هو لايعطيك ، وان أحرجته وأخجلته ، فلا يقوم للبذل الاّ كما يقوم الذي يتخبطهُ الشيطان من المسّ . وان مدّ يده للاعطاء فيمدّها مرتجفة

كأنها شلاء ٠

عَلَى أنه ان وجد سبيلاً لإنفاقها في غير وجهها المشروع ، تراه أسرعَ الى بذلها من الماء في منحدر ، او السهم الى هدف ، يتهلل بذلك فرحاً مسرورا

من كان عَلَى تلك الشاكلة فهو ممن أضاع الشرف للسعي وراء اللذة الوهمية والمنفعة الخاصة ٠ وما أجدر من كان كذلك ان لايكون له حظٌّ من الكرامة ولا نصيب من الإعظام

العـــادات

العادات منها الحميدة ومنها السيئة ٠ ولا يُحكم عَلَى عادةٍ ما بالحسن او القبح ، الاَّ بعد معرفة اثرها ٠ فان كان حميداً فهي حميدة والعكس بالعكس

لكل قوم عادات قـد تكون خاصة بهم ، وقد يشاركهم فيها غيرهم ٠ وسواء كانت خاصة او مشتركة ، فلا بدَّ من النظر الى آثارها ، فان وجدت نافعةً وجب الحضُّ على التمسك بها والاعتصام بعراها ٠ وان أُلفيت سيئةً تحتم عَلَى اهل العلم وارباب الجرائد والخطباء والكتبة والشعراء أَنْ يندّدوا بها ، وينفّروا عنها ، بالارشاد الصحيح ، والموعظة الحسنة ، وغير ذلك من الوسائل التي تستأصل شأفة تلك الاخلاق والعادات ٠ فمتى ثابروا عَلَى ذلك فلا بدَّ ان تنقشع تلك الظلمات شيئاً فشيئاً ، وتُستأصل تلك الجذور

من النفوس رويداً رويداً ، الى ان تصير الاخلاق نقيّة بيضاء ، فتبقى سالمةً من كل دَرَن ، وتتحلى برداء الزين ، بعد الشين . فيجب عَلَى كل خطيب وكاتب ان يبذل الوسع والجهد ، لإِزالة هاتيك الادران التي تشوه وجه الانسانية ، وقمع تلك المفاسد التي منشأُها عدم تنمية الاخلاق الفاضلة في النفوس منذ الصغر . ولا يمكن ان تُقمع تلك المفاسد الاَّ باستئصال تلك الاخلاق ، حتى لا يبقى لها اثر

اهمال الخطباء والمرشدين لهذه المهمة هو الذي يعين تلك العادات السافلة عَلَى ان تزيد وتنمو ، اذ لاتجـد سيف الوعظ مسلولاً ، ولا رمحه مُشرعاً ، ولا جيوشه حارسة . بل وجدت صدوراً رحبة ، وقلوباً فارغة ، تقبل كلَّ طاريء ، خيراً كان او شراً

العادات السيئة عندنا كثيرة وهي تختلف قوة وضعفاً باختلاف اثرها ، وسواء كانت هذه العادات شديدة الضرر او خفيفته ، فيجب ان يعمل العقلاء عَلَى ازالتها ، وتطهير الامة منها . فان نزع العادات الضارة من النفوس هو العامل الاكبر الذي يتوقف عليه ترقي الامة ونجاحها ، ونهوضها وفلاحها ، و إصلاحها وصلاحها

الميسر (١)

ليس اضرّ عَلَى الاخلاق والآداب والمجتمع من تلك العادة القبيحة ، الا وهي القمار ، عَلَى كثرة العادات السافلة التي اتصف بها السافلون . وهي خصلة لا اجد من الفاظ الاستهجان في اللغات كافة ما يقوم مقام إيفائها حقها من الذم والتنفير عنها . فهي مجموع الرذائل ، وخلاصة السفالة ، ومنتهى التوحش ، لو تفكر في حقيقتها الميالون لمعاطاتها . وقد وردت الينا مما ورد من نقائص المدنية الاوربية ، وتلقفها بعض الناس كأنها منتهى التمدن وروح الفخار . ولو استبدلوا محاسن مدنية القوم بها وبامثالها من العادات الضارة المنافية للحرية الشخصية والحرية العامة ، لكان ذلك خيراً لهم وأولى . غير أنّ التقليد الاعمى يحمل المرء على سلوك كل امر وانتهاج كل طريق يرى أنّ من هو اعظم منه علماً ومدنية قد سلكه . ولو عقل هذا الانسان المقلد ذلك العظيم بما يعود عليه وعلى أُمته ووطنه بالخير ، وأهمل ما هو مخالف للعادات القومية والآداب الخاصة والعامة . ولكن اين من يسمع فيعقل ؟

القمار داء وبيل سرى في جسم الامة ، وخمر معتّقة لعبت في عقولهم حتى أذهلتهم عن كل شيء حتى عن انفسهم . فهم يبيتون ليلهم ساهرين ، حتى اذا تبلّج الصبح رجعوا عَلَى اعقابهم خاسرين ، يندبون حظهم وحالتهم ، ويتأوّهون عَلَى ما أضاعوه في تلك السبيل من الاموال الطائلة ، فضلاً عن تحرقهم ولهفتهم . ولو تأمل في حال هؤلاء البؤساء متأمل ، ونظر فيما

(١) الميسر هو القمار

يتورهم من الاطوار المختلفة عند تعاطي هذه المهنة السافلة ، لرأى أنهم في النعيم تارة ، وفي الجحيم تارة أخرى . فطوراً يهشون فرحاً وسروراً ، وآونة يتلهبون حسرة تكاد تكون سعيراً . وهم في كل ذلك بين خوف ورجاء ، وهبوط وارتقاء ، يلذهم برد الامل ، وتسوءهم نار اليأس . هـذه هي حالهم ، وتلك اعمالهم وآمالهم :

كريشة في مهبِّ الريح طائرةٍ لا تستقرُّ على حال من القلق

ومعا في هذه العادة من الأضرار ، ترى ان محالّها تزداد يوماً فيوماً ، حتى ملأت المدن ، وتعدّى شرها من الملاهي الى البيوت . فاناً نعلم علم اليقين ان بعضاً من سكان هذه البلدة قد افتتحوا بيوتهم ، وخصصوا منها غرفاً لتعاطي هذه المهنة القبيحة

اوّاه منها ! فكم افقرت من غني ، واغنت من فقير ، ثم رجع إلى حالته الأولى فقيراً معدماً

قد رأينا كثيراً ممن جمعوا الاموال الطائلة والعقارات الكثيرة ، ثم اصبحوا بعد قليل من الزمن بؤساء معدمين ، وفقراء خاسرين ، فصاروا اندم من الكسعي ، ولكن حين لا ينفعهم الندم

ليت ان هذه العادة قاصرة على الغني دون الفقير ، بل نراها قد تعدّت إلى طبقات الناس كافة ، وأنتشرت جراثيمها في جسم الامة عامة ، الاّ من رحم ربك وقليل ما هم

صار الفقير الذي لا يملك شروى نقير يتعاطى هذه المهنة ، و يصرف كلّ ما يشتغل به طول نهاره وجزأً من ليله ، و يترك نفسه واهله يتضوّرون

فيها ، وتصير جزءاً منها

اما ان اعتمد كل فرد من افراد الأُمة عَلَى نفسه فانه يقوى عزمه وتشتدُّ ارادته ، فيقدم عَلَى الاعمال غير هيَّاب ولا وجل ، ولا مبالياً بارهاقِ نفس او إتعاب جسم ، ومتى سرى هذا الفكر في نفوس افراد الامة نهضت بعد القعود ، وترقَّتْ بعد التدني ، وتنبهت بعد الغفلة

فأول ما يجب عَلَى المصلحين عمله هو السعي وراءَ بثّ هذا الروح الطاهر في الناس حتى تتربّى فيهم ملكة الاستقلال والاعتماد عَلَى النفس ، وبسوى ذلك لايمكن النهوض بالامة ، اذ ان لم يكن فيها استعداد يدفعها ان ترقي نفسها بنفسها دون مساعدة خارجة عنها ، فلا سبيل إلى ترقيتها والاخذ بيدها ، وان ترقت ونهضت فلا تلبث ان تسقط وتتقهقر متى حال دونها ودون المساعدة الخارجة حائل :

لاتنتهي الانفس عن غيها مالم يكن منها لها زاجر

وهذا هو الشأن في الحكومات كما هو في الامم ، فان الحكومة التي ليس لها استعداد لدفع الطوارئ ، فانها تكون بحكم الطبيعة منقادة لحكومة اعظم منها قوة وآثاراً في الارض ، تأتمر بامرها وتنتهي بنهيها ، وتفتح لها الابواب لتلج في اراضيها وتستثمرها ، وتستبدّ بمرافقها ومصالحها ، في مقابل حمايتها ودفع الكوارث عنها ، غير ان هذه الحماية لاتبقى ابد الدهر ، بل لابد انها تنحلُّ يوماً ما فتؤول تلك الحكومة المتكلة عَلَى غيرها عرضةً للحوادث وهدفاً لسهام الطامعين

ليس معنى الاستقلال الفكري او الاعتماد عَلَى النفس ان يترك الانسان

مشورة غيره ممن يعتقد فيهم العقل والعلم والاختبار ، كلا — وانما هو أن لا يترك العمل والتفكر اتكالاً عَلَى ان غيره يعمل او يفكر ، بل ليفتكر ويعمل هو ايضاً ، فان كان فكره وعمله خيراً من فكر غيره وعمله ، فبها ونعمت ، والاّ انقاد لفكر سواه وعمل به ، وبذلك يكون مستقلّ الفكر ايضاً ، إذ لم يجبره احد عَلَى إتباع غيره او عدم اتباعه ، بل ان فكره هو الذي ارشده إلى ان ماجاء به فلان من الاعمال او أبداه من الافكار هو حق

كثيرٌ من الناس يهملون شؤونهم الخاصة كتعليم ابنائهم وتشييد المدارس والمعامل وغير ذلك اعتماداً عَلَى الحكومة ، ولو عقلوا لأقلعوا عن هذا الفكر ، لأن الأمة التي تعتمد عَلَى الحكومة في مثل ذلك هي أمة متقهقرة ساقطة ، والامم الحية الراقية هي التي تشيد المدارس وتنشيء المعامل والمصانع غير متكلة عَلَى حكومة ولا معتمدة عَلَى حاكم

ان الحكومة هي تابعة للأمم رقياً وانحطاطاً فمتى كانت الأمة منحطة انحطت حكومتها بحكم القسر ، ومتى كانت الأمة راقية ترقّت معها بحكم الضرورة ، لأن الحكومة هي صورة افراد الشعب المحكوم ومثاله وخلاصته ، اذ هي منه وله عَلَى كل حال . فان اتفق ان الحكومة كانت ارقى من الأمة فلا تلبث ان تنحط وتتقهقر اليه والعكس بالعكس : «كما تكونون يولّى عليكم» فان كانت الامة مستقيمة ميالة للعدل والحرية والفضائل حُكمت بحكومة لا عوج فيها ولا استبداد ولا جور ولا رذيلة ، وان كانت الأمة جاهلة فاجرة لا يريد افرادها العدل ولا يخضعون للحق ، حُكمت بحكومة جاهلة فاجرة ظالمة مستبدة عوجاء ، لا تميل للحق ، ولا تخضع للعدل ، والخلاصة ان اخلاق

[illegible]

. . . .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

نرى لها عملاً في ميدان الجهاد الحيوي يرفع بها إلى ذروة الاعتبار ، و يجعلها في صفوف الامم الحية الراقية · بل كان فكرها وعملها تابعين لكل ناعق ومقتفيين اثر كل سائر ، وما ذلك إلا لضعف الارادة وخمول العقل وفتور الهمة · وانا لنرجو بعد ان نالت الامة حريتها ان تنزع عنها رداء الخمول ، وتربأ بنفسها ان تكون أُمة تابعة ، لا ارادة لها ولا فكر

نعم لاننكر اننا الآن لم نزل محتاجين الى غيرنا في كثير من الآراء والاعمال ، غير أننا لو ثابرنا عَلَى تذليل الصعاب و إزالة العقبات ، فلا نلبث ان نصل الى الغاية المقصودة بحول الله وقوته · فانَّ الامم الغربية التي نقلدها ونعتمد عليها في العلم والعمل كانت احطَّ منا الآن علماً وعملاً ، بل لم يكن لديها ما يصح ان يسمى علماً وعملاً ، لكنها بعد اختلاطها بالامم المشرقية والامة الاندلسية جدَّت واجتهدت ، حتى بلغت ما هي عليه الآن من الترقي الباهر في العلم والعمل :

وليس بدعاً ان نكن نرتقي — لمجدنا من هوَّة المصرع
فالشمس بعد الكسف تبدو لنا — وتنجلي في رائع المطلع
والجدّ يدني شاسعات المنى — واليأس يُقصي داني المنجع [1]

· · · · · · · ·

يجب ان نربي ملكة الاستقلال في النشء منذ الصغر حتى اذا شبَّ ولم يكن له من يعوله او يعتمد عليه كان اعتماده عَلَى نفسه رأسَ مالٍ عظيم يستعين به عَلَى مكافحة اهوال هذه الحياة ، فان من كان حبُّ الاستقلال

(١) الابيات لمؤلف الكتاب من احدى « القصائد الشرقيات »

ملكة فيه تهون عليه الصعاب ، وتذلّ لديه العِقاب ، ويبذل في سبيل الحياة كلّ ما في وسعه ، ويفرغ مجهوده دون الوصول الى غايته والحصول عَلَى بغيته

اما من ينشأ كما ينشأ اكثر الشرقيين عالة على آبائهم لايعرفون للحياة الحقيقية معنى ، ولا يدرون لحقوق الوطنية كنهاً ، فهم يعيشون كما تعيش البهائم السائمة ، لانّ لذة الحياة بالعمل ولا عملَ حقاً الا العمل الناشيء عن الاجتهاد والاعتماد عَلَى النفس والاستقلال في الفكر والعمل

متى نشأ الولد فليعوّده ابواه او من له الولاية عليه عدمَ الاتكال عَلَى احد في كل عمل ، حتى إذا بلغ مبلغ الحياة العملية فليترك وشأنه ، يدبر لنفسه عملاً يستعين به عَلَى الحياة حياة طيبة ، غير أَنا عَلَى غير هذا المبدأ فان الوالد لايترك ولده يعمل ويفتكر الاَّ بعد ان يبلغ من الكبر عتياً ، فينشأ الولد خاملاً كسلاناً معتمداً عَلَى ابيه او عَلَى ما يتركه له من المال والعقار ، لذلك تراه لايمكنه ان يأتي عملاً او يُجيد في رأي ، وهناك المستقبل التعس وحياة الشقاء . والحال غير هذا في النشء الغربي ، فانه يعوّد منذ نعومة اظفاره هذا المبدأ الشريف الراقي مبدأ الاستقلال في الفكر والعمل ، حتى اذا بلغ مبلغ الشباب تخلّى عنه ابواه وقذفا به في معترك الحياة وميدان الجهاد ، وهناك المستقبل الحسن والغاية الجيدة والحياة الطيبة والعيشة الراضية :

وانما رجل الدنيا وواحدها ‏ ‏ ‏ من لايعوّل في الدنيا عَلَى رجل

اذا لم تكن افراد الامة معتمدة عَلَى نفسها متكلة عَلَى ما لديها من الاخلاق والعلم والعمل ، فلا حرية لديها ولا يرجى لها رقي ، مهما كانت

قوانينها عادلة ومشتملة علَى ما فيه خير الامة والوطن . ذلك لان القوانين والانظمة اذا لم تُلفِ استعداداً في النفوس ، ورجالاً يعملون بها و ينفّذونها فانما هي حبر علَى ورق . ومثلها حينئذٍ كمثل ماءٍ سقيت به الصخور فلا تنبت شيئاً ، و يكون الماء قد ذهب هدراً وضياعاً

. . . .

القوانين لاتجعل الناس احراراً مهما كانت فاضلة ، غير ان الناس قد اعتادوا ان يعتقدوا ان خيرهم ونجاحهم مسببان عن الانظمة التي تُحكم بها بلادهم ، وهم مخطئون في هذا الاعتقاد خطأً بيناً لايغتفر . اذ اية فائدة من القوانين ان لم تكن نفوس الشعب مستعدة لما تحويه من الاصول والمواد ، بل اي نفع من النظامات اذا لم يوجد لها حاكم امين ينفّذها بكل صدقٍ واستقامة ، فالقوانين لاتجعل الخامل ذكياً ولا الكسول مجتهداً ولا فاسد الاخلاق طاهراً كاملاً ، والانظمة لاتمحو الجرائم ، ولا تردع الناس عن المنكرات ، ولا تخفف عنهم الويلات ، ولا تجعلهم سعداء ، الا اذا اتاح لها حكام امناء . قال عثمان بن عفان رضي الله عنه : « يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » وما للقوانين من فائدة عملية سوى انها تكون بمثابة المرشد للشعب والدليل للحاكم يستعين به علَى اجراء العدل والحكم بالحق ، حتى لايميل ولا يجنف

فالنظامات التي يحكم بها قوم أُولو نصفةٍ وعدل ، وذوو وجدان حر طاهر ، تكون وسيلة لجعل المحكومين سعداء ، وتمكنهم من اكتساب ما يجعلهم في سعةٍ من العيش ورغد من الحياة ، وتسهل لهم اجتناء ثمرة اعمالهم وافكارهم .

والنظامات التي يحكم بها قوم اولو جنف واستبداد ، وذوو وجدان خبيث يميل مع الهوى ، تكون سبباً لشقاء الشعوب ووسيلة ليأسهم من الحياة الطيبة والعيشة الراضية ، مهما كانت تلك النظامات عادلة وجيدة ، ذلك لانّ الحكام من هذه الطبقة يؤوّلون النصوص على حسب رغباتهم ومشتهياتهم وعلى ما يوافق هواهم ومنفعتهم الشخصية

وهذا هو الشأن في الحكومة الماضية فان ما لديها من القوانين عادل وصحيح « وان لزمه بعض تحوير وتنقيح » غير أن الذين كانوا يحكمون بها قوم لاوجدان حرًّا لهم ولا عدل ولا انصاف لديهم « للهم إلا قليلاً نادراً والنادر لاحكم له »

....

كل عمل من الاعمال لابدّ لحصوله من القابلية والفاعلية ، فان عدمت احداهما بطل العمل . فان لم توجد قابلية الاصلاح في الشعب فلا يمكن ان يكون راقياً مهما كانت الوسائل فعالة قوية ، وان لم توجد الفاعلية فمن العبث محاولة ترقية الشعب مهما كانت القابلية عظيمة ، ومهما كان مستعداً للاصلاح والارتقاء ، لان المسبَّب لايوجد بدون السبب ، فمتى انعدم السبب انعدم المسبب لامحالة

فالامم التي يوجد لها فاعلية وليست فيها قابلية لتحقق معنى الاستقلال ، يجب ان تربّى ويبثّ فيها روح النشاط والحياة الاجتماعية ، حتى إذا تمكنت منها تلك الروح نشطت واستعدت لما تلقيه اليها تلك الفاعلية

والامم التي يوجد فيها قابلية وليست لها فاعلية تؤثر فيها وتنهض بها يجب ان يذهب افراد منها لتلقي العلم ودرس الحرية الصحيحة وتعلُّم الاعمال المفيدة والصناعات ، حتى إذا تمكنوا من كل ذلك رجعوا إلى قومهم وقد أتوهم بفاعلية عظيمة واسباب قوية ، وهناك يبثون فيهم مادرسوه و يوحون اليهم ما تعلموه . وليست القابلية إلا الاستعداد للشيء ، وليست الفاعلية إلا طائفة من كل أُمة أُمتازت برجاحة عقلها ، وسموّ مداركها ، ووفرة معارفها ، وإحكامها الاعمال والصناعات .

فعلى هؤلاء يتوقف رقي الامم ونجاحها . إذ لو بحثنا بحثاً دقيقاً لتجلّى لنا ان كل الشعوب المتمدنة الراقية لم تصل إلى ما وصلت اليه من التقدم إلا بواسطة افراد قلائل بالنسبة إلى مجموع ذلك الشعب . وهؤلاء الافراد هم الأُلى اوجدوا المدنية واحدثوا الصناعات ، ونشروا العلم وكلّ ما يفيد بين اقوامهم

يجب ان لاتنتظر الأُمة المساعدة الخارجة ، ولا تعتمد في ترقيتها ونجاحها إلا علَى نفسها ، لان تلك المساعدة متى أنقطعت قبل أَن تصل الأُمة إلى الغاية المقصودة تقهقرت ورجعت إلى شرٍّ مما كانت عليه

وكذا يجب أَن لايرتقب الشعب المساعدة من الحكومة ، بل يجب عليه ان يساعد — هو — الحكومة بمادياته وادبياته ، لان الشعب الذي يكون عالةً علَى الحكومة يُثقل كاهلها ، وقد قدمنا أَن الحكومة تكون تابعة للشعب ترقياً وتقهقراً ، فلو لجأ الشعب إلى حكومته تكون حينئذ الحكومة اقوى منه ويكون — هو — احطّ منها فلا يمضي مدة حتى تنحط الحكومة

وتتقهقر إلى الشعب ، و بذلك يكون انحلال القسمين وفساد القوتين

اما إن لم تعتمد الأُمة عَلَى الحكومة بل كانت متكلة عَلَى نفسها فانها ترقى في يسير من الزمن متى استكملت الشروط المطلوبة للرقي ، وحينئذٍ إن كانت حكومتها متقهقرة متدنية فلا بدَّ أَن تنهض وترقى ، حتى تجاري الامة الراقية التي تحكمها

. . . .

نالت الامــة العثمانية حريتها وا كثر البلاد غير مستعدّ لذلك ، فان لم نبذل الجهد لترقية الاقوام الذين لم يفهموا — إلى الآن — معنى الحرية والاستقلال الشخصي ، فلا تلبث الحكومة أن تسفل وتتدنى إلى اخلاق هذه الاقوام ، ثم لايمضي زمن حتى ترجع الحــالة إلى شرّ مما كانت عليه . ذلك لأن الحرية الصحيحة هي التي ينالها الشعب بقوته دون مساعدة خارجة عنه ، كالجيش مثلاً ، او كأَن تمنح الحكومة الحرية للشعب من قبل نفسها دون مجبر

اما الحرية التي تنال بواسطة الجيش فانها تُنتزع بواسطته كما كاد يحصل في ثورة استانة الاخيرة الشهيرة بفتنة ٣١ من مرت و١٣ من نيسان ، او تُنتزع متى سكنت ثائرة ذلك الجيش وذهب رجاله إلى اهليهم .

وكذا الحرية التي تمنحها الحكومة دون ثورةٍ من الشعب ، فانها تُنتزع متى مات او سقط السلطان المانح الحرية كما حصل في الحرية التي منحها سلطان العجم لشعبه ، فان خلفه انتزعها قسراً واهرق دماءً كثيرة في سبيل ذلك ، فلو كانت الامة هي التي طالبت بحقوقها واصرّت عَلَى نيل

حريتها ، فلا يمكن ان تُنتزع منها حريتها ما دام فيها رمق من الحياة

فالثورة الحقيقية ليست ثورة الجيش لطلب الحرية ولا ثورة خارجة لطلب حرية أُمة ، وانما هي ثورة الأُمة ، وافضل معاني الثورة هي الثورة الادبية او الاخلاقية ، لانها هي كل شيء ، وكلُّ معنى من معاني الثورة هو تابع لها علَى الدوام

إن الامة العثمانية قد نالت حريتها بواسطة الجيش المظفر ، واهالي البلاد منهم من هو مستعدٌّ لها ، ومنهم من لم يدرِ لها معنى ولم يفقه لها كنهاً ، فالحرية اذن غير مضمونة الاَّ إذا ثارت ثائرة الاخلاق وقام المرشدون والمصلحون يعظون ، و يرشدون إلى تغيير الاخلاق وتبديل الطباع

« والخلاصة » أَن الامة العثمانية اذا لم يدبَّ في جسمها روح النشاط والاعتماد علَى النفس ، ولم يَجُلْ في جثمانها دم الحقيقة والنهضة الصحيحة ، فلا أَملَ بحياتها . غير اننا نشاهد بريق الأَمل ، وقد ابتدأَ طلّ الحياة ينزل . فنرجو ان نرى هذا الطلَّ وابلاً « واول الغيث قطر ثم ينهمر » حقق الله الآمال بمنه وكرمه

القابلية والفاعلية

جاء في مقالنا « الاستقلال الشخصي او الاعتماد عَلَى النفس » كلامٌ اجمالي عن « القابلية والفاعلية » وعن « النظامات والشعوب » وعن « الانقلاب الاخلاقي او الادبي او ثورة الاخلاق والمبادئ » وقد طُلب الينا بعد انتشاره أن نوضح هذه المعاني في مقالات خاصة · لذلك نبدأ بالكلام عن القابلية والفاعلية

. . . .

القابلية هي استعداد الحيوان او النبات او الجماد للترقي عما هو فيه الى ما هو اسمى وافضل او لما هو احطُّ وادنى ، والفاعلية هي المؤثر في هذه المواليد الثلاثة ارتقاءً وانحطاطاً ، غير انهما شائعتان في الترقي والافضلية ، وذلك من باب تغليب اللفظ عَلَى احد معنييه ، ولا مشاحة في الاصلاح

خلق الله هذه المواليد وجعل فيها استعداداً او قابلية للخير والشر او الترقي والتدني ، غير ان بعضها يكون الاستعداد فيه عظيماً ، والآخر يكون فيه وسطاً ، وغيرهما يكون فيه متدنياً او مفشّى ، بحيث يُعتبر كأنه غير موجود · ثم خلق لهذا الاستعداد او القابلية اسباباً ووسائل ، او مؤثراتٍ وفواعل ، تُعمل محراثها في ارضها ليظهر ما كمن فيهما من خير وشر عَلَى مقتضى ذلك المؤثر

فان لم يوجد في المواليد استعداد لقوة ذلك المؤثر فيكون المؤثر كالعدم ، وهكذا ان عُدم المؤثر مع وجود القابلية في المواليد فتكون القابلية كالعدم ايضاً

وتوضيح ذلك انك لو عمدت الى ارض ليس فيها استعداد للإنبات كأنْ تكون سبخة او صخرية و بذرت فيها البذور مع الاعتناء التام فلا تُنبت تلك الارض شيئاً ، مع ان الفاعلية والمؤثر موجودان ، ذلك لأن القابليه مفقودة في تلك الارض · ولو عمدت الى ارض فيها استعداد للإنبات فان انبتت تلك الارض فيكون نباتها قليلاً غير جيد ، ذلك لفقدان القوة المؤثرة · ولو كانت الأرض صالحة ووسائل انباتها موجود لأَنبتت نباتاً حسنا ، واعطت أُكُلها كما يريد الزارع

ولو اتيت بقطعة من الخزف « الفخار » وطرقتها بمطرقة لتجعلها اناء فلا تلبث ان تتحطم لانها غير قابلة لذلك · وكذا لو جئت بقطعة من النحاس واردت ان تحوّلها الى اناء بيدك من غير مطرقة فلا يتم ذلك لفقد السبب المؤثر · ولو اتيت بقطعة نحاس الى صانع وطرقها على مقتضى الاصول تصير اناءً صالحاً للاستخدام

ولو اتيت بانسان وحملته على ان يتعلم علماً ليس في استطاعته ان يتعلمه، لعدم الميل اليهِ ، او لضيق عقله عنه ، فلا يتعلم ذلك العلم ولو اتيت له بامهر المعلمين وابرع الاساتذة ، ذلك لانه لم يكن فيه استعداد يؤهله لتعلم ما تريد تعليمه اياه · وهذا هو السرُّ في عدم نجاح كثير من طلبة العلوم وتلاميذ المدارس · لذلك يجب ان يُنظر في ميل التلميذ ورغبته ومقدار عقله ، فان وجد ميالاً للعلم وكان فيه استعدادٌ له فليخصَّص لذلك ، وان وجد فيه ميل للتجارة او الزراعة او الصناعة فليخصص لها ،والا اضاع عمره ووقته ومستقبل ايامه سدى · ولو اتيت بانسان فيه استعداد للعلم مطلقاً او لفن من الفنون

كالأدب والفلسفة غير انك جئت بمعلم لا يعرف ذلك الفن او هو غير متقنٍ له فلا يمكن للتلميذ ان يتعلم هذا الفن ولو مكث بضع سنين، ذلك لان القوة المؤثرة مفقودة ، وهذا هو السر في ضياع كثير من التلاميذ واضاعة اوقاتهم عَلَى جدوى ولا فائدة ، وهذا ما يجب ان ينظر اليه اصحاب المدارس ، — خصوصاً المدارس التابعة للحكومة — حرصاً عَلَى هؤلاء التلاميذ المساكين من تمضية سني حياتهم في التعب والنصب دون ان يحصلوا ما قصدوا اليه من الفنون . ولو اتيت بتلميذ فيه استعداد لفن من الفنون . وسلمته الى معلم قادر عَلَى تدريس هذا الفن لنجح في وقت قصير

اذا وضح ما تقدم امكن ان نطبق حالة كل شعب و كل امة عليه فان الأمة التي سمت مداركها واشتدت عزيمتها واستدت سهام إقدامها تكون قابلة لكل رقي ، ومستعدة لكل نجاح ، وهذا هو الشأن في الامم الاوربية ، فانها بعد ان كانت امماً خاملة جاهلة تتسكع في دياجير الاوهام ، وتخبط في ظلام الجهل ، وتسبح في بحار الاستبداد ، نبغ فيها قوم اجهدوا نفوسهم ، وذللوا الصعاب وهاجروا في سبيل تحصيل العلم وتلقيه عن اساتذتهم العرب — الذين كانوا في ذلك الحين امة حية ، هي مثال العلوم والفنون والصناعات والتقدم والرقي والقوة والمنعة والتبريز على الاقران في كل معنى من معاني الحياة الاجتماعية والمادية والسياسية — فلما نالوا ما قصدوا اليه رجعوا الى قومهم ، وبثوا فيهم تلك الروح العالية التي نالوها من العرب ، سواء في المشرق او الاندلس ، ونشروا بينهم انوار تلك العلوم التي اقتبسوها ، وما زالوا بشعوبهم يعلمونهم ويحثونهم على اكتساب العلم والهجرة اليه ، حتى تنبهوا

شيئاً فشيئاً ، الى ان وصلوا الى ما هم فيه الان فصاروا اساتذة العلوم والفنون ومرجع الصناعات والاختراعات ، فكانوا كلما تقدموا الى العلم والمدنية ذراعاً تأخرنا باعاً ، وكلما تقدموا باعاً تأخرنا ميلاً ، فبلغوا وقصّرنا ، وافاقوا ونمنا ، وصاروا يفتخرون ، باعمالهم ونفتخر باجدادنا ، ويباهون بمجدهم الحاضر ، ونُزهي بمجدنا الغابر :

لعمرك ماالانسان الا ابن يومه   عَلَى ماتجلى يومه الا ابن امسه
وما الفخر بالعظم الرميم وانما   فخار الذي يبغي الفخار بنفسه

هذا مثال من امثلة الشعوب التي ترقت بعد الانحطاط بسبب تربية العقل والميل الى الفضائل ، حتى غُرست فيها شجرة القابلية التي اثمرت مانراه اليوم من الثمرات الجنية الطيبة

فعسى ان يقوم فينا رجال كما قام فيهم رجال ، فيرشدونا الى المهيع الحق ، ويأخذوا بايدينا الى صراط الحياة المستقيم ، ويربوا في نفوسنا الاستعداد لصالح الاعمال ، حتى نرجع الى مجدنا السالف ، ونُحيي ما مات من آثارنا ، والاّ فعبثاً يحاول من ينادي الامة لترقى ، دون ان يمهد لها السبيل ، ويغرس في نفوسها ادواح الميل ، ويقذف بابناءها في المدارس ، حتى تدرك معنى الحياة والاجتماع وفائدة النهوض ، فان المدارس الحقيقية هي التي تربي الاستعداد وتُنمي القابلية ، ومتى تمّ هذان الامران في الامة ووجد لها موءثر وفاعل ، فبشرها بالنجاح العاجل والفلاح القريب

فان قيل : اية فائدة من ايجاد المدارس التي تربي الاستعداد إذا لم يكن هناك فاعلية وهي القوة التي تقوم بتنظيم هذه المدارس وادارتها وبث هذه

الروح فيها ؟ فان هذه القوة مفقودة عندنا — فنقول : لقد أخطأ من قال ذلك ، فان القوة ليست بمفقودة ولكن من يتطلبها مفقود ، ولو بحث عنها نوجدها ، وهي بمنزلة القوة الكهربائية لاتظهر إلا بالاحتكاك ، فلو طلبها الطالبون لرأوا من آثارها عجباً

نعم إن هذه القوة ليست كما نريد لانها منحصرة في فئة قليلة لا تكاد تقوم بحاجيات الامة ، ولكنها لعدم استخدامها والانتفاع بها فترت همتها وقلّت الفئة المودعة هي فيها · على انها وإن كانت قليلة اليوم فستكون عظيمة في المستقبل ، خصوصاً إذا ارسلنا طائفة غيرها إلى بلاد العلم ، حتى إذا نالت ما ترجوه رجعت ونفعت قومها : « أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » « أطلبوا العلم ولو في الصين »

رب قوم يئسوا من رقي هذه الامة وحكموا بعدم نهوضها من كبوتها بسبب ما افسده الظالمون من نفوسها وما دمروه من قواعد مجدها، ولو تأملوا قليلاً ونظروا في حال الشعوب الغربية وما كانت فيه وما آلت اليه لرجعوا عن هذا الاعتقاد ، فان حالتنا اليوم هي خير من حالة تلك الامم قبل ان ترى بصيصاً من العلم ، ومع ذلك فقد نجحت حتى بهرت الشرق بعلومها واختراعاتها · وما ذلك إلا بما بذلته من الهمة القعساء

نعم إن بقي فينا قوم يائسون ، ورهط منفّرون ، يثبطون الهمم ، ويلقون العقبات في سبيل المصلحين والذين يريدون إنهاض الامة ، فاننا بلا ريب نبقى كما نحن الآن : عالة على الاوربيين في كل شيء · اما إن رفعنا برقع الجهل وقتلنا مكاريب اليأس ، وأنحينا باللائمة على مثبّطي الهمم واعداء

الرقي ، ثم اخذنا بايدي المصلحين واعنّاهم عَلَى ما يقصدون ، فلا يمضي حين من الدهر حتى نضارع الامم الغربية بل نفوقها في كل شيءٍ . وما ذلك علَى الهمم العالية والنفوس الطاهرة بعزيز . فان الذكاء الشرقي مشهور ، والاقاليم التي يقطنها هي احسن الاقاليم ، ولكن قد ران علَى ذكاءنا رينُ الخمول والظلم ، واختلط بترب اراضينا ميكروب الإهمال والاتكال ، ومتى كشف الغطاء ، وماتت جراثيم ذلك الداء ، فيرى الغربي منـا عجائب الاشياء ، ويسمع غرائب الأنباء .

. . . .

الرقي محقق ، والنجاح موءكد ، متى وضعنا هذه الاقوال موضع العمل والاجراء ، اما ان بقينا نقول ولا نعمل فعلينا السلام ورحمة الله وبركاته

لاترجُ يا شرقُ الرقيَّ بِقولِ
شرُّ المقال عليك ان لم تفعلِ
فانهض –ولا ترهب– إلى الشرفِ العلي
ودع الفخار بمن مضوا واستبسلِ
«واقدم إذا حقَّ اللقا في الاول» [1]

---

(١) هذه القطعة لصاحب الكتاب من احدى « القصائد الشرقيات »

النظامات والامم

كل قوم بلا نظام يعيشون – فايامهم ليالي مُحاق (١)
ونظام الاقوام من غير تنفيذ – القضايا حبر عَلَى اوراق
ليس يغني مهما تسامي فتيلاً امةً ليس فكرها بالراقي
فرقيُّ الافكار ينهض بالقوم – الى مستوى الشعوب الواقي
ورقيُّ الافكار بالعلم لا غير – فهبوا يا قومنا للسباق
انما فارس الرهان المجلّي يوم غصّ الميدان بالاحداق
انما الفارس الصبور عَلَى الموت – ولثم الصمصام للاعناق (٢)
لا الذي تاه بين خمر وقَمْر – ونهود وقبلة وعناق

(موءلف الكتاب)

الحرية المطلقة هي ان يعيش الانسان غير متقيد بنظام ، ولا خاضع لقانون ، يعمل ما شاء ويفعل ما يريد، ليس فوق ارادته ارادة ، ولا اعلَى من يده يد ، ومتى قُيّد بنظام فقد شيئاً من حريته ، واضاع جزءًا من ارادته، هذا ان كان النظام الذي حُكم به عادلاً غير جائر ،ومنفّذوه حكاماً مقسطين « عادلين » لا قاسطين « جائرين » أما إن كان ذلك القانون جائرةً احكامه، ظالمة حكامه ، فيكون قد فقد حريته كلها ، واضاع ارادته باسرها ، وكذا ان جار الحاكمون وعدلت القوانين ، اذ اية فائدة من عدلها مع ظلم منفّذيها الذين يؤَوّلونها علَى حسب شهواتهم الظالمة ؟

الامم ما دامت في حال البداوة لا تحتاج الى قانون ، وان وجد فيها

(١) المحاق بضم الميم : ثلاث ليالٍ من آخر الشهر القمري

(٢) الصمصام : السيف

افراد نيّرون فقلما يهتمون بمثل ذلك اذ لا حاجة اليه · فلا حكم عندهم الا للسيف، فبه يتحاكمون، واليه يلجأون، وعليه يعتمدون ، وقد يحكّمون فيما شجر بينهم واحداً منهم موثوقاً به من الخصمين ، فهو يحكم حسب العادات او حسب ما يراه الحق في نفسه ، وان شئت ان تسمي مثل هذا قانوناً فسمّهِ وانا لا أُسميهِ

والامم متى تحضّرت وارادت ان تسير في طريق المدنية فلا بدّ لها اذ ذاك من منار ترشد به في ظلمات المشاكل، ويهديها عند الخصومات والحقوق وغير ذلك ، فيقوم فيها اذ ذاك من اهل العقل والدراية من يسنون القوانين ويشترعون النظامات التي توافق بيئتهم وزمانهم وحالتهم ، ثم يدفعونها لحاكمهم ليعمل بها ويفصل ما يحدث بين الناس بمقتضى موادها واصولها ، فان كان من حظ تلك الامة ان حاكمها عاقل حرّ يريد منفعة قومه ، عمل بها بصدق وامانة ، وحمل الناس عَلَى الخضوع لها ، وان كان خبيثاً مريداً اهملها او فسرها حسب رغباته ، وعمل بما يوحيه اليه ضميره وفكره · فان كانت تلك الامة المحكومة جاهلة خاملة فانها تستكين للذل وترضى بالضيم · وان كانت عاملة شاعرة حية فانها تقوم قومة رجل واحد ضد حاكمها المستبد بها فاما ان تسقطه واما ان تصلحه

· · · · · ·

النظامات اما ان تكون آلهية واما ان تكون وضعية ، والوضعية اما ان تكون مستندة الى الكتب المنزلة كاكثر مسائل الفقه، ام لا، كقوانين كنفوشيوس وحمورابي المستندة عَلَى وحي العقل البحت · والنظامات بأسرها انما شرعت لتكون هادياً للحاكم والمحكوم ، ووسيلة لترقية الامة وإنهاضها · وهي بقسميها

لا ترقيّ الامم ولا تنهض بها اذا لم يكن لها منفذون صادقون يحملون الامة عَلَى اتباعها والعمل بمقتضى ما فيها ، ولا يوجد هؤلاء المنفذون الامتى شاءت الامة ان ترقى ، فانها حينئذ تنحّي رجال الحكم الجاهلين او المستبدين عن مناصبهم وتولي من هو كفوءٌ للعمل واهل للحكم

خذ مثلاً القرآن الكريم والامة الاسلامية : فالقرآن قانون سماوي عادل مدني صالح للعمل به في كل زمان ومكان ، وفيه من الحث عَلَى العلم والاخلاق الفاضلة والبر بالفقير واستحثاث الهمم عَلَى صرف المال فيما ينفع الامة و يرقيها مالا يحصى ، ومع ذلك فانك تجد المسلمين — بعد ان كانوا ارقى الامم واعرقها في المدنية والاصلاح — احط من غيرهم في كل بلدة من البلاد . والاسلام اسلام عَلَى حاله والقرآن قرآن عَلَى حاله فما السر في ذلك ؟

— لا شك ان السر في هذا الامر هو ما قدمناه من ان القانون ليس العلة في ترقي الامة ، بل العلة هو استعدادها وميلها للترقي ، ووجود قوم ينفذون هذه القوانين بعدل واستقامة ، والقانون يكون حينئذ سبباً وهادياً لها فيما نقصد اليه

فنحن اذاً في حاجة كبرى — قبل القوانين — الى تعليم الامة لتخرج لنا رجالاً اكفاء للاعمال ، قادرين عَلَى قياد زمام الأُمة والحكم في اموالها ودمائها ، والا فان الحرية وما اتت به من القوانين لا تجدي نفعاً ولا تغني فتيلاً

. . . . .

وهناك مسألة مهمة جداً وهي ان واضعي القوانين يجب ان يكونوا

عالمين شاعرين بحاجة الامة التي يسنون لها تلك الانظمة ، و يشترعون لها تلك الشرائع ، لان لكل امة عادات واخلاقاً تخالف ما عليه الاخرى ، كما تخالفها من حيث التقدم ورقي الفكر ونماء الحضارة والتمدن ، فلا يصح ان تُحكم امة جاهلة خاملة فاسدة الاخلاق كثيرة الجرائم بقانون امة بلغت في المدنية والعمران شوطاً بعيداً ، وادركت منهما غاية شاسعة ، كما لا يصح العكس . فلا بد اذن من النظر الى حاجة الامة وما تقتضيه بيئتها

وان من الخطإ البيّن ان تقاس الأُمة العثمانية الحديثة العهد بالحرية والدستور بامة الفرنسيس او السكسون فتحكم بقانون احداهما، لان الفرق الشاسع بيننا و بينهم يوجب علينا ان نسن ّ لانفسنا قوانين توافق بيئتنا وحالتنا الاجتماعية

والناقد البصير يرى ان من الواجب — فضلاً عما قدمنا — ان تتعدد قوانين الدولة بحيث يكون لكل ولاية من ولاياتها قانون تُحكم به غير قانون الولاية الاخرى حسب اختلافها في درجة المعارف والرقي الفكري ، وهذا هو الشأن في الدول العظمى كانكلترا ، فان القانون الذي تحكم به الهند غير القانون الذي تحكم بهِ الانكليز . ولو حذت الدولة العثمانية حذوها لكان لها خيراً واولى من حكم جميع العثمانيين بقانون واحد ، من غير تفرقة بين ما هو راقٍ منها وما هو منحط ، و بين ما هو قابل وما هو غير قابل

يجب ان يكون القانون الذي تحكم به استانة وسلانيك و بيروت ودمشق وغيرها غير القانون الذي تحكم به اليمن والاناضول وقسم عظيم من بلاد الارناؤُط ، فان البلاد الأُولى وما هي على شاكلتها تحتاج إلى حكم ارقى من الحكم الذي تحتاج اليه البلاد الاخرى ، وهذا مشاهد حتى يكاد يُلمس

باليد ، وقد وضح وضوح الشمس بعد اعلان القانون الاساسي ، فقد كان بون شاسع بين هاتين البلادين من حيث تأثير روح الحرية والدستور في نفوس اهليهما وعدم تأثيرها

ولو اردنا ان نبحث عن منشأ الثورات في البلاد العثمانية لوجدنا ان اكثرها يرجع لهذا السبب نفسه

خذ مثلاً البلاد اليمانية فان ثوارتها في الدور البائد والدور الحاضر سببه انهم لايودون ان يُحكموا بغير مواد الشريعة الغراء . ولما كان سكان تلك البلاد كلهم مسلمين — الا ما ندر — فيجدر بالدولة ان تنظر إلى شكاويهم وتعطيهم مطالبهم فترسل اليهم حكاماً عالمين بالشريعة المطهرة يحترمون تقاليدها الصحيحة ، فانها بذلك تكسب ودّ اليمانيين وتريح نفسها من هيجانهم وثوراتهم

هذا من حيث النظر إلى القوانين التي تختص بالجزاء والمعاملات والحقوق

واما ما يختص بالمعارف فالنظر فيه لايقلُّ عن النظر فيما سبق ، فان المعارف روح البلاد وهي السبب الوحيد لإيقاظها وانهاضها ، فيجب الاهتمام بنظامها اهتماماً عظيماً بحيث يكون عاماً شاملاً لحاجات كل قطر من الاقطار العثمانية علَى اختلاف لغاتها ومذاهبها ، فان كانت الانظمة المتعلقة بالحقوق والجزاء والمعاملات تصلح مثلاً لبعض البلاد العربية والتركية معاً فان النظام المتعلق بالمعارف لايصلح منه ما يصحُّ العمل به في استانه وسلانيك لبيروت وحلب و بغداد وغيرها من الولايات العربية لاختلاف اللغة . وهذا من جملة شكاوى ابناء العرب التي ملأَت الخافقين ، فان اللغة التركية كادت تمحو اثر اللغة العربية ، فانها — فضلاً عن كونها لسان الدولة الرسمي — لسان

العلم في مدارس الحكومة عامة في البلاد التركية والعربية عَلَى السواء ، وكان الأَولى بالحكومة ان تجعل لسان التدريس في كل بلادٍ بلغة اهلها ، فانها ان فعلت ذلك تكون قد سعت لترقية البلاد ترقية محسوسة ، لان التلاميذ لايدركون معنى العلم ان درسوه بغير لغتهم إلا بعد اتقان اللغة التي يدرسونه بها ، ولا يتأتى لهم اتقانها إلا بعد مدة ليست بالقصيرة ، وفي اثناء تلقي العلم يكون التلميذ مشغولاً بتفهم العلم وتفهم الالفاظ التي تحوي ذلك العلم ، فيكون علمه بسبب ذلك ناقصاً مقتضباً ، فلو درس التلميذ العلم بلغة ابيه وامه فلا يُشغل الا بشيء واحد وهو تفهُّم معنى العلم الذي يتلقاه ، وهذا سرٌّ عظيم يجب ان تتنبه اليه نظارة المعارف ، وان كان يسيء اكثر الشبان الاتراك المغرورين الذين يسعون جهدهم لتتريك عناصر الدولة

اي شيء يستفيده الطالب الحديث الذي يدرس الجغرافيا والحساب والطبيعيات وسائر العلوم الكونية ، ان كان يدرسها بلغة لا يفهمها ؟ فان قيل يجب ان يدرسها باللغة التركية ليتعلمها ، فنقول : ان العلم يجب ان يتعلمَّ للعلم ، واما اللغة فيجب ان يدرسها في اوقاتها المحددة لها ، ولا ينبغي ان نخلط الوسائل بالمقاصد

نعم لا بأس من درس العلوم باللغة الرسمية بعد ان يقتلها الطلاب علماً ، وذلك لا يكون الا في الصفوف العالية كطلاَّب السنة الخامسة والسادسة والسابعة من المدارس الاعدادية الرسمية ، اما فيما هو ادنى من الصفوف فحرام اضاعة وقت التلاميذ عَلَى غير جدوى ، لان تعبئة ادمغة الطلاَّب بحفظ الفاظ لا يفهمونها اشتغالٌ بالعبث ، والاشتغال بالعبث ليس من دأب من

يريد أن يتعلم العلم او يعلّمه

فالخلاصة ان نظاماً واحداً للمعارف توجب الحكومة العمل به في كل بلادها ليس من الحكمة في شيء

ولباب الكلام : ان النظامات ضرورية للبشر وانها يجب ان تكون حسب حاجات البلاد وان يكون منفّذوها من اصحاب الوجدان والعلم ، فان بذلك سعادة البلاد وترقّي العبـاد ، والله وحده الموفق الى طريق السداد ، متى اخذت الامة باسباب النهوض وسلكت سبيل الرشاد

الثورة الادبيـــة

او ثورة الاخلاق والمبادئ

نهوض الأُمم وقعودها ، وتقدمها وتأخرها ، وحفظ كيانها وانهيار مكانتها ، كل ذلك أثر من آثار اخلاقها ، ومفعول من مفعولات صفاتها ، وتلك قاعدة اجمع علَى صحتها علماء الاخلاق والاجتماع ، وعوّل عليها اهل العمران والسياسة فحيث وجدت الاخلاق الصحيحة وحب الفضيلة ، وحيث رُكزت الاعمال علَى دعائم القلوب الحرة ، وبُنيت علَى أُسس الوجدانات الفاضلة ، فهناك الامة الراقية والشعب الحي ، وحيث فسدت الاخلاق ، وتقوضت دعائم الطباع الحرة ، فهناك الشعوب السافلة والأُمم المنحطة

ومن العبث المحض محاولة ترقية أمةٍ من غير سلوك تلك السبيل، سبيل تقويم الاخلاق المعوجة ، وتنقية القلوب الدنسة ، وتصفية الطباع الكدرة ، ومن سعى غير هذا المسعى فقد ذهب سعيه ادراج الرياح ، فكانت اعماله هباءً منثوراً

تلك سنة الله في عباده « ولن تجد لسنة الله تبديلا » وقد انبأتنا الاخبار ، وعلمتنا الأسفار ، وارشدتنا دلائل الاعتبار ، واوضحت لنا شواهد الاختبار ، إن عوامل التربية والتعليم هي اعظم مؤثر في نفوس الأمم ، وأنها هي السبب الوحيد ، والدواء الشافي لأدواءها ، فلا رقيّ ولا نجاح إلا بتغيير الاخلاق الشائنة ، ونزع الصفات الضارة

درج على ذلك الانبياء والفلاسفة ، وتبعهم علماء الاخلاق والاجتماع ، ولنا فيهم اسوة حسنة وقدوة صالحة

. . . .

جاء موسى عليه السلام فوجد شعب إسرائيل ضالاً طريق الحق ، وقد انغمس في حمأة المفاسد ، وتلوث باوضار العادات السيئة ، فبذل الجهد في اصلاحهم ، وصرف وسعه وطاقته لحملهم على معالي الامور ، فكانت نتيجة سعيه قليلة ، ونور عمله ضئيلاً ، فلما عزم على أن يسير بهم فاتحاً ومبلّغاً اوامر ربه ، امتنعوا جبناً وخورا وقالوا له : « اذهب انتَ وربك فقاتلا إنّا هٰهنا قاعدون » ذلك لان الشعب قد كهلت في نفسه العادات ، وشاخت في قلبه الخرافات ، واستولت عليه التقاليد والجبن

فلما ضاق موسى ذرعاً حتى حار في امر اصلاحهم أفهمه الله ان لا سبيل

الى ذلك ، ولا وسيلة لما يبغي . لكنه أرشده الى أن يسير بهم الى المكان المعروف بتيه بني اسرائيل ، والحكمة من ذلك ان يبتعدوا عن الأُمم المجاورة ليتمكن مما يريد . فسار بهم وبقوا اربعين سنة يتيهون في الارض ، فانقرض بسبب ذلك الجيل الذي تأصلت في نفسه التقاليد التي كانت تمنع من تلقّي تعاليم موسى عليه السلام ، ونشأ منه جيل لم يتعوّد الترف وفساد الاخلاق ، بل شبَّ عَلَى حسب ما يريد موسى ، ودرج عَلَى الاخلاق القويمة ، ومشى في سنن العدل والفضيلة ، وهناك زحف موسى بالنشء الجديد فاتحاً داعياً الى الله فلبّاه النشء طوعاً واختياراً . وما سبب ذلك الا تربية ملكة الاخلاق والفضائل حتى صارت طبيعة له

. . . .

جاء عيسى عليه السلام وقد فسدت طباع هذا الشعب ، فبذل ما في طاقته لتثقيف عقله وتربيته تربية صالحة ، فاُضطُهد وأُهين ، غير انه بقي مثابراً عَلَى ذلك حتى استخلص لنفسه اثني عشر صديقاً عوّدهم مكارم الاخلاق ، وبثّ في روعهم حب العمل الصالح وخدمة الامة ، الى ان رفعه الله اليه ، فاُنتشر تلاميذه في الآفاق وبثوا دعوته ، ونشروا تعاليمه بالترغيب والترهيب والوعظ والارشاد ، فخلّصوا اُمماً كثيرة من الشرك وفساد الضرائب والعادات الضارة

. . . .

جاء محمد عليه السلام ، وكان الجهل والفساد قد عمّا البلاد ، واستوليا عَلَى جميع الأُمم ، خصوصاً الامة العربية التي استباحت اهراق الدماء ووأد البنات وعبادة الاصنام ، وغير ذلك من الاعمال الشائنة والعادات الضارة ،

فسعى لتحسين حالهم وانهاضهم من طريق التربية والموعظة الحسنة ، فلم تمضِ مدة حتى حسنت احوالهم واستقامت افكارهم ، و بلغوا من التقدم ورقي الافكار شأواً بعيداً . ولم يجئهم لاصلاحهم من طريق القسوة والشدة واشهار السيوف في وجوههم وان ماحصل من الغزوات والحروب انما هو لحماية الدعوة من المعارضين ، ومقابلة لاعتداء المعتدين ، وظلم الظالمين ، من المشركين الذين كانوا يؤذونهُ و يسلطون اشرارهم عليه وعَلَى اتباعه ، و يشنون الغارة و يقطعون السبل ، و يفعلون الافاعيل ، ويعملون من ضروب العدوان والجور ما لا يحصى . كل ذلك ليحولوا بينهُ و بين ما جاء به من الهداية ، مع انهم يعلمون انه الحق من ربهم ، ولكنها الأنفة والاستكبار ، وهم يعلمون حق العلم انه متى انتشرت دعوته و كثر متبعوه حيل بينهم و بين ما يشتهون ، وانقطعت آمالهم و محيت سيطرتهم ، وطمست اعلام عتوهم وجبروتهم ، لان من قواعد الدين مساواة الصعلوك بالامير في كل حق من الحقوق ، فهم كأهل الارتجاع يعلمون فوائد الدستور ، و يعرفون نتائج العدل والحرية ، ولكنهم يشايعون الظالمين ، و ينصرون المستبدين ، و يعارضون الحرية والدستور بكل قواهم كلما لاحت لهم بارقة او اغتنموا فرصة — ذلك لان الحرية قد قضت عَلَى آمالهم ومآربهم ، والدستور قد ساوى بينهم و بين من كانوا يظلمون — ولا تسكن ثائرة هؤلاء الزعانف و يؤمن شرهم الا اذا حوكموا لدى المحاكم العرفية . وهكذا كانت حروب النبي واصحابه اشبه بحروب عرفية يقصد منها درء العدوان واستئصال شأفة المنافقين المستبدين الذين كانوا يهيجون عليهم القبائل ، و يجيشون لهم الجيوش ، لذلك لم يكن يحارب الا من حاربه ، ولا يناوئ الا من ناوأه ، ولا يجبر احداً عَلَى اتباعه

والايمان بما جاء به « لا إكراه في الدين » « لكم دينكم وليَ دين » (١)

• • • • • • • • •

هكذا كانت سيرة الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهكذا شأن العقلاء والفلاسفة في كل جيل وكل امة — يأتون الأُمة من ابواب التربية وتنوير العقول حتى اذا تمّ لهم ما ارادوا نهض الشعب من قبل نفسه ونزع عنه اردية الخمول ، وطرح معاطف الجهل والفساد — وتلك هي الثورة الادبية او ثورة الاخلاق والمبادئ ، وبها نجح الانبياء وأفلح المصلحون

ان الثورة لطلب الحق والحرية بالسيف إن لم تتقدمها الثورة لإِصلاح العادات وما درج عليه الشعب من الاخلاق السافلة لا تجدي نفعاً ولا تغني فتيلاً ، لانه متى سكنت ثائرة المطالبين بالقوة ، او استمالهم الباطل اليه عادت الأُمة الى أشد ما كانت عليه من الظلم والخمول ورقدة العزيمة

أما إن كانت الأُمة هي المطالبة بذلك بسبب ما عندها من الاخلاق الراقية والآراء النيرة والاستعداد لمعالي الامور فلا يمكن ان يتمكن أهل الباطل من ارجاعها إلى الحالة الغابرة بعد ان نالت حريتها ، واستولت عَلَى رغباتها ، فانها عند ذلك تقوم قومةً هائلة وتناضل عن حقها ، وتدافع دون مدّ يدِ

---

(١) اوضحنا هذا المقام مقام كيفية انتشار الدين الاسلامي في كتابنا « الاسلام روح المدنية » الذي رددنا به عَلَى لورد كرومر وفي كتابنا « خيار المقول في سيرة الرسول » وابنّا باجلى بيان ان الدين انما قام بالدعوة لا بالسيف . وان السيف انما شرع لحماية الدعوة عند المعارضة ودفعاً لاعتداء المعتدين . فمن احب فليراجع ذلك في الكتاب الاول لان الكتاب الثاني لم يطبع بعد

السوء الى أحبّ حبيب لديها ، واعز مشتهى عندها

هـذه الامة الفارسية قد منحها الشاه الاسبق جد الشاه الحالي الحرية والدستور غير ان ولده بعده قد نزع منها ذلك الحق الموهوب (وا أسفاه صار الحق يوهب لصاحبه) ولكنها لما ثارت فيها ثائرة الاخلاق ، وعلمت ان الحرية حق لها هبّت لارجاعه بالسلم فلم تفلح ، فطلبته بالسيف سيف الأُمة ودمائها فنالته بالرغم عن كل معاند ، والقت شاهها الظالم عن منصة الحكم كما تُلقى النواة

وهذه الامة العثمانية قد نالت حريتها لأَول مرة دون طلب منها ولا استعداد لذلك، فنزعها الذي اعطاها ، ثم نالتها اليوم عن يد جيشها ، ولكنه كاد يكون سبب نزعها يوم الفتنة الارتجاعية فتنة ١٣ = ٣١ من نيسان لولا ان هبّت الامة وجيش آخر لتثبيت دعائمها

ولولا ان كثيراً من الامة اليوم غير كثير من الامة قبل ثلاث وثلاثين سنة لتمّ للظالمين ما ارادوا

ومع كل هذا فان الاخلاق لا تزال مريضة فينا ، فان لم نسعَ لتطبيبها ومعالجتها فلا نجني من ثمار الحرية شيئاً ننتفع به ، فعلى اطباء العقول والاخلاق في كل بلدة من البلاد العثمانية ان ينتقدوا العادات ، و يستأصلوا شافات الامراض الاخلاقية ، و يبثوا في الناس روح النهضة ، و يقاوموا بكل قوتهم ادواء الجهل واعداء الرقي وانصار الرذيلة ، وينحوا بالملائمة تلميحاً وتصريحاً على أهل المفاسد وارباب البدع والخرافات الفاشية ، التي هي الداء الوحيد الساري في جسم المجتمع العثماني ، وان يُفهموا الشعب معنى الحياة الصحيحة ، ويعلموهم

حقوقهم فيطالبوا بها ، وان يغرسوا في نفوسهم عدم الرضاء بمن كان فاسداً من حكامهم ، او غير صالح من روؤسائهم ، ومتى تمّ للمصلحين هذا ، وعرفت الامة وتربّت وتعلمت وتهذبت ، فانها تثور من نفسها ، وتطالب باصلاح ما فسد من شؤون حالتها الاجتماعية والعمرانية

. . . .

الثورة : نهوض يُقصد منه تغيير في السياسة او الاجتماع او الاخلاق من قبيح الى حسن او حسن الى قبيح ، وقد يعبّر عن الغاية الاولى بالانقلاب وعن الثانية بالهيجان · وقد يُخص القيام لطلب الحق بالانقلاب ، والنهوض لمناصرة الباطل بالثورة — والثورة للحق من مطالب الأُمم الراقيـة · غير ان النهوض لتغيير نظام السياسة لا يفلح انصاره ولا تثبت دعائم مطالبهم ان لم يسعوا قبل ذلك لتغيير نظام الاجتماع والاخلاق حتى يكون للامة استعداد لتلقي ما يراد إيجاده · وحتى لا تثور ضد ما يخالف الانظمة القديمة والعادات السائرة فينتج حب التغيير عكس المقصود · ولو فرضنا انها لم تثرْ ولم تعارض في جديد النظام وحديث التغيير ، فانها لا يمكن ان تستفيد من الاصلاح شيئاً ، بل ربما يكون الاصلاح شرًّا عليها من عاداتها القديمة ولو كانت ضارة ، وهذا قولٌ ربما لا يسلم به كثير من الناس · ولكنهم لو تروّوا قليلاً وسلكوا في البحث جادة الاستطلاع والتنقيب لسلموا بما نقول تسليماً — وهاك على ما نقول ادلة بسيطة يسلم بمقدمتها ونتائجها كل انسان :

— لا ريب ان حالة الامم المريضة الاخلاق والجاهلة كحـالة الرجل الضعيف القُوى او المبتلى بمرض من الامراض · ولا ينكر احد ان الماً كل

المغذية كاللحوم والخضراوات مفيدة جداً ان لم تتعد قانون الصحة · ومع هذا فلو تناول ذلك الرجل المريض شيئاً منها فلا شك ان مرضه يزيد وشفاءه يبطؤ · لذلك يسعى الطبيب بإعطاءه العلاج المناسب لتقوية جسمه وارجاع قواه وإذهاب مرضه · حتى اذا بلغ القصد وزالت العلة يصف له من المآكل اللطيفة ما يناسب معدته · وحين يصل الى درجة الشفاء التام يبيح له ان يأكل ما شاء ويرغبه في تناول الاطعمة المقوّية

وهكذا مرضى العقول والاخلاق تضرهم السياسة والثورة لها والنظامات الراقية التي تُنال بواسطتها ، لانها بمنزلة الاطعمة المقوية التي لا تتمكن المعدة من هضمها الاَّ بعد تقويتها بالادوية · فيجب قبل ذلك ان تداوى عقولهم واخلاقهم التي هي معدة الاجتماع حتى اذا صلحت وحسنت وصارت مستعدة للحكم الراقي وهي غير نائلة اياه ثارت لطلبه من طريق السياسة

وليُعلم انه بقدر استعداد الامة للحكم الدستوري والاصلاح تنتفع من ذلك · فان نالت الدستور وأُبيح لها الاصلاح غير أنها لم تستنتج شيئاً فاعلم انها أُمة غير صالحة لهذه النعمة · لانها لم تقدرها قدرها ولم تهيئ لها الاسباب اللازمة الكافلة ببقائها والمستخرجة لفوائدها · وليس الذنب علَى القوانين ولا علَى القائمين بتنفيذها · وانما الذنب علَى الامة التي تُحكم بتلك القوانين · لانها تدع منفّذيها يفسرون موادها حسب مشتهياتهم دون معارضة وما مصادمة وعندي ان هؤلاء المنفذين او الحكام غير ملومين · لانهم يرون شعباً حقيراً وامةً جاهلة خاملة فاسدة الاخلاق ، فيعتقدون انهم ان مشوا في سنة العدل وسلكوا السبيل القويمة يعارَضون من قِبل تلك الامة ، لأَنها لا تريد العدل

ولا تميل الى الانصاف ، وحين يرى الحاكم من الامة ذلك يعلم انها ضعيفة فيلعب بها كما يلعب الصبي بالاكرة ويستبد بشؤونها ويتصرف بمصالحها حسب ارادته ومشتهاه

ومن الغريب انه توجد طائفة منها فضلاً عن استكانتها وخنوعها لكل اشارة من الحاكم ، فانها تدله عَلَى طريق العبث بالمرافق والاستئثار بالاعمال وتسهل له الطريق الى ذلك تسهيلاً . وهؤلاء هم اخصاء الحكام واعداء الامة وان كانوا بعض افرادها، فان نفوسهم قد تعودت الرياء والمداهنة والتزلف وغيرها من الاوهام التي يعدونها شرفاً . لانهم يحسبون التقرب من الحاكم فخراً ومجداً

فالامة التي ترضى عن مثل هؤلاء الافراد منها وتبجلهم وتعظم مقامهم هي أُمة ساقطة لا يجدر بها الا الظلم ، ولا يناسبها الا الاضطهاد ، لأنها فقدت عاطفة الإباء ، وماتت فيها روح المجد ، لذلك استسهلت الهوان :

من يَهُنْ يسهل الهوان عليه ما لجرحٍ بميّتٍ إيلام

والشعب الذي يستكين امام عبث الحكام بالقوانين وتلاعبهم بمصالحه هو شعب حقير لا يصلحه الا السيف، فان بقية السيف انمى عدداً وانجب ولداً

. . . .

ان الامة التي هي عَلَى هذه الشاكلة ان ثار في متنوريها وعظماء رجالها ثائرة الاصلاح السياسي قبل ان يتقدمه الاصلاح الاخلاقي وثورة الفلاسفة واهل التربية يكون ويلاً عليها كما اسلفنا فان تمّ نوال الاصلاح السياسي قبل الاخلاقي وانتشرت في الامة القوانين الراقية وحُمل الحكام عَلَى القضاء بها ،

فترى تلك الامة آسفة كل الاسف عَلَى ماضيها وعَلَى الحالة التي كانت فيها ، وتتمنى لو ترجع في حافرتها ، مع انه لا يشك عاقل في ان حالتها الحاضرة هي خير من حالتها الماضية ، واي ذي لب يشك في ان العدل والمساواة خير من الجور والحكم بمقتضى الهوى ورغبات النفوس الظالمة الفاسدة

واعجب من هذا كله انك ترى حالة هذه الامة بعد انتشار العدالة والحكم الحق فيها شراً من حالتها الغابرة ، لهذا تتمنى الرجوع الى سالف عيشها ، وتود الارتداد عن الحق الى الباطل ، والسر في ذلك معروف لاهل التفكير والعلم باحوال البشر : وذلك ان الامة التي اعتادت الظلم والاستكانة وفساد الاخلاق تستلذ ذلك ولا تشعر بوخزه لضعف الشعور ومرض العقل ، ولكنها ان حُملت عَلَى اضداد هذه الصفات ونُهيت عن عاداتها الضارة ، وثبتت عَلَى النفور عنها ، فتنغرس في نفوسها الفضائل حتى تتشعب جذورها وتكثر اغصانها ، فلو أُريدت بعد ذلك عَلَى الرجوع الى حالتها الماضية ابت ان تعود وقاومت مُريدها اشدّ المقاومة . وما سبب هذا وذاك الا تحكُّم العادات ، فكما امكن تأصل الشيء يمكن استئصاله ، وغرسُ الفضيلة في مكانه ، وتعهّدها حتى تتأصل جذورها وتنمو فروعها

هذا وان ما نشاهده اليوم من تأخر الاصلاح وسوء الحال منشأُه مرض اخلاق الامة وضعف قوى اجتماعها وتحكم عادات الدور البائد فيها ، ولولا ذلك لكانت نتيجة الاصلاح اليوم دانية القطوف ، عامة المملكة بأسرها

نسمع ان كثيراً من الناس يفضّلون الماضي عَلَى الحاضر ، لا حبّاً في الاول ولا كرهاً في الثاني ، ولكن لانهم لم يشاهدوا من الاصلاح والرقي

فان فعلت ذلك نجحت وجنت فوائد الانظمة الجديدة ، وان بقيت كما هي اليوم خاملة مستكينة فالعاقبة غير حميدة

فاين رجال الامة الذين يريدون اصلاحها ، ويسعون وراء ترقيتها ، فليبذلوا جهدهم في استخلاص الشوائب من نفوسها ، وتنقية الاوضار من اخلاقها ، وتشذيب المفاسد من بساتين قلوبها ؟

وبغير هذه الوسيلة لا يمكن الفلاح ، ولا يتأتى الرقي الذي نسعى وراءه ونطالب به

والخلاصة : ان الامة هي السبب في إنجاح مقاصدها ، وهي السبب في ذهاب مطالبها ادراج الرياح

وما سبب ذلك كله الا الاخلاق ، فعلينا باصلاح الاخلاق :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت   فان همُ ذهبت اخلاقهم ذهبوا

السل الاجتماعي

الانسان مخلوق في أحسن تقويم وابدع نظام ، كُملت صفاته الظاهرة ، كما حسنت مميزاته الباطنة · اسكنه الله هذه البسيطة ليعمرها ، واطلق فيها يده ليستخرج خيراتها · اوجده ليكون خليفته فيها ، فيدبر شؤونها ، ويحسن سيره في مناكبها · وقيّده بانظمة عادلة ، وربطه باسباب قوية ، حتي لا يتعدى ما خُلق لاجله ، فيحلّ به ما حلّ بإمم وجدت قبله ، وينالهُ ما نالها من

التلاشي ، و يصيبه ما اصابها من المحو من لوح هذه الكرة

الانسان اجتماعي فهو عرضة لأن يطرأ عليه ما يطرأُ عَلَى كل اجتماع فيبدّد شمله ، و يفرط عقد نظامه ، كما اصاب الامم التي سكنت هذه الارض قبل ان يقطنها الانسان

تلك أُممٌ قد خلت ، وقد كانت — كما نحن اليوم — عامرة الارض ومثيرتها ، عاملة عَلَى استخراج خيراتها ، جادّةً نحو احيائها . ولكن قد اصابها ما محقها وترك ديارها قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيه عوجاً ولا أَمتاً . اجل لقد سرى فيها مرضٌ قضى عَلَى اجتماعها ولم تقضِ اللبانة من وجودها ، قد اندسَّ فيها ذلك الداء العياء الذي ما اندسَّ في أُمة من الامم وتغافلت عن مداواته ، الاَّ كان سبب اندثارها وعلة محقها

نشأ في نفوس تلك الامم التحاسد والتباغض وحب الأَثرة ، فنشأَ عن ذلك ترك عمران الارض ، والاشتغالُ بسفك الدماء ، وضرب الاقوام بعضهم رقابَ بعض ، حتى آل ذلك الى ان حكَّم الله فيهم نظامه في الاكوان ، ذلك النظام الذي يوآخذ فيه خلقه بما ظلموا تدريجاً ، حتى لم يُبقِ منهم احداً ، فلا ترى لهم اليوم من باقية ، والى ذلك الاشارة بقوله تعالى : « واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة . قالوا : اتجعل فيها مَنْ يفسد فيها و يسفك الدماء ؟ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال : اني اعلم ما لا تعلمون »

ذلك الخليفة هو آدم و بنوه ، وقد تشاءم الملائكة ان يكونوا كما كان

من وجد قبلهم من الامم : سفكةً للدماء ، مفسدين في الارض ، فيصيبهم من المحق والمحو ما اصاب اولئك الاقوام

. . . .

خلق الله المخلوقات وجعلها اجناساً وجعل تحت كل جنس نوعاً . ومن هذه الاجناس الحيوان ومن انواعه الانسان ، وهو الحيوان الناطق اي المدرك العاقل . فاليه انتهى ارتقاء هذا الجنس ، وعنده انقطعت سلسلة ترقيه . قال الله تعالى : « ولقد كرّمنا بني آدم » وما هـذا التكريم الا بما أودعه فيه من القوى الكاملة ، وبما ميزه به من العقل ، ذلك الجوهر الصافي المشرق من الملكوت الاسمى والمحل الارفع . فبـه يؤآخذ الانسان ، وبه يكون مظهراً للرضوان ، وبه يسير في مناهج الحياة ، وبه يعرف الخير من الشر ، ويميز الخبيث من الطيب

والانسان في الحقيقة ليس مجرّد هذه الصورة الظاهرة ، ولا هذا الجسم النامي ، ولا تلك التقاطيع . بل هو ذلك الجوهر السامي ، الهابط عَلَى هـذا الجسم النامي . هو ذلك الامر الرباني ، المتجلّي عَلَى هذا الهيكل الجسماني . لان الانسان انسان من يوم يُخلق ، الى يوم يموت ، وما يدركه ويعمـله في حياته دائم لا يزول ، مع ان جسمه يتبدل كل مدة ، فان اجزاءه اليوم هي غيرها قبل عشر سنين بلا ريب . فالانسان اذن هو تلك الروح العاقلة والجوهر المدرك ، وما سواهما فهو آلة وواسطة ، وهذا هو السر الذي فضله الله به عَلَى سائر خلقه

اذا كان لهذا الكائن الصغير وهو الانسان تلك المنزلة العظمى ، فليس

وجوده الا لحكمة عظيمة ، هي غاية ما يمكن ان يصل اليه عقل البشر . وتلك الحكمة هي مجملة في قوله تعالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » والعبادة هنا بمعنى المعرفة كما حقق ذلك جمهور من المفسرين . فالغاية إذن من خلق الانسان هي ان يعرف الله حق معرفته ، ومتى عرف الانسان ربه يتشوق الى طريق يسلكه ليصل اليه ويتقرب منه . وما الوصول اليه والتقرب منه الا العمل بما يرضيه ، ليكون ذلك واسطة الاحسان وإغداق النعم

. . . .

الامم التي تسير بما يرضي الله ، وتجعل عمران الارض هدفها الذي ترمي اليه ، وغايتها التي تقصد اليها ، هي الامم التي يغدق الله عليها نعمه ، ويجعلها سيدة الارض ، والقابضة عَلَى زمام منافعها وخيراتها ، والآمرة الناهية في كل شأن من شؤون سكانها ، والامام الذي يقتدي به من تقاعس عن انتهاج منهجها ، ثم دبت فيه الحياة دبيبها ، فاهتم بإصلاح حاله ، وعُني بكسر قيود الخمول عن عقله

. . . .

ان نهوض الامم وترقيها ، وتسامي درجاتها وتعاليها ، ليس من الاتفاق في شيء . بل ان للترقي نظاماً ، وان لبلوغ الامة غاية المجد قانوناً . فمتى وجهت الامة عزيمتها نحو العمل بنظام الترقي والأخذ باسباب النجاح ، وصبرت عَلَى ماتلاقيه من العقبات في سبيل تطبيق هذا القانون ، فانها تصل الى ماترجوه من السعادة ، وما تتطلبه من الفلاح ولو بعد حين

ان الانسان المادي — واعني به هذا الهيكل المرئي — اذا لم يعمل بقانون

حفظ الصحة ، ويتخذ الحيطة دفعاً للعوادي ، احاطت به الادواء من كل جانب ، وهرعت اليه الامراض من كل مكان سحيق

الا وان الانسان المعنوي — واعني به الروحي — اذا لم يعمل بقانون حفظ صحة اجتماعه ، انهالت عليه الطوارئ المعنوية ، وانصبت عَلَى مجموعه المدني امطار من السوء تفقده مميزاته واخلاقه ، وتجعل وجوده الروحي كأمس الدابر

الامراض المادية كثيرة ومن اقبحها فعلاً واسماً ذلك الداء الوبيل الذي ترتعد الفرائص فرقاً من ذكره ، وهو السل · وقانا الله واياكم وسائر خلقه من فتكاته

وكذلك الامراض المعنوية كثيرة ، ومن اقبحها فعلاً واسماً ذلك الداء الضاري الذي لا يخافه الا القليل ، وهو الذي اخترت ان أُسميه « السل الاجتماعي » أعان الله صلحاء الامة ومصلحيها عَلَى رد هجماته ، والتخفيف من ويلاته

ان الانسان المادي متى نزل به داء السل فانه لا يزال يضؤل ويخل حتى يدعه كالخلال ، ويجعله كالخيال ، الاَّ اذا تعهّده الاطباء بالادوية الشافية · والعلاجات التى تصدُّ تياره

وكذلك الانسان المعنوي متى ألمَّ بساحته « السل الاجتماعي » ، فانه لا يزال تضؤل اخلاقه ، وتُحل مميزاته ، حتى يجفّ غصن حياته الروحية ، فيصبح كالحيوان الاعجم ، لا يعرف من الحياة الاَّ ما يشاركه به الحيوان ، ويظن بل يعتقد كما يعتقد من ُبلي بهذا الداء انه لم ُيخلق لغير هذا ، كما قال قائلهم :

إنما الدنيا طعام وشراب ومنام

فاذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم : « إنْ هم الاّ كالانعام ، بل هم اضلُّ سبيلا »

اجل ان الحيوانات السائمة هي خير من هذا الصنف الذي يُعدُّ من الانسان ، وليس من الانسانية في شيء ، لان الانسان شيءٌ والانسانية شيءٌ آخر ، ذلك لان السوائم ان لم تنفع فانها لا تضر ، بل أن كثيراً منها ينفع غيره أما بحمل الاثقال إلى بلد لم نكن بالغيه الا بشق الانفس ، واما بانه يكون غذاءً منه نموّ اجسامنا و بقاؤها الى غير ذلك من المنافع المادية · واما الانسان الحيواني فانه فضلاً عن كونه مضرًّا بنفسه فان ضرره يتعدى الى غيره من ابناء جنسه ، و يكون وجوده ضربة قاضية عَلَى الانسانية ، وسيفاً مسلولاً عَلَى عنق الاجتماع والعمران · لأن هذا الصنف من الناس لا يفتأُ يسعى ليلَ نهارَ لتقويض اركان المجتمع بما يأتيه من ضروب الانانية وما يعمله من انواع المخازي والاضاليل لجرّ منفعة ذاتية وجلبِ ما يأمره به هواء النفسي ، ولو أضرَّ ذلك بمجموع الامة التي هو عائش في بيئتها ، ومتمتع بخيرات اعمالها ، وثمرات جدّها واجتهادها ، دون أن يفكّر في ان ضرر عمله هذا ليس عائداً عَلَى أُمته فقط ، بل هو راجع اليه ايضاً لانه واحد منها ، وما يعود عَلَى المجموع هو عائد عَلَى الفرد البتة ، ضرورة ان البلاء متى نزل فهو يعم ، وان الفرد لا حياة له الا بالمجموع · ولكنهم لا يأْبهون لهذا المعنى ، ولا

[illegible]

ولا يقيم عَلَى ضيم يراد به   الاَّ الاذلاَّن عير الحي والوتد

الاَّ وان كلَّ ما نراه اليوم في الامة من فساد الاخلاق والجهل والتأخر وغير ذلك من ضروب الشقاء ، انما سببه الأثرة والانانية وحب الذات على غير المعنى الصحيح . وعن هذه الادواء القتالة قد نشأ كل فساد نراه وصدر كل شر نشاهده

. . . .

قلما نرى الامة تعمل جماعات جماعات حاملة لواء التضامن ، ضامَّة بين جوانحها روح التكاتف . بل نراها مشتتة الآراء ، متشعبة المقاصد ، مختلفة الاهواء ، اذا دعوتها لتجمع شملها شمست ، واذا أهبت بها لتلمّ شعثها جمحت . أما اذا ناديتها لحل الاواصر — ان كان هناك اواصر — معقودة هرعت . واذا حسّنت لها منكوراً ، وزينت لها امراً فرياً ، ثلج صدرها ، واشرق جبينها ، كأنك جئت شيئاً مشكوراً

يتهافت كثير من الامة عَلَى الملاذ المادية تهافت الفراش عَلَى النار او الجياع عَلَى القصاع ، ويجودون في سبيلها بما لا يعلمه الاَّ هم : من الاموال التي لو اعانوا بها أمتهم ، لتصرفها على المشروعات العامة ، لكانت خير أمة أُخرجت للناس ، حتى اذا دعوا لما فيه ترقية الاوطان ، واعلاء الشان ، لوَّوا رؤوسهم معرضين ، وولَّوا مدبرين ، كأنك تدعوهم الى داهية نكر ، او امرٍ بُجر . انَّ هذا والله لهو الخسران المبين ، والداء الدفين

. . . .

ذلكم هو الانسان — الذي ماخلق الا ليكون اجتماعيًّا — يفكك عرى

الاجتماع بما يأتيه من ضروب الفسوق عن الانسانية ، وما يعمله من انواع الهمجية · وقد نسي ان « الانسان أخو الانسان حبَّ أم كره ، وانَّ الخلق كلهم عيال الله فأَحبهم اليه انفعهم لعياله » كما جاء في الحديث الشريف

ما السر الذي صدف بهذا المخلوق الكريم عن سلوك السبيل التي أُمرَ بالمسير فيها ؟ وما السبب الذي قعد به عن الطيران في جوّ الفضائل ؟ وما الذي افقده عاطفة العمل متضامناً متكافلاً يحب لاخيه ما يحب لنفسه ؟ مع ان له عقلاً مفكراً و بصيرة نيرة

هذه اسئلة يتشوق كل امريء الى جوابٍ شافٍ عنها

-- في الانسان عقل ونفس يتنازعان هـذا المخلوق ، وكل واحد منهما يبذل جهد الطاقة ليكون له الفوز عليه · فاوّلهما يدعوه ليكون انساناً كلَّ الانسان ، فيحسّن له الخير و يهديه طريق الصواب ويحذره موارد الهلكة · وثانيهما يريه الخطأ صواباً ، والسراب ماء ، ويحسن له سوء عمله فيراه حسناً فاذا غلب العقل النفس فسار الانسان في مهيع الحق ، وعمل ما خلق لأجله ، فذلك هو الانسان الكامل ، ذو العقل الراجح · واذا غلبت النفس العقل ، فاتبع الانسان اوامرها وصار قيد نواهيها ، فذلك هو الحيوان الاعجم ، في صورة الانسان المكرَّم

« كل مولود يولد علَى الفطرة » تلك قاعدة عظيمة لما نحن في صدده ، فالانسان يولد طاهراً مبرَّأً من كل عيبٍ نقياً من كل شائبة · وانما ينحرف عن الجادة و ينطبع فيه ما لم يُخلق لاجله بما تلقنه من التعليم وما ينغرس فيه من التربية · فعلى التعليم والتربية مدار ترقيه او تدنيه ، فهما قطب سعادته

وسعادة أُمته او شقاؤُهما وعبثاً نحاول النهوض بالامة ، وسدًى نضيع الاوقات في تحسين حالتها ، اذا كان السل الاجتماعي — الا وهو فساد التربية — فاشياً في جسمها ، عاملاً عَلَى إضنائها و إنحالها

فاصلاح التربية والعمل عَلَى تهذيب الاخلاق والسعي وراء تنقية الادران المعنوية هي العامل الاكبر عَلَى اماتة داء الاجتماع

يُنَشَّأُ الطفل عَلَى الاسترسال في الهوى ويُعوَّد الكسل ، ويروَّض عَلَى الجبن والضعة ، ويطبَّع عَلَى الذل والخنوع ، ويُقسر عَلَى ان يتكلَّف ما ليس من طبعه ، حتى اذا ما شبَّ أُلقيَ حبله عَلَى غاربه ، وأُطلق له السراح فيرى من مفاسد البيئة التي تحيط به مالم يكن يرى ، و يشاهد ما يدعوه الى الانغماس في حمأة اوضارها ، فكيف بعد هذا يرجى ان يكون خادماً للامة ، او يؤَمل منه ان يكون (عَلَى الاقل) اميناً عَلَى نفسه

اما لو نُشّيء عَلَى الفضيلة ، ورُبّي على الشجاعة ، وعوّد ان يكون رجلاً منذ الصغر ، ورُوّض عَلَى الخير والاخلاق الكريمة ، وطُبع عَلَى النفور من الرذيلة ، حتى يكون ذلك خُلقاً من اخلاقه ، فانه متى شبَّ وخاض غمرات الحياة ، فلا خوف عليه من تيارها ، لانه يكون قد أَخذ لمثل هذا الامر أهبته ، لا كمن طلب البراز وهو اعزل ، لا مجنَّ يقيه الصدمات ، ولا سيف يدفع عنه الملمات

فسلُّ الاجتماع فساد التربية ، ودواؤُه اصلاحها ، وتعهُّد النشء بالمحافظة عليه ومراقبته مراقبة الزارع لزرعه والصانع لعمله ، فكما ان الحارث

يتعهد حرثه الى ان ينمو ويثمر فيتمتع بثمراته ، وكما ان الصانع يفرغ الجهد ليكون عمله متقناً فينتفع بخيراته ، فكذلك يجب عَلَى المربي ان يتعب و ينصب ، ويتعهد من سُلم اليه امر تربيته وتهذيبه ، لينشأ مربّاه عَلَى أحسن صورة من صور الكمال ، فيكون منه الخير والبركة لوطنه والناس اجمعين · قال الامام الغزالي عليه الرحمة :

«ان الولد امانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة خالية من كل نقش وصورة ، فان عُوّد الخير وعُلّمه نشأ عليه وسُعد في الدنيا والآخرة، وساعده في ثوابه ابواه وكل معلم ومؤدب · وان عُوّد الشر وأُهمل شقي وهلك ، وكان الوزر في رقبة وليّه والقيم عليه»

فمرض اجتماعنا ايها القوم مزمن ، ولا دواء له الا التربية الحق التي تصلح النفوس ، وترأب صدوع مجتمعنا الذي انهالت عليه معاول فساد الاخلاق من كل جانب

ولا اعني بالتربية الاَّ التربية الوطنية الصحيحة التي تحفظ لنا اخلاقنا وآدابنا وعاداتنا ومميزاتنا مع اقتباس ما نراه حسناً من مدنية القوم الذين سبقونا في ميدان الحياة اشواطاً هيهات ان نلحقهم فيها ، الاَّ اذا طرحنا الخمول ونبذنا العصبيات الجاهلية نبذ النواة ، ولم نتخذ لنا رائداً الا حب الوطن ، ولم نجعل لنا قائداً الا المصلحة العامة

. . . .

فهيا ايها القوم الى ثورة عامة ينكشف دجاها عن تغيير في الاخلاق ،

ويجلي نفعها عن تبديل في اوضاع حالتنا الاجتماعية ، فُنخلق بعد ذلك خلقاً آخر ، ونحيا حياة ثانية ، ونُنشأَ إنشاءً جديداً

قد نلنا الدستور وقبضنا علَى ازمــة الحرية ، فظننا أننا بلغنا من المدنية مكاناً قصياً ، ووصلنا الى حياة ما بعدها مطلب لطالب ، ولا مرغب لراغب ، ثم ما لبثنا ان استيقظنا من منامنا ، وقمنا من سباتنا ، فاذا نحن علَى فراشنا ، وايدينا علَى وجوهنا ، نمسح بها قذى عيوننا ، فعلمنا ان الدستور قد زارنا في المنام ، وان الحرية قد نلناها في الرقاد · وايقنا ان كل ما رأيناه كان حلماً من الاحلام ، لان كلام الليل يمحوه النهار

اجل كل ذلك كان : لاننا صرفنا معنى الحرية الى غير وجهه ، وفهمنا من الدستور ما لا يفهمه غيرنا منه · لهذا لم نرَ من آثاره ما كنا نأمل ولم نجنِ من ثماره يانعاً

ذلك لان جماهير الامة لم تستعد لهـذه النعمة الكبرى ، وليست اهلاً لتلك الهدية الفضلى ، لان اخلاقها مريضة وعقولها مسلولة ، فهي ترى الصالح طالحاً ، والخير شراً ، والايمان كفراً ، والنور ظلاماً

فلو ان الامة لم يكن فاشياً فيها « السل الاجتماعي » الذي أنهك قواها وبدّد اخلاقها ، فكم كنا جنينا في هــذه المدة من يانع الخيرات ، وعملنا من الاعمال الصالحات

. . . .

فالبدار البدار ايها القوم ، وتعاونوا علَى مداواة هذا السل بالتربية والتهذيب ونشر التعليم الصحيح وتأليف الجمعيات التهذيبية لارشاد العامــة

وتقويم ما أُعوج من اخلاقهم ، واصلاح ما فسد من تربيتهم ، فان بذلك نجاح الاوطان ، واعلاء راية الامة · ولا إِخالكم الا فاعلين ، والله الموفق والمعين

سوآل عن معنى الاخاء

كتب كاتب من جدة الى صاحب «الاتحاد العثماني» يسأله عن معنى قول مؤلف هذا الكتاب : « اخواننا المسيحيون » في كتاب « الاسلام روح المدنية [1] » ولما كان هذا السؤال مما يختص بنا دفعه الينا صاحب الاتحاد لنجيبه عليه وكنا اذ ذاك نحرر في جريدته · وقد ذكر السائل ان هذه الاخوة مخالفة لقوله تعالى : « انما المؤمنون اخوة » وقد قال : انه سائل مسترشد لا يبغي الا تطبيق كلامنا عَلى الآية الكريمة لما بينهما من الاختلاف في ظاهر الامر

ونقول في الجواب :

خلق الله الخلق من اصل واحد ، وفي وطن واحد ، وعَلى دين واحد ، ثم اقتضت سنة التكاثر ان يتفرقوا في هذه البسيطة ، كلٌّ الى جهة ، فحدث من ذلك تبلبل الالسنة ، واختلاف الجنس النسبي ، والاختلاف في المعتقدات

---

(١) ان هذا الكتاب قد تم طبعه في المطبعة الاهلية ببيروت قبل اعلان القانون الاساسي بشهر واحد وقد انتشر اذ ذاك وتلقاه المسلمون والمسيحيون بالارتياح لما اشتمل عليه من المباحث الجليلة المهمة مع الانصاف والاعتدال ، ولم يكد ينتشر حتى تلقفه جواسيس ذلك الدور البائد وحرّضوا الحكومة الاستبدادية على جمعه واحراقه وزجّ مؤلفه في اعماق السجون لانه مكتوب بحرّية تامة من حيث المباحث الدينية الاسلامية والسياسية · ولولا ان منّ الله علينا باعلان الدستور وخذلان الجواسيس لم نكن ندري باي ارض نحن الآن · · والكتاب يطلب من مؤلفه ومن المكتبة الاهلية في بيروت وثمنه ستة قروش اى زهراوي واحد واجرة البريد قرش واحد صحيح (صاغ)

والاديان · ثم تبع ذلك الاختلاف في الحاكمية تبعاً للرقي البشري ، فتأسست الدول وقامت الامارات وصار لكل قوم دولة وملك ، الى غير ذلك من وسائل التنافس الذى يقضي به حب استعمار الارض ، فنتج من كل هذه الاختلافات اختلاف الروابط التي تربط كل جنس بجنسه واهل كل لغة باهل لغتهم واهل كل دين بابناء دينهم · ورابطة الجنس غير رابطة اللغة ، ورابطة الدين غير رابطة الجنس واللغة ، وكل رابطة غير اختها · وهناك رابطة عامة تربط الناس كلهم برابطة واحدة وهي رابطة الجبلّة ، وهي التي عنيناها في كلامنا هناك · و بذلك يصح ان نسمي الناس كلهم اخواناً من حيث هذه الرابطة ولا يمنعنا من ذلك مانع من شرع او قانون ، بل الدين قد صرّح بذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الخلق كلهم عيال الله فأحبهم اليه أنفعهم لعياله » وقال : « الانسان اخو الانسان حبّ أم كره »

اما الاخوة التي اردناها في مقدمة كتابنا « الاسلام روح المدنية » فهي غير الاخوة التي وردت في الآية الشريفة ، فاننا اردنا اخوة الجبلّة من حيث النظر الى عموم غير المسلمين ، واخوة الجبلّة والوطنية معاً من حيث النظر الى غير المسلمين من الوطنيين ، واخوة الجبلّة والوطنية والعثمانية من حيث النظر الى غير المسلمين الذين هم اخواننا في الجبلّة والوطنية والعثمانية · وكل هذا يظهر من سياق كلامنا هناك · واما الاخوة الواردة في الآية الكريمة فالمراد بها اخوة الدين وهي لاتخص بوطنية ولا جنسية

الرابطة الدينية

او يوم الحج الاكبر[1]

في هذا اليوم المبارك يضمّ ذلك الجبل العظيم الالوف المؤلفة من المسلمين ، القاصدين اليه من مشارق الارض ومغاربها

في هذا اليوم السعيد يجتمع الجمع الحافل بالاقوام المختلفة اجناسهم ، المتباينة لغاتهم ، المتنائية بلادهم . اولئك القوم لم يكونوا لينضموا في محفل واحد يقصدون وجهة واحدة ، لولا الدين الذي يضمّ الشعوب ذوي الاختلاف العظيم في اللغة والجنسية والاخلاق والموطن

في هذا النهار يقف اولئك الأقوام بلباس خاص ، وزيّ يتساوى فيه المأمور والامير ، والغني والفقير ، وتلك هي المساواة كل المساواة

في ذلك الموقف تسمع الاصوات المختلفة بلغات شتى ، والكل يدعون ويلبّون ، يسألون الله التوفيق والنجاح في هذه الدنيا ويوم غد . تراهم في خضوع وخشوع ، وتضرّع وقنوع ، تائبين الى الله مما جنوه من الذنوب ، ثائبين الى عفوه وكرمه

هذا اليوم السعيد هو عيد عظيم عند المسلمين ، وكيف لا يجعلونه عيداً أكبر ، وهو اليوم الذي أتمّ الله عليهم نعمته ، وأكمل لهم دينهم فيه . فقد روى البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه « ان رجلاً من اليهود قال

(١) نشرناها يوم عرفة

يا امير المؤمنين : آية في كتابكم تقرأونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، قال اي آية هي ؟ قال : « اليوم اكملتُ لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » فقال عمر قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه: عَلَى النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم بعرفة يوم جمعة»

فهذا اليوم هو يوم عظيم لعقد تلك الرابطة الدينية التي هي اعظم الروابط الاجتماعية المفيدة بلا استثناء

. . . .

الروابط الاجتماعية كثيرة ، واهمها رابطتان رابطة الدين ورابطة الوطنية . وقد اختلف الناس في ايهما الاقوى ، غير ان الناقد البصير يحكم بعد ان يفكر تفكيراً ان الرابطة الدينية هي اقوى الروابط واشدها إحكاماً ، ثم تليها رابطة الوطنية وهي رابطة قوية ، وَصِلةَ عظيمة ، تربط ابناء الوطن عَلى اختلاف اديانهم ولغاتهم بصلة واحدة وهي صلة الوطن، فيسعون كلهم متفقين متحدين ، ويعملون عَلَى ما ينهض بالوطن والأُمة كلها الى اسمى درجات الرقي .

وليس المراد بالوطن البلد الذي يقطنه الانسان فقط بل المراد به ما هو اعم من ذلك = المراد بالوطن البلاد التي ترتبط بصلة واحدة ، وهي صِلة الحاكم بالمحكوم مهما تناءت واختلف قاطنوها لغةً وديناً وجنساً ، وهي صِلة عظيمة لو تفكر فيها الناس من قبل كما تفكروا فيها اليوم . فوطننا معشر العثمانيين هي ما تملكه دولتنا من البلاد المنسوبة اليها ، وان الرابطة التي تربطنا باهالي تلك الديار انما هي العثمانية التي هي الرابطة الوطنية

الرابطة الدينية وما ادراك ما هي ؟

هي صلة عظيمة تربط ابناء الدين الواحد مهما اختلفت اوطانهم وتباينت لغاتهم بصلة واحدة وفي الصلة الدينية · فان كانت رابطة الوطنية تصل ابناء البلاد المختلفة المحكومة بحكومة واحدة ، فان الرابطة الدينية تربط اهل كل دين مهما اختلفت حكوماتهم وتعددت جنسياتهم ولغاتهم بحبل ذلك الدين

وليست الرابطة الدينية بمانعة من الرابطة الوطنية كما يتوهم البعض ، اللهم ان كانت الرابطة دينية حقاً ليس فيها عقدة من عُقد التعصب الاعمى الذي فشا في شرقنا

أجل ان صلة الدين ليست عقبة في سبيل اجتماع ابناء الوطن، لان هذه غير تلك وليستا بمتناقضتين ؛ بل ان الدين من اقوى العوامل عَلَى احياء هذه العاطفة في نفوس الناس « حب الوطن من الايمان »

الرابطة الدينية هي اشبه شيء بروابط الجمعيات : خذاية جمعية شئت تجد أنها تضم اعضاء كثيرين ، وهي تعمل اعمالاً غير ان قانونها لا يمنعها ان تشترك مع الجمعية الوطنية بل ربما اوجب عليها ذلك

عرف اصحاب الاديان ذلك فوضعوا له نظامات وجعلوا له وسائل · والدين الاسلامي — كسائر الاديان — راعى هذه الرابطة وجعلها مقدسة

شرع الدين الاسلامي للمحافظة عَلَى هذه الجامعة الدينية صلاةَ الجمعة في كل أسبوع · وصلاة الجماعة في كل يوم خمس مرات ، وفي ذلك من الحكم الباهرة ما يعرفه من درس الاجتماع حق الدرس · غير ان المسلمين تساهلوا كثيراً بعدم المحافظه عَلَى اداء الصلوات في جماعة ، غير ناظرين الى الحكمة من مشروعيتها ، وان حديث « لا صلاة لجار المسجد الا في المسجد »

اعظم برهان عَلَى وجوب شدة المحافظة عَلَى هذه الرابطة

ولما كان الاجتماع في هذه الاوقات قاصراً عَلَى ابناء البلد الواحد واللغةِ الواحدة شرع الاسلام اجتماعاً عاماً آخر يضم المسلمين عَلَى اختلاف اجناسهم ولغاتهم و بلادهم ، وهو الاجتماع في يوم خاص : في اليوم التاسع من ذي الحجة في جبل عرفات والقصد من ذلك ان يجتمع العربي والتركي والكردي والجركسي والهندي والصيني وغيرهم في صعيد واحد ، يجددون عهود الاخاء ، و يتعرف كل واحد منهم باخيه ، و يبحثون فيما يعود عليهم جميعاً بالخير والنفع

عرف فائدة ذلك المشرّع الاعظم ، فاوجب عَلَى المسلمين — من استطاع الى ذلك سبيلاً — ان يقصد الى تلك البقعة من الارض و يحج اليها في يوم خاص

وذلك الاجتماع اشبه بما يسمونه اليوم بالمعرض فانه معرض عام يختلف اليه المسلمون لتلك الحكمة العظيمة

غير ان الامر و يا للاسف قد انعكس ، فقد غفل المسلمون عن هذا السر العظيم في ذلك الاجتماع المهم ، الذي فيه من الحكمة السياسية والادبية والمادية ما لا يعرفه الا من قتل السياسة علماً

اور با تحسدنا عَلَى هذا الاجتماع الذي لا يتيسر لهم ، وان نظرت الى الحقيقة رأيت ان المجالس النيابية « البرلمانات » نسخة عن هذا الاجتماع . وهو اعظم منها واجل فائدة لو تدبر المتدبرون . ان كان « البرلمان » او مجلس الامة اومجلس المبعوثان يضم مئات من النـاس ينو بون عن قومهم فان يوم الحج الاكبر في ذلك الموقف الهائل يضم عشرات الالوف . وقد كان بعض غاياتهم من هذا الاجتماع هو عين الغاية التي اجتمع لها المبعوثان اليوم . غير ان المسلمين

غفلوا عن هذا الامر او تغافلوا بحكم الاستبداد الماضي · فهل لعقلاء المسلمين اليوم ان يتفكروا في هذه الحكمة العظيمة ، و يرجعوا الى ما كان يستنتجه سلفهم الصالح من الفوائد التي لا تحصى ؟؟

ربّ قائل ان مجلس الامة اليوم قد كفانا هذه المؤونة

— فنقول له ان كفانا مؤونة السياسيات ، فلم يكفنا مؤونة غيرها من الحاجيات التي تختص بالمسلمين كترقية العلوم الدينية والعربية وسائر ما يتوقف عليه فهم الدين الحنيف · فهلاّ صرفنا جهدنا الى تأليف جمعية دينية تجتمع في أُم القرى ، تبحث في ادواء المسلمين الدينية والاجتماعية وتعمل عَلى إزالتها ووصف العلاجات اللازمة لها ، و بذلك نجاري القوم في حلبة التقدم والفلاح

نحن في حاجة الى ذلك وقد بسط الكلام عليه المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي في كتابه « أُم القرى » فان فاتتنا الفائدة السياسية فلا يليق بنا ان تفوتنا ايضاً الفائدة العلمية والدينية والاجتماعية

إن اجتمعت تلك الجمعية تعمل عملاً يسطره الدهر ويكون له الشأن الارفع عند الأُمم وبذلك نكون قد استرجعنا شيئاً من المجد السابق ، الذي صار اثراً بعد عين ، بل ربما يتبع الاثر العين

فلنجعل هذا اليوم العظيم واسطة لهذا الاجتماع العظيم الذي يثمر الثمرات العظيمة فيجتمع لنا بذلك عيدان : عيد الرقي العلمي والديني : وعيد عرفة · فان فزنا بذلك فنكون قد خطونا خطوة عظيمة في سبيل التقدم في الحياتين ·

وعَلَى اللّٰه قصد السبيل

الخرافات والبدع الدينية

جاءنا من بغداد سوآل مطبوع بامضاء « مسلم يطلب الحقيقة » وخلاصته : « أن الدين الاسلامي دين مدني يأمر بالترقي ويحث عَلَى كل فضيلة . غير انه قد التصقت به بدعٌ وخرافات ليست منه في شيءٍ ، بل هو يتبرأُ منها وينكرها اشد الانكار . لذلك نرى بعض الجهلاء يقدمون عَلَى فعل البدع واعتقاد الخرافات جهلاً منهم وظنًّا انها من الدين . فان ارادت احدى الجرائد او المجلات أن تتصدى لبيان هذه البدع واظهار تلك الخرافات ليعلم العوام انها ليست من الدين فيبتعدوا عنها فهل من امرٍ يمنع من ذلك ؟ وهل الاولى اظهارها عَلَى صفحـات الصحف او السكوت عنها حتى لا يطلع عليها غير المسلم ؟ فنرجو الجواب

الجواب

من تأمل في الحكمة من ارسـال الرسل وانزال الكتب وامرِ العلماء بهداية الناس وارشادهم ، يحكم بداهة ان لا مانع شرعياً ولا عقلياً يحظر نشر ما ليس من الدين وتعريف الناس به لينفروا عنه ، وتعريف العامة بامور يفعلونها — وهي ليست من الدين — واجب عَلَى كل عالم باية وسيلة من الوسائل ، سواءٌ بالوعظ في المساجد او في المجامع او في اي مكان ، ولما كان اكثر الناس اليوم منهم من لا يصلي اصلاً ومنهم من يصلي في بيته او حانوته والذين يصلون في المساجد قلائل ، وجب اتخاذ وسائل غير الوعظ اللساني وذلك بنشر الرسائل والكتب والجرائد والمجلات التي تبحث في هذه الموضوعات ، لانها تكون خير واسطة لبيان الحقائق ، وليس في نشرها حطٌّ من شأن الاسلام كما يتوهم بعض السذّج من المسلمين

[illegible]

وجه الاسلام . قـال شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية رضي الله عنه : « الاسلام محجوب بالمسلمين » اي ان اعمالهم المخالفة له هي حجاب دون ان يرى انواره ومزاياه الاجنبيُّ عنه

ان كثيراً من السُّياح الذين يقصدون الى بلادنا يكتبون عنها وعن المسلمين اشياء ينفر من سماعها الانسان ، و بعض هذه الاشياء حق لكن ليس للدين فيـه مدخل ، وانما سببه مخالفة المسلمين للدين ، ولكن تسرُّع السُّياح يدعوهم الى ان يعتقدوا ان هذه الاعمال هي من أُمور الدين . و بعضها غير حق ، بل هو ناشئ عن التعصب الاعمى البحت

لذلك ارى ان لا نقتصر عَلَى نشر البدع والخرافات في الجرائد العربية والتركية فقط ، بل يجب ان ننشيء جرائد بالالسنة الاوربية ندافع بها عن الدين ونبين حقيقته وانه ليس كما يتصوَّرون ، ونوضح باجلى بيان تلك الحشويات والخرافات والبدع التي دسها من لا خلاق لهم في الكتب ، حتى اتخذها العامة ديناً جديداً هو غير دين الاسلام . فان فعلنا ذلك نكون قد قمنا باعظم الواجبات التي يأمرنا بها الدين ويحثُّنا عليها العقل السليم

وقد قام ببعض هذا الواجب الاستاذ السيد محمد رشيد رضا فقد أنشأ مجلة المنار لهذه الغاية الحميدة ، وجاهد في هذه السبيل مجاهدة الابطال ، وقد مضى عَلَى مجلته الى الآن بضع عشرة سنة وهي تزداد نمواً وانتشاراً ، وقد أُنشيء عَلَى مثالها في الاستانة مجلة « صراط مستقيم » وهي تركية العبـارة اصلاحية المنهج حرة المنزع ، وعسى ان يكثر مثل هاتين المجلتين في سوريا

والعراق والحجاز ومصر والاناضول وايران وسائر البلاد الاسلامية ، لان بانتشارها انتشار حقائق الدين وتعليم الناس دين القرآن خالياً من كل ما ليس منه

هذا ما خطر لنا من الجواب ، فأن رأى فيه السائل كفاية فبها ونعمت والا فليكتب الينا بذلك

القول والفعل

تمر الشهور وتنقضي السنون ، ويجيء بانقضاءها اقوام ويذهب آخرون ، والكل يصيحون ، ويقولون فيبالغون ، وفي كل وادٍ من الموضوعات يهيمون ، وفي سوء حال قومهم يتفكرون ، وبأعمالهم يندّدون ، وعاقبةَ امرهم يندبون ، غير انهم علَى رفعهم مما هم فيه لا يقدمون ، وبيدهم لا يأخذون ، وبرقّيهم لا يحفلون ، وهم عليهم يتحرّقون ، وليلَ نهارَ في ذلك يتكلمون ، غير انهم يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يقولون ...

كل بناء محتاج في ثبوته الى اساسٍ محكم كما تفتقر النتائج الى المقدمات ، واساس الفعل القول ، وعلَى هـذا الاساس تقام هيا كل الافعال . فالقول مقدمة والفعل نتيجة ، ولا تكون النتيجه مركوناً اليها ومعتمداً عليها ، الاَّ بعد النظر في صحة المقدمات ، كما لا يعبأُ بالمقدمات اذا لم تكن لها نتيجة يرتاح اليها العقل ويسلم بها الخارج

واذا نظرنا الى اقوالنا وما تُحبّره اقلام كتّابنا نجد ان الاقوال اعراض

سيالة تنقضي بمجرد النطق بها ، ونرى ان الكتابات هي كما يقول المثل العامي « حبر علَى ورق » فلا نتيجة لقول او كتابة ولا تأثير لهما · وكل مقدمة لا نتيجة لها فهي غير معبوء بها ، فاقوالنـا وكتاباتنا خالية من النتيجة معدومة الفائدة ، لانها لا تتعدى حدّ الزخارف والتزويق ، ولا يعمد اصحابهـا إلى أستنتاج ثمراتها واستخراج نتائجها ، فلها اذن ذلك الحكم نفسه

قلنـا فأطنبنا ، وخطبنا فأجدنا ، وكتبنا حتى ملأْنا الطروس وسوّدنا صفحات الجرائد ، ولكن ايّ اثرٍ احدثت تلك الخطب ؟ واية فائدة افادت هاتيك المقالات ؟ هل صنعت معملاً لحاجياتنا ، او اقامت هياكل لما دثر من مجدنا ؟ فاقوالنا غير صادقة لكذبِ نتائجها ، ولا يصدقُ القول حتى يصدقَ العمل

دعونا من الاقوال ، وخذوا بايدينا الى صالح الاعمال ، وانهضوا بالامة من هذه الوهدة العظيمة التي هي ساقطة فيها ، وأنيفوا بهـا علَى يفاع العلوم النافعة والصناعات الجليلة

كنا اذا طلبنا من احد ان يبذل ماله في سبيل خدمة الوطن: من انشاء المعامل وترقية الصناعات يقول: انّى لنا ذلك ، والضغط مستولٍ علَى العقول والافكار ، والقيود محيطة بالايدي والارجل ، والجواسيس منتشرة في كل ناحية ؟ اما الآن فايُّ عذرٍ لنا بعد ان رفعت عنا تلك الاغلال ، وانقشعت هاتيك الظلمات ؟ اما والله ما لنا من عذر سوى البخل والاهمال والكسل · وقد ظهر ظهور الشمس أنَّ تلك الاقوال لم تكن تتجاوز الشفاه ، وليس مصدرها سوى اللسان ، وما للقلب اقلُّ تفكر فيها قبل ان كنا نلفظها

ايّ حرج عَلَى متمولينا لو سعوا الى تأليف شركات صناعية ، ودفعوا جزأً من اموالهم مساهمة ، فكان من ذلك رأس مال عظيم ، يصرفونه في هذه السبيل التي تعود بالمنفعة العامة عليهم وعَلَى البلاد واهليها

ان لدينا اموالاً كثيرة ولكن يعوزنا رجال مفكرون ، وقوم يؤثرون المنفعة العامة عَلَى المنفعة الخاصة ، و يبذلون كل ما في وسعهم وطاقتهم لإنجاح البلاد وترقيتها ، ولا نجاح لها الا بالعلم الصحيح والتربية الحق والصناعات النافعة والزراعة التي بها حياة الشعوب والبلاد . فمتى وُجد لدينا هؤلاء الرجال واهتموا بما قدمناه فحدّث ولا حرج عما نناله من التقدم والنجاح

لدينا رجال فيهم الصفات المطلوبة ، بل فيهم فوق ما نتصوره من المقدرة عَلَى الاعمال والتفكير الذي يأتي بالنتائج المطلوبة ، غير انهم لا يريدون ان يجهدوا نفوسهم و يتعبوا افكارهم في ذلك ، فهم تاركون الامور لطبيعة الحال . وان وجد فيهم من يريد ان يخدم ويحب ان يبذل الجهد في رفع امته وتشييد المدارس والمعامل وغير ذلك لتستغني عن الاغيار ، فهو ضيّق ذات اليد فارغ الجيب ، رأس ماله قوله وفكره ، واية فائدة من القول والتفكير ، اذا لم تعضدهما الدنانير ؟

رجال الاقوال عندنا كثيرون ، غير انهم مفلسون ، ومن المال خاوون ، وفي تحصيل ما يسدّ عوزهم يجتهدون ، وفي غير ذلك لا يتفكرون ، فهل هم معذورون ؟ بلى وربك انهم لمعذورون ، وان عملوا غير ذلك فهم مخطئون ، ومن يقولون غير هذا فهم لا يعقلون ، او هم عَلَى الناس يموّهون ، فاتقوا الله ايها المستغنون ، واعملوا عَلَى تشييد المعامل وانشاء المدارس فانكم اذن لمفلحون ،

فالله يطالبكم والناس ، وان احتجتم الى آراء المفلسين واقوالهم فادفعوا اليهم ما يستعينون به عَلَى سد ما يتقاضاهم من أُمور المعيشة ، وهم يمدونكم بالافكار ويعينونكم بالآراء ، وبذلك يتم التعاون ويحصل الاتحاد « وتعاونوا عَلَى البر والتقوى »

واما ان بقينا كما نحن الآن : اقوال بلا اعمال فعلينا السلام ٠ فاتقوا الله ايها القادرون عَلَى إنجاح الوطن ، المتشدقون في كل مجلس بما يلزمنا من الاصلاحات التي لا يتم عمل بدونها ٠ ابذلوا جهدكم ، وافتحوا خزائنكم ، وازرعوا ليراتكم في هذه الارض ، فتعود عليكم وعَلَى ابناء وطنكم المحبوب بالربح الجزيل والخير العميم

اراكم تنظرون اليَّ ايها الخطباء والشعراء والكتاب شزراً ، وترمقونني بعين الانتقاد ، ثم اراكم ثانية اجمعتم رأيكم قائلين لي: أَلستَ منا ؟ اما خطبت كما خطبنا ؟ اما كتبتَ كما كتبنا ؟ اما نظمت كما نظمنا ؟

— بلى ايها الاخوان ٠ وما ادراكم اني استثنيت نفسي من مجموعكم ٠ و برأتها مما نسبته اليكم ؟ « وما ابريء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء الا من رحم ربي »

ورب قائل : ان المتكلم لا يدخل في عموم كلامه كما قرَّرَ ذلك علماء الاصول ، فأقول : انه لا يدخل وجوباً بل يجوز دخوله وعدم دخوله ٠ وانا داخل في باب الجواز ٠ وقد جزت هذا المجاز

فسددوا رحمكم الله الاقلام ، وأشرعوا في وجوه الطروس اليراع ، وقاوموا في سبيل الاصلاح الحقيقي كل معاند وممانع ، وحرِّضوا المتموِّلين عَلَى

بذل الاموال في انشاء المعامل ، وإيجاد الوسائل التي تُغني الوطن عن الاغيار ، ونرفع من قلوبنا كل خلق يدعونا الى ان نكتب ما لا نعتقد ، ويحملنا عَلَى عدم الاعتراف بالخطإ ان صدر من احدنا . فما القصد من الكلام والخطابة والكتابة الا إحقاق الحق ليعرف ، وابطال الباطل لينبذ . ولنجعل اقوالنا عنوانًا لافعالنا . وافعالنا مصداقًا لاقوالنا . اذ لا يصدق القول حتى يصدق العمل . والسلام عَلَى من يقول الحق ويعمل به ، ويسعى بكل ما في وسعه لخدمة امته ووطنه . ولا سلام عَلَى من يقدّم الغاية الشخصية التي تضر بالمجتمع عَلَى المنفعة العامة

والخلاصة اننا نحتاج الى قول فعمل ، فالعملَ العملَ العمل

العرب والترك

ليس منا من دعا الى عصبية

(حديث شريف)

الاتحاد أساس العمران ، والاتفاق حيـاة الشعوب ، والتفرق مدمرة الأُمم ، والتحزب مدعاة الخراب ، وكل أُمةٍ انقسمت عَلَى نفسها كان مصيرها الدمار ، وكل شعب جعل الوئام أسًا لاعماله ، وقانونًا يعمل بمقتضاه ، كانت أُولاه وأُخراه كحلقة مفرغة لا يدرى اولها من آخرها ، بمعنى انه يبقى ما بقي الدهر سالمًا من الانحلال والمحو عن البسيطة ، ويكون آخر وجوده واوله سواء

في القوة والمنعة وعدم وصول يد التخريب والاذى اليه

هذه قاعدة عمرانية اتفق عَلَى مضمونها العمرانيون وفلاسفة الاجتماع ، وشهدت لها الازمان الغابرة والحاضرة ، وعضدها تاريخ الأُمم منذ عهد الخليقة الى زماننا هذا ، ولا يخالفها الا من باع عقله ووجدانه في سبيل الهذيان، ولا ينكرها الا جاهل غمر لا يعرف للسياسة معنى ، ولا يدري للاجتماع والعمران كُنها ، او متعصب تعصباً اعمى لا يعرف طريق السداد فيسلكه ، ولا القانون السياسي الحق فيتخذه دستوراً لاعماله ، او رجل يعرف الطريق القويم لكنه يتعامى عنها ويذر الرماد في العيون لمآربه الذاتية وغاياته الشخصية، وهو أشد الجميع ملامة ، وأولاهم بتوجيه سهام النقد والعذل ، لانه بعمله هذا يهوّر السذّج لسلوك امرٍ هم في حاجة شديدة الى الابتعاد عنه ونفورهم منه نفور الصحيح من الاجرب

هذه مقدمة نقدمها للكلام عَلَى بعض احوالنا الحاضرة لتكون ذكرى لقوم غافلين لايدرون الناقة من الجمل ، ولا يفقهون لسرّ الاجتماع معنى ، ولا يعلمون لحقيقة الاتفاق مغزى ، فهم مجروفون بسيل أهل البدع والاهواء من اصحاب السياسة الجديدة الخرقاء ، يتلاعب بهم تيار اولئك الزعانف من ارباب الدعوة الحديثة ، وذوي السياسة الضارة الخبيثة ، فهم في تيارات المقاصد السافلة غارقون ، و بين انياب هؤلاء الضواري يُمزّقون ، فان لم يرجعوا عن اتباعهم وسلوك طريقهم فسوف يندمون ، ولات ساعة مندم لو كانوا يفقهون

نقدم هذه المقدمة لتكون لمن تقدم ذكرى وموعظة ، وتكون للقائمين بهذه البدعة عبرة بها يعتبرون ، إن كان لهم عقول راجحة وافكار سامية

كما يدعون

نعني بهؤلاء القوم نفراً قاموا يدسون السم في الدسم ، ويهيجون ما سكن من الفتن ، ويحركون في الامة عاطفة احياء الجنسيات ، وإيقاد نار العصبيات ، بعد ان اطفأها العقلاء ، وعمل على اخماد جذوتها ساسة العلماء ، واولئك هم شرّ الناس ، ولبئسما ما يصنعون

قد طرقوا ابواباً نحن مفتقرون إلى اقفالها ، وفتقوا رتقاً كنا احوج الى رتقها ، ودخلوا البيوت من غير ابوابها ، ولم يأتوها من بابها الموصل اليها ، بل تسلقوا الجدران ، ودمروا على الناس بغير استئذان ، فكانت عاقبتهم الندامة والخسران ، ولا يشك في سوء هذا العمل اثنان ، ولا ينتطح فيه عنزان

أولئك القوم لا يلذّ لهم الا التعصب الذي تضعف به الامة فلم يجدوا الا طرق ابواب الجنسيات والتفريق بين العثمانيين ، فعمدوا الى هذا الامر السافل الذي لو تمّ لهم « ولن يتم إن شاء الله » لرجعت الدولة الى تقهقر أشد مما كانت فيه في الزمن البائد ، إذ متى انقسمت الأمة ووقع التنافر والتباغض بين شعوبها تنحلّ رابطتها فيكون في ذلك خرابها ودمارها ، وتلك هي الطامة الكبرى على الجميع ، سواء في ذلك العاصي والمطيع ، ويكون السبب في ذلك اولئك الزعانف

نحن في حاجة ايها القوم الى تأليف جمعية واحدة وعصبية واحدة . وبذلك نكون قد خدمنا الوطن والدولة وخدمنا انفسنا ايضاً بالاتفاق والاتحاد ونبذ الشقاق والتفريق ، فنبقى إذ ذاك محافظين على كياننا ومركزنا امام الامم كافة ، وان فعلنا غير ذلك أنشبت فينا الدول مخالبها ، ومزقت احشاء

ممالكنا ، وقضت كل بلادنا ، واودت بما بقي فينا من الذماء وما يختاج من روح الحياة التي نأمل ان تعظم وتنمو بفضل الاتحاد العثماني ، و بركة الاتفاق مع الشعوب التي يتألف منها جسم المملكة العثمانية

الاوان تلك العصبية الواحدة التي ندعو اليها ان كانت عصبية حقاً كما يفهمها عقلاء الاقوام العثمانية لا تمنع بل توجب ان يبقى العربي عربياً والتركي تركياً والالباني البانياً والارمني ارمنياً ، ويحافظ كل انسان على لغته وعاداته ومميزاته دون ان يتعرض له احد بسوء ، لان احتفاظ كل شعب بمقوماته امر ضروري اما السعي الحثيث لتغيير عادات قوم والقضاء على لغته ومميزاته فهو ضرب من المحال ، ولا يفهمه عاقل من عقلاء الامة العثمانية

. . . .

كثرت في هذه الايام الاقاويل في المسألة العربية كثرة حملت بعض الجامدين على الجهر بسوء نية افاضل القوم ووصفهم باوصاف لو تعقل الواصف لعلم انهم براء منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب

إن هؤلاء الافاضل من العرب هم ينظرون الى المصلحة نظرة من يهمه رفع شأن الدولة واعلاء كلمتها . و يستميتون في سبيل الدفاع عنها والذود عن حوضها لانها حماهم الاوحد وملجأهم المفرد . وهم يعتقدون من صميم الفؤاد انها أمهم الحنون وابوهم الشفوق . فكل ما يصفهم به الجامدون او المراؤون خطأ صريح ومراء ظاهر

« الامة العثمانية جسم واحد » تلك حقيقة لا يمتري فيها اثنان ، ولا يجادل فيها الا مكابر ، وذلك لا يلزم منه ان يستأثر بعض اعضاء ذلك الجسم

بالمنافع، و يستبد بالمصالح والمرافق ، وان ينظر الى سائر الاعضاء نظر المسيطر، و يعامله معاملة السيد لعبده

ان لكل عضو حقاً لا ينكره عليه غيره ، فلو سكت ذلك العضو عن حقه الذي به قوامه اصبح اشلّ وفقدت منفعته ، واذا صمت عن الجهر بحقه عاد الضرر عليه وعلى بقية الاعضاء ، اذ بذلك تفقد قوة التعاون و يضيع التعادل ، والجسد كله خادم لحقيقة واحده وهي النفس ، فاذا اشتكى منه عضو واحد تداعى له سائر الجسد

والامة العثمانية جسم مركب من عناصر شتى هي اعضاؤه العاملة ، فلو هضم حقّ عضو منه اصبح مريضاً ومرض لذلك سائر الاعضاء ، فإن لم تشعر اليوم فستشعر بعد حين ، ولا يدفع ذلك الخطر الا اتحاد المجموع على مداواة العضو المريض لتعود اليه قوته التي يخدم بها نفسه وغيره

ولا مراء بان العنصر العربي اليوم هو عضو مهم في جسم الامة العثمانية، غير انه مريض فعلى العنصر الذي بيده زمام امر الجسم ان يسعى لمداواته واعطاءه العلاج المقوي لترجع اليه قوته المتداعية ، ومتى فعل ذلك استفاد من هذه القوة ، لان هذين العنصرين توأمان في المنفعة والغاية ، ولا يمكن أن ينهض احدهما بدون الآخر ، فالمنفعة مشتركة وفائدة المعونة ثابتة ،فعلى الاول أن يعين ، وعلى الثاني ان يعمل

يتوهم كثير من الجامدين ان الصياح من افاضل العرب هو لاجل الوظائف وهو وهمٌ في غير محله ، وانما صياحهم لتعزيز لغة القرآن والاعتناء بها اعتناء يجعلها في مركزها السامي الذي اعدّه ألله لها ، وهم يبذلون الجهد لحمل

الدولة عَلَى صيانتها و إحلالها المحل الارفع ، لتكون هي واللغة العثمانية سواء ، لان العثمانية ان تكن لغة الدولة فالعربية لغة الدين ، ولو تنبه مجلس الامة لسعى لجعلها لسان المشيخة الاسلامية والقضاة الشرعيين باعتبار انهم ممثلو الشريعة وقائمون باحكام القرآن

انما يريد هؤلاء الافاضل ان يكون الحكام الذين يرسلون الى البلاد العربية عارفين لسان اهاليها وعاداتهم واخلاقهم سواء كانوا عرباً او تركاً او غيرهما ليتمكنوا من الجري في ميدان العدالة وانصاف المظلوم من الظالم

انما يريدون ان تكثر الدولة من المدارس في بلادهم وتعتني بها اعتناءها بالمدارس في بلاد اخوانهم حتى يعم العلم و يكثر المتعلمون

انما يريدون ان يكون نصيب قومهم من البعاث الى اوربا نصيب اخوانهم

انما يريدون ان تتجلى المساواة باكمل معانيها واتم نتائجها وابهر مظاهرها

فهل من يصيح لاجل هذا يُعَدُّ مفرّقاً او متهوراً او متهوساً او غرضاً !!!

نعم انا لا اقول ان الحق في جانب العرب من كل الوجوه كما لا اقول ان الخطأ كله عَلَى القابضين عَلَى ازمة الامور ، بل اقول ان العرب مخطئون في عدم احصاء نفوسهم حتى يكثر مبعوثهم ، ولو سعوا لذلك سعيه لنالوا بواسطة نوابهم ما يريدون، ولم يكن هناك احد يناوئهم او يعاكسهم

انا لا الوم حزب الاكثرية ان سعى لمنفعة قومه وجعل رجال الحكومة ممن ينتمي اليه ، فان هذا هو الشأن في كل المجالس النيابية في العالم ، وهو حق له صريح لا ينازعه فيه منازع ، ولا يقاومه فيه مقاوم ، بل الوم العرب انفسهم القاعدين عن احصاء نفوسهم وتكثير سواد مندوبيهم

وليعلم انه لا يحق لنا الكلام ، ولا ننال ما نرغب فيه ونسعى اليه ، اذا لم تكن الاكثرية في جانبنا ، ولا نتمكن من ذلك ما لم نُحصِ نفوسنا ، فعلينا باحصاء النفوس وبذل الجهد في هذه السبيل ، وعَلَى الكُتاب وارباب الصحف ان يتابعوا البحث وحث الناس عَلَى اظهار المكتوم من الاشخاص ،

لا ابالغ اذا قلت ان المكتوم من النفوس يعادل المظهر منها او يزيد ، خصوصاً في القرى والمزارع ، فان القرية الكبيرة التي تحتاج اراضيها الى خمسمائة رجل عَلَى الاقل لتقوم بفلاحتها واحتياجها ليس في دفتر النفوس من اهلها سوى خمسين او ستين نفساً في الاكثر ، هذا عدا المدن التي فيها من النفوس المكتومة شيء كثير

فعلينا ان نحمل الحكومة عَلَى احصاء النفوس وعليها أن تسعى لذلك وان تضرب جزاء كبيراً عَلَى المختارين والاهالي اذا لم يسمَ الاولون للبحث عن المكتوم ولم يظهر الآخرون من لم يقيّد من اولادهم او اخوانهم في دفاتر الاحصاء

ولا بد قبل هذا من ارسال الناصحين المرشدين الذين يبينون للناس فوائد احصاء النفوس ووخامة عاقبة اهمال هذا الامر المهم ، وان يقلعوا من نفوسهم ذلك الاعتقاد السيء وهو خوفهم من الجندية ، وان يفهموهم انها سلك شريف لانها ردء الامة وسياج الدولة ، وانها اصبحت اليوم في حالة طيبة ، وصار رجالها في عيشة راضية ، الى غير ذلك من الحقائق الراهنة. وان خافوا من الضرائب والمظالم بسبب احصاء نفوسهم فليفهمهم الناصحون ان الضرائب القانونية هي عادلة ومفيدة لهم وللدولة ، وان المظالم قد ابادها الدستور ، وقضى عليها العدل ، فلا خوف عليهم من هذه الجهة

ومتى أُشربوا هذه المبـادئ سهل احصاء نفوسهم ، ومتى أُحصيت النفوس وكثر النواب منا فهناك يكون لنا الصوت العالي والكلمة النافذة ، وهناك تضطر القوة الاجرائية الى اكثار دور العلم بيننا وارسال البعثات منا

فالى احصاء النفوس ايتها الامة ، والى الخوض في هذا العبـاب ايتهـا الجرائد ، والى ميدان البحث والحث ايها الكُتاب ، فان في ذلك محجة الصواب ، وفصل الخطاب

القرض العثماني

اخذت القلم لأكتب واليد مرتجفة ، والقلب خافق ، والعين دامعـة ، والهواجس قد احاطت بي من كل جانب ، والاباء قد رفعني الى ما فوق السموات العُلى ، وعزة النفس قد حدثتني ان لا ارضى بمقعد النجوم

نارٌ في الفوآد مشبوبة ، وغاز التأثرات يمدها ، وزيت الكدر يساعدها ، والنفس بين هذا وذلك تتقلب عَلَى الجمر ، وتقلى عَلَى مقالي الصبر ، وكلما اردت اطفاءها زدتها سعيراً ، وكلما حاولت اخباءها كان شرارها مستطيرا · فكأني أصب عليها الزيت ، واحاول اطفاءها بالغـاز · فيا للمصيبة ! ويا للداهية ! ويا للاباء ! ويا للشرف ! ويا للغيرة ! ويا لأهل المروَّة ! ويا لدعاة النخوة !

كيف لا يحترق الفوآد ، وكيف لا يدمي القلب ، وكيف لا تدمع العين ؟ وأُمنا تزدري بها الاغيار ، ويحتقرها من لا يودُّ لها نجاحاً · اجل ان

أُمتكم ايها العثمانيون بين صادٍ وراد ، وبين دافع ومحاول . تريد ان ترد الموارد لتبل صداها وتروي غليلها ، فيمنعها اصحاب الموارد عن الاستسقاء ، ويردها ارباب المياه عن الارتواء ، مع ان لديكم الماء ، وفي صناديقكم المورد ، فمن العار ان تدعوها تلجأُ لشربة ماء الى الاغيار . فاين الحمية ؟ واين المروءة ؟ واين ادعاء العثمانية ؟ شرفٌ باطل ، وحمية موهومة ، ومروءة دنيئة ، ان لم تردُّوها الى مواردكم ، وتنهلُوها وتعلوها من مياه كرمكم وجودكم ، فان للأُمّ حقاً في اموالكم يجب ان تردوه اليها ، والاَّ كنتم ابناء عاقّين

أليس من العار وكل واحد منا يمكنه ان يعينها بقدر ما يستطيع ، ان نتركها تتزلف الى الاجانب ، وتريق ماء المحيا لأَجل قرض جزئي يسهل علينا ان نجمع اضعافه من ليرة واحدة على نسبة مجموع الامة العثمانية

يجب ان تُجمع الاموال و ينشأ بها مصرف أهلي يكون له فروع كثيرة في انحاء المملكة ، فيعين الدولة ويدفع عنها عار الحاجة ومعرّة الالتجاء الى الاغيار

ان لكم ايها العثمانيون بالامة الفارسية لقدوةً حسنة حينما اخذ ابناءها رجالاً ونساءً الحميةُ ، ولعبت في رؤُوسهم خمرة الشرف ، فامتنعوا الاَّ عن الضروريات ايام احد الاعياد ، وامدوا بما كانوا يصرفونه من الاموال دولتهم ، وابوا عليها ان تمد يدها إلى غيرهم

انتم ايها العثمانيون الذين قد استقبلتم الدستور والحرية بالصدر الرحب والقلب الفرح جديرٌ بكم ان تعززوا الدستور وترفعوا من شأْن الحرية . فما الحرية الا ان يحيى الانسان حياة طيبة آمناً في سِربه ، سعيداً في أُمته . ولا يكون ذلك الا إذا كانت أُمته مستقلة كل الاستقلال ، غير خاضعة للاغيار

ولا مستكينة في طلب شيء من الاشياء · تلك هي الحرية الصحيحة ، وذلك هو الاستقلال الحقيقي ، وما سواهما فهو الاستعباد والاسترقاق

الا وان الامة العثمانية ايها العثمانيون هي تحت نير الديون الماضية ، وهي تريد اليوم ان تضع في رقبتها قيوداً جديدة واغلالاً شديدة ، فهلاً ابيتم عليها ذلك ، وفككتم باموالكم اغلالها ، وحللتم قيودها ، حتى لا تكونوا عبيداً ارقاء ، تتلاعب بكم الاهواء ، وتنتابكم الادواء ، فتحل بكم البرحاء ، في الصباح والمساء

اجل انكم عَلَى ذلك لقادرون ، وبتحقيقه جديرون ، فهل انتم متنبهون؟؟؟

ايها العثمانيون انكم تصرفون قليلاً وكثيراً ، فما يضركم لو قمتم اليوم واقتصد احدكم من مصروفه ما يحيي دولته ويرفع مكانتها عند الامم · وعند ذلك يقال : ان الامة العثمانية ذات شعور وحياة ، لا ترضى بالضيم ، ولا تستكين للذل ، ولا ترتضي لها مقعداً الا الجوزاء ، وتحتقر ما دون السماء

كفانا يا قوم ثلماً لشرفنا ، وخرقاً لحرمتنا ، فما عهدتكم بالباخلين ، فحقيق بكم ان تُعيدوا بكرمكم مجد آبائكم السالفين

فالى التبرع يا معشر العثمانيين ، واني ادعو قومي العرب ان يكونوا اول المتبرعين ، عملاً باقوال اجدادهم الاولين

والسلام عَلَى من سمع كلمتي فوعاها ، فعمل بمقتضاها ، فان الى المجد والشرف والعظمة منتهاها

الامة العثمانية جسم واحد

حياة الامم حياة افرادها ، ولا قيام لأمةٍ الا متى كانت افرادها متضامنة متكافلة ، بحيث يشعر كل فرد منها بما يشعر به الآخر ، يألم لألمه ، ويُسر لسروره . هذه هي الحياة الاجتماعية الراقية ، وتلك هي الامـة التي يرجى لها ان تطاول السماكين عزاً وشرفاً

وليست تلك الحياة متاعاً يُشرى ولا موهبة توهب ، وانما هي تربية صحيحة وإشراب تُشربه النفوس منذ الطفولية ، فتتغذى به افراد الأمة ، فينقي دمها الجاري في عروقها ، وينبت منه لحمها وتنمو عظامها ، وتعظم به نفوسها ، وتسمو عقولها ، فتنشأ وحب الوطن ملء قلوبها ، والميل الى الألفة رائد اخلاقها ، والشعور بالواجب نحو الامة والدولة والوطن شعارها ، والرغبة في الموت في سبيل المصلحة العامة طلبتها ومرمى افكارها

عَلَى هـذا المبدإ القويم تربي الأمم الحية اطفالها ، وعَلَى تلك الاخلاق الفاضلة تكون تنشئة نابتتها ، وفي تلك السبيل تسير شبانها وكهولها وشيوخها ، ولذلك تراها قابضة عَلَى زمام الحياة الطيبة ، سائرة في منهج السعادة الدنيوية ، مرهوبة الجانب ، منيعة الحمى

اجل ان كل فرد من افرادها هو الامة ، يهمه ما يهمها ، ويضيمها ما يضيمه — ترى الفلاح والتاجر والصانع والعالم والكاتب والشاعر والامير والوزير والتلميذ والمعلم ، كل واحد من هؤلاء الافراد الذين تتركب منهم

الامة يسعون نحو غاية واحدة وهي حياة الامة حياة طيبة ٠ وفوق كل هذا ترى في تلك الامة جمعيات واحزاباً ، ولكنك لا ترى بين هذه الاحزاب من يسعى لهدم هيكل الامة ومحوها من لوح الوجود ، لانهم وان اختلفوا في المقدمات ، فهم متفقون في النتائج والغايات ، فلا يتخذون الاختلاف في المبدإ وسيلة لاضعاف الامة ، ولا يجعلون الاعراض حجاباً دون الجواهر ، وكل ذلك من آثار التربية الوطنية الصحيحة

هذه ايتها الامة العثمانية هي الامم الراقية ، وتلك هي تربيتها ، وما وصفته من الاخلاق هو غرس قلوبها ، وما تراه من تقدمها هو جنى تلك الاغراس واعمال اولئك الرجال الذين تربوا علَى التضامن ، وخدمة الامة هي التي بلغت بهم الدرجات العلى ، واوصلتهم الى رفيع الذرى ، حتى صارت تلك الامم حديث الركبان ، وامست مرمى الابصار في كل مكان

كنتِ ايتها الامة المحبوبة فيما مضى متفرقة الاهواء ، مختلفة المنازع ، متشعبة المقاصد ٠ وكان لكِ في ذلك العهد عذر فيما كنتِ ترمين اليه ، لأن رجال الدور البائد كانوا عقبة كؤوداً تحول دون تضامّ شعوبكِ ، وحاجزاً حصيناً دون تضامن افرادك ، اما الان وقد أُزيلت تلك العقبات ، وهدمت هاتيك الحواجز ، فايّ عذر تعتذرين ، وباية حجة تتمسكين ؟ ماذا يمنعكِ عن ضم اجناسك ولمّ شعثهم ؟ ٠ ماذا يحول بينكِ وبين التأليف بين عناصرهم والجمع بين متفرّقهم ؟

قد نلتِ الدستور الذي ساوى بين العناصر ، وآخى بين الشعوب ، فهلاً

عقدت عَلَى النهوض والأُلفة الخناصر ، وربطت عَلَى جمع الكلمة الاواصر ، واستأصلت من نفوس بنيكِ ما غرسه الدور الفائت ، ونبذت كل همازٍ مشّاء بنميم ، منّاعٍ للخير معتدٍ اثيم

اجل ماذا يمنعك من ذلك؟ أرجال ربوا في حجور الاستبداد ، وارتضعوا لبن الفساد ؟ فلا يهمهم الا التفريق وبذر بذور الشقاق والقاء العداوة والبغضاء ودس سموم النفاق ، ام رجال كانوا يدعون الحرية وجاهروا بعداوة الدولة في ذلك الوقت لأغراضٍ طلبوها فلم ينالوها؟ ثم رجعوا الى البلاد بعد اعلان الدستور فلم يَرُقْهم ما فيه أُمتهم من السعادة والنعيم ، لانهم لم ينالوا ما كانوا يأملون ، فطفقوا يسعون لإِيقاع ذات البين وتشتيت شمل الامة ، تارة بالجنسيات وطوراً بالديانات ، وما لهم فائدة من ذلك الا ان يروا الامة متخاذلة متفرقة ، لانهم يلذُّ لهم ان يروا ما تعوَّدوه من تشتيت شملها وتفريق اجناسها وعناصرها

لا ينبغي ان تحفلي بهؤلاء الاقوام ولا ان تقيمي لهم وزناً ، فانما هم ذئاب ضارية تنهش في جسمكِ ايتها الامة ، وأفاعٍ خبيثة تسمّم جسدك السليم ، لتنال منكِ ما ترجوه من الاماني السافلة والاغراض الدنيئة

عجباً لهؤلاء الاقوام الساقطي الوجدان !! أساءهم ان يروا الامة العثمانية جسماً واحداً وقلباً واحداً بعد الدستور مع اختلاف الجنس والعنصر ؟ ام عزّ عليهم ان تسلم المملكة من داء العصبيات الجاهلية ، وتنأى عن مهاوي التحزبات الدينية ؟ ، ام يريدون ان لا ترقى الاقوام وتتنبّه الشعوب لتجاري الامم الحية ، فتكون اذ ذاك عوناً للدولة عند الشدائد ، ومجنّاً يقيها صدمات النوازل ، فان كان واحد من هذه الامور هو السبب لتلك الاعمال المنكرة فقد ضلوا سواء

السبيل، لان بقاء هذه الشعوب خاملة جاهلة مدعاة للثورات، ومجلبة للنقمات. ولا تتهذب الامم وتخلد الى المدنية وتميل الى السلام الاّ بانارة الافكار بالعلم الصحيح والتربية العالية ، لانها عند ذلك تفهم واجبها الذي يدعوها الى ان تكون مع سائر العناصر يداً واحدة عَلَى ترقية البلاد ، فانها متى عرفت ذلك الواجب بسبب العلم تحقق يقيناً انه لا قيام لشعب من الشعوب العثمانية الاّ متضامناً مع سائر الشعوب ، متحداً واياهم عَلَى المصلحة الوطنيـة . لذلك كان من الواجب عَلَى عقلاء كل عنصر من عناصر الدولة ان ينبهوا قومهم ويحدوهم للوصول الى هذه الغاية النبيلة ، وان يثيروا كامن هممهم ، و يقضوا عَلَى هامة خمولهم وخمودهم ، وان يفهّموهم ان في بقائهم عَلَى حالتهم إضراراً بهم و بغيرهم من عناصر الدولة كافة ، لانهم يكونون عثرة في سبيل الشعوب . وهذا مما لا يمتري فيه اثنان ، اللهم الاّ من كان عَلى شاكلة افراد في دار الملك ممن اعماهم التعصب، وران على قلوبهم حب القومية المفرط ،فانهم يصفون كل من أهاب بقومه ليقوموا ، ودعاهم الى النهضة ليحيوا، بانه مفرّق رجعي، لا يدعو الاّ الى الانفصال، ولا يريد بذلك غير غاية سيئة وعاقبة غير حميدة . ولو نقبت عن مقاصدهم وقرأت ما يخطه يمينهم لرأيت العجب العجاب مما يرمون به غيرهم ظلماً وبهتاناً

لم يكف هؤلاء انهم يتجسسون عَلَى افاضل العرب و يصفونهم بما يوحيه اليهم ادبهم، بل اخذوا يبذرون بذور التنافر بين الامة العربية والامة التركية اللتين لا يستطيع ان يفرق بينهما الا الله ، لان الله هو الذي عقد بينهما تلك العقدة المحكمة ، وجعل بينهما هاتيك الرابطة — الا وهي رابطة الدين — وما ربطه الله لا يستطيع ان يحله البشر ، فليهنأ بال المفرقين

ان دون ما يريد هؤلاء خرط القتاد ، فان الألفة مستحكمة بين الطوائف العثمانية خصوصاً بين العرب والترك

ايتها الامة العربية تابري عَلَى ما أنت عليه من خدمة الدولة الخدمة المعروفة بالاخلاص والصدق ، ولا تعبإي بامثال اولئك المفرقين ، فانك كنت ولا تزالين اخلص الشعوب العثمانية للدولة واشدهم محبة لها وغيرة عَلَى مصالحها ، ولا أبالغ إذا قلت انك اخلص من الترك انفسهم

اي اخواننا الاتراك ، ولا أعني بكم الا المخلصين الاحرار ، لا تستاؤوا اذا سمعتمونا ننبه أمتنا ، ونسعى وراء تعزيز لغتنا ، فانه لا حياة لنا ولكم إلاَّ بتعزيز لغة القرآن ، لانه الجامع بيننا و بينكم · وقد كذب واللّٰه من يقول : إننا غير مخلصين للدولة التي نفديها بدمائنا واموالنا

وأنتم ايها الاعداء للدولة ، سواء كنتم من ابنائها او البعداء عنها ، لا تظنوا صياحنا وشكاوينا لامرٍ ناتج عن بغضاء للدولة او حباً فيما أكره ذكره ، وانما هي الدولة أمنا المحبوبة نبث اليها ظلامتنا من بعض ابنائها اخوتنا كما يشكو الاخ اخاه إن اساء اليه لامه لتنصفه · ولا تظنوا فينا غير ذلك فتظلمونا وتظلموا انفسكم إن كنتم عثمانيين

. . . .

الامة العثمانية جسم واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. وان من يسعى بتفريق العناصر والاديان، فانما يسعى لخراب المملكة واضمحلال الامة · فاتقوا اللّٰه يا مفرقون ، وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون

التعليم الديني والعلمي

العلم علمان: علم الدين وعلم الدنيا، وكلاهما لازمان للانسان ليكون سعيداً في الدارين وقد حث الدين عليهما معاً، فمن طلب احدهما دون الآخر فقد قصّر في الامر الذي تركه

والناس اليوم على اقسام ثلاثة: طالب علم الآخرة فقط، وطالب علم الدنيا لا غير، ورجل لا في العير ولا في النفير، وهو شر الثلاثة

فمن طلب علم الآخرة وترك علم الدنيا زاعماً ان طلبه محرّم فهو غرٌّ جاهل، لم يدرِ من حقيقة الدين شيئاً، وقد اضرّ بسمعة الدين، وهؤلاء هم رهط كثير، تحسبهم ايقاظاً وهم رقود، وتخالهم احياء وهم اموات

ومن طلب علم الدنيا مجرداً عن الدين مدعياً ان الدين عقبة في سبيل المدنية فيجب ان يطرح جانباً، فقد اخطأ المرمى وحاد عن عن السبيل القويمة، لان الدين مصدر الاخلاق الفاضلة والآداب السامية، وكل قوم تجرّدوا عن الدين فقد انسلخوا عن المدنية الحق، وتجردوا عن الخلق الكريم، وان ادعوا ان ما يتعلمونه كافٍ لتهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق فهي دعوى يكذبها العيان، و يناقضها البرهان، لان الابتعاد عن المنكرات ورذائل الاخلاق لا تكون الا بسائق الدين الذي يحمل الانسان عَلَى الاعتقاد بان له يوماً يُدانُ فيه عَلَى اعماله ان خيراً فخير وان شراً فشر، وكم قد رأينا من هؤلاء المدعين قوماً قد انغمسوا في الشهوات وسبحوا في المنكرات، حيث لا رقيب عليهم ولا مشاهد لاعمالهم، وكثير منهم يأتون ما يأتون جهاراً غير مبالين بانتقاد، ولا عابئين بالجماعات والافراد، وان لاحت لهم منفعة شخصية سعوا اليها سعيهـا، وحثوا ركائب جدهم حتى يحصلوها، ولو اضرت بمجموع الامة، وان وجد بينهم من لا يميل الى ما يميلون، ولا يفعل ما يفعلون، فهم نفر قليل لم تزل تعاليم الدين مؤثرة في نفوسهم، فهم مسوقون بسائق الدين دون ان يشعروا، وماشون في سبيله وان لم يفقهوا

قد اخطأ هؤلاء الزاعمون ان الدين غير المدنية وانه حاجز دون ترقي الامم، ولو تفقهوا في الدين لعلموا انه المرشد للمرء الى ما فيه سعادة الدارين. فالدين هو القائل عَلَى لسان انبيائه ورسله: « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً »

وهو القائل : « اطلب العلم ولو بالصين » وهو القائل: « وقل ربي زدني علماً » وهو القائل: « الناس عالم او متعلم ولا خير فيما بينهما » وهو القائل : « ليس مني الا عالم او متعلم »

والعلم لفظ عام يقع تحته كل ما يسمى علما عَلَى شرط ان يكون منه فائدة للانسان تنفعه في دنياه او تعلي شأنه في آخرته · وقد بحثنا في تاريخ علمائنا الماضين فرأينا ان كثيراً منهم كانوا جامعين بين علمي الآخرة والأولى ، وان من كان يدرس علم احداهما يجلس والى جانبه من يدرس علم الثانية · ولم يكونوا ينكرون شيئًا من ذلك ، لانهم كانوا يعلمون ان المرء في حاجة الى العلمين كليهما ، وان الدين لا يحول دون ذلك ، بل يحث عليه حثا ، لتكون الامة معززة الجانب ، منيعة الحمى ، حمية الانف ، مرهوبة السطوة · عَلَى ذلك درج العلماء السابقون ، وهذه آثارهم شاهدة عليهم ، ودالة عَلَى ما كان لديهم من التسامح ، وما كان عندهم من العقل الراجح · ثم خلف من بعدهم خلف لم يدركوا شأوهم ، فظنوا ان الدين قاصر عَلَى مباحث معلومة وفصول مشهورة ، وانه لا يجوز لاحد ان يتعلم سواها ، بدعوى انها هي الدين كله ، الا سا ما يفترون

الامة فيما غبر لم ترقَ الا بالعلم والتمسك بحبال الدين الصحيح الخالي عن شوائب المتنطعين ، والمنقح من خرافات المتأخرين · فان شاءت الامة اليوم ان ترجع مجدها السالف فعليها باتباع سلفها الصالح ، وذلك بان تسعى الى النهوض من طريق الدين والعلم حتى تجاري الامم الراقية اليوم · فالعلم يعليها ، والدين يهديها ، ويحفظ عليها اخلاقها ومباديها ، ويكون لها المنار الانور ، والطريق اللاحب ، والمنهج الاسد

نحن في حاجة الى العلم شديدة لنسير مع من سبقنا في سبيل واحدة ، كما أننا في حاجة اشد لصيانة الاخلاق وتسويرها بكمالات الدين حتى لا يدمر عليها دامر من خلق سافل او شهوة دنيئة ، فيستشري فيها الفساد وتهدمها معاول الحوائك النفسية

فلنجتهد بغرس اغراس الاخلاق الدينية مع العلم في نفوس الطالبين ، حتى يشبوا وقد اصابوا من علمي الدين والدنيا المرام

فالدين للعلم كالدعائم للقصر ، خصوصًا اذا ارتضعه الانسان منذ الصغر خاليًا من كل شائبة ، نائيًا عن كل بدعة ، فيخرج وقد امتلأ فؤاده حمية لوطنه ، وحبًا لنفع الناس عَلَى اختلاف اجناسهم واديانهم ولغاتهم ، لأن من مباديء الدين ان الناس كلهم اخوان في الانسانية وابناء أسرة واحدة كما ورد : « الخلق كلهم عيال الله واحبهم اليه انفعهم لعياله »

ان الدين يعلم الانسان ان يكون اخاً للانسان ، يتعاون واياه عَلَى شؤون الحياة وما فيه الخير العام ، ويربّيه عَلَى حب الفضيلة وصنيعة المعروف والتجاوز عن الذنب، الى غير ذلك مما يجعل الناس في عيش رغيد وحياة هنيئة

ولا يجوز ان ننظر الى اعمال بعض المنتسبين الى الدين اليوم، ونتخذهم حجة عَلَى الدين، فان الدين غير رجاله ، وما كل منتسب الى الدين متديناً ، بل الدين هو تلك الجوهرة النفيسة ، والروح الطاهرة ، والمبدأ السامي ، والمعنى الاقدس ، الذي ما تجلّى عَلَى قلب، ولا حلّ في فؤاد ، الا طهّره من جميع الكدورات ، ونقّاه من كل العفونات

اجل ايها الناقمون عَلَى الدين، لا تنظروا الى عمل رجاله، وانظروا الى حقيقته وجوهره، فليس فيه ما يخالف المدنية ، ولا ما يحول دونكم ودون ما تطلبون من التقدم ، بل كلّه آيات بينات ، وعلائم واضحات ، ترشدكم الى السعي والاجتهاد حتى تكونوا في اعلى درجة التمدن والفلاح . وليس من دليل ادلّ عَلَى ذلك الا ان تنظروا في علائمه وآياته ، وتتفهموا مضامين جمله وكلماته ، فان فيها ما يدمغ كل منكر بما يورده من الكلام الحاث عَلَى السعي ، لتكون الامة في اوج العلى وذروة الترقي

فان شئتم الفلاح فاهتدوا بهديه ، واعتصموا بعروته ، وتمسكوا باوامره ونواهيه ، واعملوا بما تضمنه تكونوا من الناجحين

سلام عَلَى من يقول الحق و يذعن اليه، ويعمل لتكون امته خير الامم ترقياً ومجداً ، وعظمة وشرفاً ، فان ذلك هو الرجل كلّ الرجل ، وعليه يتوقف مستقبل الامة وتُبنى دعامة فخرها

فهبوا الى السباق ايها الشبان ، واجعلوا العلم الهدف الذي اليه ترمون ، والغاية التي اليها تستبقون ، وليكن الدين مناركم الذي به تُرشدون ، ونجمكم الذي به تهتدون ، لتنالوا ما ترجون، وتحظوا بما تبتغون، وانا لنتائج اعمالكم منتظرون، فهل انتم لرجائنا محققون؟؟؟

تعليم اللغة العربية

مقال كتبناه في الوسائل التي يلزم اتخاذها لاجل تسهيل تعليم وتدريس اللغة العربية واحيائها في مدة قليلة لدرجة كافية في مكاتب الدولة العثمانية بعد ايضاح وشرح

الاهمية التي حازها هذا اللسان في الممالك الاسلامية من حيث الديانة والسياسة والعلم والاقتصاد · وموضوع هذه المقالة هو احد مواد الامتحان التي طلبت ممن دخلوا في السباق لاحراز استاذية اللغة العربية في المكاتب السلطانية التي تشكلت حديثاً · وقد كان صاحب هذا الكتاب احد المسابقين والسابقين

. . . .

خلق الله هذا النوع من الانسان ، وجعله ناطقاً سامعاً ليتهيأ له الافادة والاستفادة الضروريتان لكمال المعيشة والحياة الطيبة · فلما كثر افراد الانسان في بقعة من الارض ، ضاقت عليهم بما رحبت ، فاضطروا إلى المهاجرة وترك الديار · ولما كانت البيئة تؤثر في الانسان، والحاجة تفتق الحيلة انصاعوا لحكم الضرورة ولجأوا الى وضع اسماء لمسميات لم يكونوا يعرفونها ، وهكذا فعل كل قبيل ممن هجر دياره · حتى اذا تمكن طول المدة منهم تحولت لغاتهم، وتبلبلت ألسنتهم ، وكان من اولئك الاقوام الجنس السامي الذي منه العرب اصحاب اللسان العربي الذي نزل القرآن الكريم به

ولما كان لكل لغة من لغات العالم ادوار مرّت عَلَى حياتها ، كان للسان العربي ادوار كذلك: كالدور القديم البائد ، والدور الجاهلي، والدور الاسلامي النبوي، والدور الاموي، والدور العباسي، والدور العثماني، ودور الانحطاط · وكانت هذه اللغة في ادوارها الأولى زاهية زاهرة ، لانها كانت لسان الدين والادب ولسان العلم الطبيعي والجغرافي والطب والحساب والهندسة وغير ذلك من الفنون · ثم عراها انحطاط هائل، واستولى عليها التأخر لاسباب كثيرة، منها انقسام الأمـة عَلَى نفسها وهجرُ العلم والميلُ الى المخاصمات والمنازعات الداخلية ، نخلف من بعد اولئك الرجال العظام خلفٌ اخذوا من اللغة

قشورها وهجروا لبابها ، فاكتفوا من النحو والصرف بالمناقشات والاعتراضات التي لا تجدي نفعاً ، ومن البلاغة بالزخارف المموّهة ، ومن الشعر برصف الالفاظ الموزونة ، ومن الانشاء بالسجع الثقيل عَلَى الطبع ، ومن متن اللغة بما لا يروي الغلّة ولا يطفئ الأُوار ، ثم اطالوا في توسيع المؤلفات عَلَى تلك الطريقة العقيمة ، فطالت سبل التحصيل عَلَى الطالبين ، وصعب تناول هذه اللغة الا بعد صرف وقت طويل

ولما كان هذا العصر عصر علمٍ وعملٍ ، واختراع وابتداع ، وكهرباء وبخار وبواخر وقطار ، وجب اتخاذ طرق جديدة في التعليم تسهيلاً عَلَى الراغبين في درس هذه اللغة الشريفة ، خصوصاً غير العرب من الترك والهنود والصينيين والعجم والبخاريين وسائر الامم الاسلامية وغير الاسلامية ، فان لهذه اللغة — كما هو معلوم لكل عثماني مفكر — من الاهمية في الدين والسياسة والعلم والاقتصاد شوطاً بعيداً ، فمن اراد ان يكون عالماً دينياً وجب عليه اتقانها حتى يتفهم معاني القرآن والحديث ، ويطلع عَلَى ما دونه العلماء من الآثار الدينية والادبية والتاريخية وغيرها ، فمعرفة معاني القرآن ضربة لازب عَلَى كل عالم ديني ، ولا يتأتى له ان يعرف معانيه الا بعد اتقان اللغة التي أُنزل فيها

ولهذه اللغة اهمية كبيرة من حيث الادب والعلم ، فانها مرجع عظيم لادباء العثمانيين وعلمائهم ، لأن كثيراً من الفاظها وتراكيبها صار جزأً متمماً للغة العثمانية حتى ان الاديب العثماني لا يكون أديباً كلّ الادب الاّ إذا كان عنده نصيب وافر وقسط كبير من معرفة لغة القرآن

واما أهميتها السياسية والاقتصادية فهي اوضح من الشمس ، إذ من المعلوم

أن الدولة العثمانية هي الدوله الاسلامية الوحيدة الواقفة في وجوه الطامعين بانتقاص البلاد الاسلامية من اطرافها ، خصوصاً البلاد العثمانية منها ، ولما كان ما تحت امرة الدولة من المسلمين جزأً يسيراً بالنسبة إلى ما هو خارج عنها كان لا بدّ من الاسباب الفعالة والوسائل الناجعة التي تقرّبنا من المسلمين الذين هم ليسوا عثمانيين وتقرّبهم منا ، وهذه الوسائل تفتقر إلى وسيلة تكون مقدمة لها ، وهذه الوسيلة هي استعمال لغة نتفاهم بها معهم ، ولما كانت اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي يخضع لها المسلمون كافة ويرضى بها مجموع الامة الاسلامية وجب تعميمها ونشرها بين العثمانيين لان جلّهم من المسلمين ، ومتى انتشرت بين طبقات الامة وسعينا لنشرها بين المسلمين في سائر البلاد التي ليست تحت امرتنا تمّ لنا ما نريد من جمع كلمة المسلمين وجعلهم يميلون كلّ الميل إلى الدولة العثمانية الاسلامية ، يلبونها عند الطلب ، ويحملون أثقالها عند الحاجة ، ولا يخفى ماوراء هذه الفائدة السياسية والاجتماعية من الفوائد الاقتصادية التي تكون منافعها متبادلة بيننا وبين اخواننا اولئك ، بل عند التفكير نجد أننا ننتفع منهم اكثر من انتفاعهم منا ، لاننا نكون نحن مرجعهم في كثير من الامور وتكون بلادنا مورداً لسيّاحهم ، ومقصداً لكبار رجالهم وهناك الفوائد المادية والمعنوية

ولما كان للغة العربية تلك الاهمية العظيمة وجب السعي وراء تسهيلها على الطلاب كما قدمنا ، وابقاؤها على هذه الصورة من الصعوبة ضرب من ضروب اماتتها ، وذلك يكون بوضع كتب سهلة العبارة حسنة الترتيب ، ثم انتخاب معلمين لها من الاكفاء الذين يحسنونها تكلماً وكتابة ، ولهم وقوف تام على اصول التعليم الحديث

هذا ما خطر لي الآن من شرح الاهمية التي حازها اللسان العربي في البلاد الاسلامية من حيث الديانة والسياسة والعلم والاقتصاد ، مع شرح الاسباب التي يلزم اتخاذها لاجل تسهيل تعليم وتعميم هذه اللغة الشريفة في مدة قليلة الى درجة كافية في مكاتب الدولة العلية العثمانية .

المرأة والتقليد

لا ريب عند من خبر جزءاً من احوال المرأة ان الأُبهة والتطاول على الاقران قد وجدا في صدرها متسعاً رحباً ومستناخاً سهلاً ، فهي تسعى كل حياتها الى ما يجعلها في نظر اترابها مثالاً لمظاهر الترف ، وانموذجاً لمطالع الشرف ، ولو كان ذلك من افعل الوسائل لإذهاب ثروة زوجها وجعلهِ فارغ الجيب ، صفر اليدين ، فلا ترى زياً من الازياء الجديدة الا بذلت وسعها ، وصرفت مجهودها ، حتى تحصّل على مقصودها وتنال مرغوبها ، وهكذا كلما ظهرت (موضة من الموض) وربما لم يمضِ على (الموضة) الاولى وقت كافٍ لِبلى ماخاطته على ذلك (الطرز) فهي تترك هذه الثياب كلها وتجعلها في زوايا الاهمال ، بداعي ان هذه (موضة) نُسخت وزيٌّ بطل ، وتجنح بميلها الغريب لأن تخيط ثياباً على مقتضى (الموضة) الجديدة

ويا ليت هذا الامر قاصر على غنيات النساء ومن عندهنّ او عند ازواجهنّ او اوليائهنّ القناطير من الذهب والفضة ، بل قد تناول الوسط من الناس فاجتاح اموالهم ، وأصاب الفقراء فأنزل بها البلايا وسوء العشرة مع الازواج

اي حرب يجني المرء على نفسه ان لم يطع زوجه بما تريد ان تصنعه من

الثياب الفاخرة التي تودي به وبماله ان كان من المتوسطين، وتلجئه الى اكتساب المال من مهاوش [1] ان كان من الفقراء · فلا تسل ياصاح عما ينشأ بين الزوجين من القطيعة بعد التواصل وسوء العشرة المفضي الى فساد البيوت واستئصال شأفة الاخلاق الصحيحة ، وقتل جراثيم التربية الحق فتنشأ اولادهما على ما تربَّوا عليه · كل ذلك بفضل التقليد الاعمى وعدم لزوم الانسان حده، ووقوفه عنده

ولو تأمل نساؤنا بعاقبة هذا الامر، وتفكرون في مغبة هذه الحال، لرجعن عن هذا الميل المهلك الذي يقوّض العيشة الهنية، ويجلب عليهنَّ وعلى بيوتهنَّ الجراثيم المعدية ، والامراض الاخلاقية المعضلة

ايُّ حرجٍ عَلَى المرأة لو نظرت الى ماتقتضيه حال زوجها فرمقته بعين الرحمة وعاشت معه عَلَى حسب حالته، مرتاحة البال ، ناعمة الحال، لا يشوب عيشها كدر ولايخالط قلبها همٌّ ولاحزن · اتظنُّ ان ذلك يزري بها عند اقرانها؟ او يسقط منزلتها عند جيرانها وصواحبها ، كلا والله ان كانت من العاقلات الفاضلات ، لأن الانسان ليس بزيه يعلو ولا بثيابه يسفل · عَلَى انها ان خافت ازدراء النساء بها ان لبست كما تقتضيه حال زوجها، فلا ينبغي لها ان تلقي لهنَّ بالا ، او تسمع لهنَّ مقالا ، وقد امرها الله تعالى كما امر الرجل بالاقتصاد وعدم التبذير، وذلك مقدمة السعادة في الدنيا والاخرة

ايُّ حرجٍ عَلَى هؤلاء النساء الغنيات المسرفات في اموال ازواجهنَّ عَلَى غير جدوى ، لو اقتصدن من ذلك المال الطائل ، ودفعنه الى الفقيرات من جنسهنَّ اللطيف ، ليستعنَّ به على العيش وسدّ عوز الحياة ؟ بل ايُّ حرجٍ

(١) المهاوش كل مال اصابه الانسان من غير حلّه

عليهن ان لم يفخرن عَلَى سواهن ويحقرن غيرهن ان كن لابسات ثياباً ادنى من ثيابهن ؟ ايظنن ان لبس الثياب والتطاول والتبجرف يزيدهن احتراماً في نفوس جنسهن او يكسبهن وقاراً في اعينهن ؟ كلا بل ان الامر عَلَى عكس ذلك ، كما هو المشاهد والمأخوذ بالقياس . فليتقين الله وليرحمن هؤلاء الفقيرات اللاتي لا يملك ازواجهن الكفاف من العيش

على ان ذلك الامر قد دعا كثيراً من الشبان الى تفضيل العزوبة عَلَى الزواج تخلصاً من مخالب مايلزم الزوج في هذا العصر مما لا ينطبق عَلَى اصل من اصول الاقتصاد ، وتفصياً من ان ينوء تحت ذلك العبء الثقيل ، الا وهو بذل الاموال الطائلة في سبيل مطالب الزوجة ، وان يكن اكثرها لا يجوزه عقل او دين . اضف الى ذلك ما يتغالى الناس به من وفرة مهور النساء ، رغبةً في التفاخر

. . . .

رويدك يا قلم فأحجم عن لوم المرأة واعرف السبب الذي دعاها الى التطاول ، ووجه اليه سهام اللوم والانتقاد . الم تعلم انه اذا اجتمع الفاعل والمتسبب يضاف الحكم الى المتسبب

مَن السببُ في تعاسة حال المرأة ؟ هو الرجل ولولا الرجل لكانت المرأة في اعلى درجات الكمال ، لان الله تعالى جعله مسيطراً عليها ، مراقباً لحالها ووكل اليه امر تهذيبها وتعليمها ، واضاف اليه تقصيرها واهمالها

ظن قوم ان السيطرة عَلَى المرأة تمنعها حقوقها التي فرضها الله لها ، وظنوا ان ذلك مما لا ينبغي للمرأة ان تناله جهلاً منهم باحكام الدين وطرق التهذيب ، فاستعملوا المرأة آلة وسلبوها ما لها من الواجبات ، واكلوا اموالها بالباطل ان كان

لها مال ، ولم يعلموا ان المرأة خلقت لأعلى من ذلك ، لان عليها سعادة الحياة ومدارَ رقيها ، وبها الشقاء والتعاسة ، فكان عملهم هذا داعية الشقاء ، وواسطة العناء ، لاهمالهم تعليمها وتهذيبها ، وارشادها الى ما تأمر به العقول الصحيحة ، والشرائع الحق ، ليطهر قلبها من الطمع والحسد وحب الأبهة ، وتميل الى ما ينفع زوجها واولادها واهلها ، وذواتها وامتها

وهناك قوم تطرفوا ووقفوا عَلَى شفا جُرُفٍ هار ، ورفعوا المرأة عما منحتها اياه طبيعتها ، وساووها بالرجل من كل الوجوه بل رفعوها عليه ، وان كان جسمها وعقلها لا يساعدانها عَلَى ذلك ولكنهم عرفوا مغبة هذا التطرف حتى نساء الغرب واميركا انفسهن ، فهن يداعين بذلك و يطلبن ان يسرن كما تأمر طبيعتهن . وان كان بعضنا لم يزل مصراً عَلَى مجاهرته بافكاره نحوها فهو لم يزل هو وامثاله يطالبون برفع الحجاب الذي عرف فائدته الخاص والعام ، وان تكون المرأة كالرجل وان اختلط الحابل بالنابل .... الى غير ذلك من الترهات

نعم لو اقتصر عَلَى المطالبة بتعليم المرأة وتهذيبها لكان نعم الصنيع ما صنع . على ان ذلك موضوع واسع قد استوفى الكلام فيه من تصدى للرد عليهم وفي جملتهم كاتب هذه السطور في كتابه « الاسلام روح المدنية »

وفي الجملة فان سعادة الحياة متوقفة على المرأة فيجب ان تحسن تربيتها لتخرج لنا رجالاً يفتخر بهم الدهر ، ونقرّ بهم عين الزمان ، والاَّ فالمرأة غير ملومة اذا لم يقم اولياؤها بشؤون تهذيبها وتعليمها والسلام



بيروت : ذي الحجة ١٣٢٩ – تشرين الثاني ١٩١١

مصطفى الغلاييني

بيان ما طبع من آثار المؤلف

اريج الزهر

هو هذا الكتاب – وثمنه خمسة بشالك في بيروت وثلاثة ارباع الريال المجيدي في البلاد العثمانية واربعة فرنكات في مصر والبلاد الاجنبية خالصاً من اجرة البريد (البوسطة)

الدروس العربية

هو سلسلة كتب في العلوم العربية للمدارس الابتدائية والرشدية والاعدادية والسلطانية ، سهل الترتيب ، حسن التبويب ، كثير الامثلة والتمارين ، وقد قررت نظارة المعارف تدريسه في مكاتبها ، كما قرره كثير من المدارس الاهلية في بيروت وغيرها ، وقد صدر منه الى الآن ثلاث حلقات وهذه اسماؤها و بيان اسعارها بالمفرد :

متليك

٥ سلم الدروس العربية	« الحلقة الاولى »
٨ القسم التمهيدي	« : الثانية »
١٠ القسم الاول	« : الثالثة »

و بقية الحلقات تحت الطبع

لباب الخيار في سيرة المختار

هو مختصر مفيد في السيرة النبوية مذيل بزهاء ثلاثمائة حديث في الاخلاق والاجتماع مشروحة شرحاً لطيفاً وقد نفدت الطبعة الاولى منه فطبع للمرة الثانية – وثمنه بالافراد ١٠ متليكات

الثريا المضية في الدروس العروضية

وهو مرتب على اسلوب مبتكر يسهل علم العروض على طالبه ايما تسهيل – وثمنه بالافراد ١٠ متليكات

الاسلام روح المدنية

هو كتاب جليل يثبت اجلى بيان ان الاسلام روح المدنية و يدحض مزاعم «اللورد كرومر» وامثاله فيما يجنوه على الاسلام – وثمنه بالافراد ٢٠ متيكاً

مجلة النبراس

تبحث في العلم والادب والاجتماع والعمران ، وقد صدر منها اعداد سنتين – وثمن اعداد كل سنة ريال مجيدي (بلا تجليد)

وكلها تطلب من « المكتبة الاهلية » في بيروت

كتاب البنين

كتاب في الاخلاق التي تحتاج اليها الناشئة ، كثير الفوائد ، عظيم النفع . ألفه «بول دومر» رأس مجلس الامة الفرنساوية سابقاً ، وترجمه بالعربية الفصحى «عبد الغني العريسي» احد صاحبي جريدة المفيد . وهو يطلب من المكتبة الاهلية – وثمنه نصف ريال مجيدي عدا اجرة البريد